التنشئة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام

الطبعة الأولى

٢٠١٤م- ١٤٣٥هـ

طبع في لبنان
مطبعة البصائر

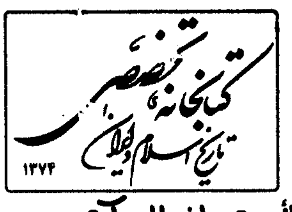


بيروت - لبنان 009613210986
009611547698
العراق 009647813111272
iraqsms@gmail.com



التنشئة الاجتماعية عند العرب قبل الاسلام

دراسة تاريخيــة



الأستـاذ الدكتور

شاكر مجيد كاظم

رئيس قسم التاريخ

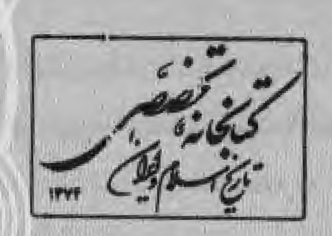
كلية الاداب/جامعة البصرة



بيروت - لبنان



للطباعة والنشر والتوزيع



المبحث الأول
عامـــل الأســـرة

١ - دور الأسرة في التنشئة الاجتماعية

الأسرة تعني الدرع الحصينة[١] وأسرة الرجل رهطه[٢] وعدتها طائفة من اللغويين عشيرته الأدنين[٣] والأسرة أصغر جماعة قبلية وأدناها في سلم حساب النسب [*][٤] ، وهي تمثل الزوج والزوجة والأولاد[٥] وترتبط الأسرة برابطة الرحم والقرابة من جهة الأب والأم وكان العرب يفخرون بهذه الرابطة فهم يقولون رجل معم مخول أي كريم الأعمام والأخوال[٦] .

فالأسرة إذن هي الأساس الأول للقبيلة عند أكثر الأمم القديمة[٧] ونقل (محمد محمود جمعة) ما أثبته (روبرت لوي) أن الأسرة هي أصغر وحدة

---

(١) الأزهري، تهذيب اللغة ١٣ / ٦٠ (أسر)، ابن منظور، المصدر السابق، ٤ / ١٩، (أسر)؛ الفيروز آبادي، المصدر السابق ١ / ٣٧٧؛ الزبيدي، المصدر السابق، (ط صادر)، ٣ / ١٣ (أسر).

(٢) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص ١٤٩؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ١ / ١٠٧.

(٣) الأزهري، المصدر السابق، ١٣ / ٦٢ (أسر)؛ الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر، ٣ / ١٣ (أسر).

(٤) محمد محمود جمعة، المصدر السابق، ص ٩؛ زهير حطب، المصدر السابق، ص ٤٣، ٤٤؛ عادل جاسم البياتي، الشعر في داحس والغبراء، ص ٨٥؛ بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ص ٢٤.

(٥) محمد محمود جمعة، المصدر السابق، ص ١٠.

(٦) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ١٢٢؛ ابن منظور، المصدر السابق ١١ / ٢٢٤؛ الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٧ / ٣١٢.

(٧) محمد محمود جمعة، المصدر السابق، ص ١٤٤.

اجتماعية وأن الجماعات الكبيرة كالعشيرة والقبيلة قد نشأت من نمو الأسرة، وبهذا نقض ما كان قد ذهب إليه (ماك لينان) ثم (روبرتسن سمث) من أن العشيرة أصغر وحدة اجتماعية[١] . أن أقدم صورة للأسرة عند الأقوام العربية القديمة هي الأسرة المكونة من أفراد يكون (النسب فيها إلى الأب فقط وهذا النوع من الأسر هو الذي كان شائعاً في جزيرة العرب قبيل ظهور الإسلام) وكان الأب هو رأس الأسرة[٢] لذلك غلب عليه طابع النظام الأبوي[٣] والذي (تخضع - إليه الأسرة - منذ أقدم الأزمنة)[٤] .

يفهم مما تقدم أن القبيلة تمثل الوحدة الاجتماعية الكبرى في المجتمع القبلي وهي تضم الأسرة والعشيرة وأن النسب فيها كان أبوياً على نطاق واسع. إذن الأسرة هي أول جماعة يعرفها الطفل ثم القبيلة[٥] .

وتعد التنشئة من أهم وظائف الأسرة[٦] بل قيل أن (أول عملية اجتماعية تقوم بها الأسرة بالنسبة للطفل هي عملية التنشئة الاجتماعية)[٧] التي يتم عن طريقها تزويد الطفل بالقيم التي ينشدها المجتمع[٨] كما يتم من خلالها

---

(١) محمد محمود جمعة، المصدر السابق، ص ١٤٤، أنظر كذلك فيلب حتي، تاريخ العرب ١ / ٣٣، بلاشير، المصدر السابق، ص ٢٤.

(٢) محمد محمود جمعة، المصدر السابق، ص ١٢، وقد عرفت بعض الشعوب الإنسانية أنهم كانوا ينسبون إلى الأم راجع: - ولكن، المصدر السابق، ص ٣ وما بعدها؛ علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص ٢٢، ١١٧.

(٣) هاشم يونس عبد الرحمن الحياة الفكرية في الجزيرة العربية، المصدر السابق، ص ٥٦؛ أنمار نزار الحديثي، المصدر السابق، ص ٧٠.

(٤) بلاشير، المصدر السابق، ص ٢٤.

(٥) عاطف وصفي، الانثروبولوجيا الثقافية، ص ٩٠.

(٦) محمود عبد القادر محمد علي، تربية الطفل والشخصية، مجلة كلية الآداب والتربية العدد (٣ - ٤)، الكويت، ١٩٧٣، ص ٣٣٤.

(٧) راجحة أحمد صكر، المصدر السابق، ص ١٥.

(٨) بتول سعيد غزال، المصدر السابق، ص ٢٢.

اكتسابه للأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع[١] وقد نعتت الأسرة بأنها المحضـّن الطبيعي الذي يتولى حماية الناشئة ورعايتها[٢] وهي التي توفر للطفل الرعاية والاهتمام وتنمي جسده وعقله وروحه[٣] والحفاظ على صحته[٤] لأن الطفل أول ما يقع عليه بصره هم أفراد أسرته، فيتطبع بطباعهم ويتأثر بسلوكهم ويقتدي بأفعالهم، فإذا كانت الأسرة صالحة نشأ الطفل وشب على الأخلاق الفاضلة، أما إذا كانت الأسرة طالحة فينشأ على الأخلاق السيئة[٥] .

كانت الأسرة العربية قبل الإسلام معتمدة اعتماداً كلياً على نفسها في تقديم معظم الخدمات والواجبات لإفرادها، فقد كانت مسؤولة عن عملية تنشئة أطفالها وتربيتهم اجتماعياً وأخلاقياً وتعد الأسرة المصدر الأول للتربية عند العرب قبل الإسلام ولها دور متميز في عملية التنشئة، بل أنها أهم عواملها في ذلك العصر، حيث تقوم بتدريب أطفالها منذ نعومة أظفارها على بعض الفنون والحرف الضرورية لحياتهم كالصيد والرعي والقنص وإعداد آلات الحرب وعمل الأواني، ودبغ الجلود، وغزل الصوف وحياكة الملابس وتربية الماشية[٦] وذكر أن بيئة التنشئة عند العرب قبل الإسلام كانت الأسرة والقبيلة وأن التربية عند عرب البادية عملية فطرية تتناسب مع صفاء الطبيعة وحياة الحرية وعرفت فيها (الأخلاق العربية التي كانوا ينشئون

---

(١) عاطف وصفي، المصدر السابق، ص ٩٥؛ صالح عبد العزيز، تطور النظرية التربوية، ص ٧٨؛ بتول غزال سعيد، المصدر السابق، ص ٦.

(٢) محمد عبيد عبد الله، مسالك الإسلام، مجلة دراسات الأجيال، ع (١ - ٢) بغداد، ١٩٨٤، ص ١٦٢.

(٣) عبد علي سلمان، المصدر السابق، الانثرويولوجيا الاجتماعية، ص ٦٣.

(٤) محمود حسن، الأسرة ومشكلاتها، المقدمة، صفحة آ.

(٥) محمد عبيد عبد الله، المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٦) عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ، ص ١٣٦؛ أحمد حقي الحلي، مبادئ التربية، ص ٥٦.

الأطفال عليها كالمروءة والكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف والوفاء والغيرة كما اشتهرت فيهم الفروسية)[١] . فهذا يعني إن الأسرة تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية للطفل عن طريق نقل التراث الحضاري الخاص بالمجتمع الذي ينتمي إليه وغرس المعتقدات والتقاليد الشائعة عندهم[٢] في نفسه، فينشأ منذ طفولته على تلك القيم والأعراف والمعتقدات (فلا يستطيع التخلص منها لأنه لا يعرف غيرها ولأنه يكون قد شب عليها ويكون بدورها قد تغلغلت في نفسه وأصبحت من مكونات شخصيته)[٣] . لذا تعد (الأسرة أهم عامل في نقل التراث) إلى الطفل[٤] وقد تجلى ذلك واضحاً في مظاهر اللغة والعقائد والمعارف والعادات والتقاليد، كما تعد الأسرة الوسيلة التي تربط الفرد بالحضارة[٥] ، لأن التنشئة الاجتماعية تمثل أبرز جوانب نقل التراث في المجتمع من قيم وأفكار من جيل لآخر[٦] ، وعن طريقها تتحدد شخصية الطفل والمعالم الرئيسية لسلوكه[٧] فعندما يشب ويترعرع فأنه يعتمد على ما اكتسبه من القيم وسلوك وأخلاق وطباع خاصة بمجتمعه وهذه تختلف من مجتمع لآخر حسب الحضارة التي ينتمي إليها[٨] ولعل هذا يساعدنا على تفسير عبارة: - إن الأسرة تقوم (في عملية تلقين الحضارة لأطفالها)[٩] .

---

(١) محمود مصري، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٢) صالح عبد العزيز، المصدر السابق، ص ٧٨ - ٨٠.

(٣) جمال حسين الآلوسي وآخرون، المصدر السابق، ص ١٣٠.

(٤) محمد الجواهري، المصدر السابق، ص ٤٢.

(٥) منى حميد حاتم العكيلي، التنشئة الأسرية وأثرها في أحداث القلق العصبي، رسالة ماجستير، مطبوعة بالآلة الطابعة، بغداد، ١٩٨١، ص ٢٣، وأنظر كذلك فينكس، فلسفة التربية، ص ٥٩ - ٦٠.

(٦) جمال حسين الآلوسي، المصدر السابق، ص ١٢٨؛ وأنظر كذلك أحمد عزت راجح، المصدر السابق، ص٥١٧.

(٧) محمود عبد القادر محمد علي، المصدر السابق، ص ٣٣٢.

(٨) أحمد أبو زيد، المصدر السابق، ص ٩٥.

(٩) عاطف وصفي، المصدر السابق، ص ٩٦.

ولكون التنشئة الاجتماعية (مسؤولية أساسية من مسؤوليات الأسرة التي تعهدت أطفالها بالتدريب على اكتساب عادات القبيلة والقيم المقبولة لديها)[1] فأن العرب قبل الإسلام قد عرفوا ذلك وتنبهوا إليه وكانوا شديدي الحرص على نقل تراثهم وتقاليدهم من جيل لجيل حيث كانوا ينقلون إلى أبناءهم أخبار وحوادث وحكم ومثل وأحكام ممن تعدهم من آباءهم وأجدادهم وقصص أيام العرب والأبطال الشجعان وأخبار الملوك وسادات القبائل وأخبارهم وكذلك الشعر والمناسبات التي أنشد فيها وأخبار الجن والأساطير والخرافات[2] (وكانت هذه الأخبار والأشعار تغذيهم وتدفعهم إلى الأخلاق الكريمة والاقتداء بأبطالها)[3] فمن ذلك ما روته كتب التاريخ والأدب بشأن بعض الأحكام التي حكم بها حكام العرب فصارت سنة للناس نهجوا عليها كالوفاء بالنذر والمنع من نكاح المحارم وتحريم الزنا وأن لا يطوف بالبيت عريان[4] وحكم الخنثى[5] وعدم الجمع بين الأختين[6]، وللذكر مثل حظ الأنثيين[7] .

إن الأسرة عند العرب لها تأثير كبير على أبنائها وهذا نستشفه من خلال قوة العلاقات التي تشد من أعضاء الأسرة لأنهم يعيشون عيشة تضامنية، فهم يلبون نداء أحد أفراد أسرتهم ويدافعون عنه ويتحملون وزر فعله وهذا

---

(١) سعيد إبراهيم الجبار، المصدر السابق، ص ٤٢.

(٢) جواد علي، المفصل ٥ / ٣٥ - ٣٦.

(٣) محمود مصري، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٤) الآلوسي، بلوغ الأرب ١ / ٣٢٤.

(٥) ابن حبيب، المحبر، ص ٢٣٦؛ أبي الفداء، المختصر ١ / ٩٩.

(٦) الطبري، التفسير ٤ / ٣١٨ - ٣٢٠؛ الزمخشري، التفسير ١ / ٤٩٤ - ٤٩٦؛ القرطبي، التفسير ٥ / ١١٦ - ١١٩؛ الآلوسي، روح المعاني ٤ / ٢٦١.

(٧) ابن حبيب، المحبر، ص ٢٣٦ - ٢٣٧؛ الطبري م. ن ٤ / ٢٧٤ - ٢٨٢؛ الزمخشري م. ن ١ / ٤٨٠ - ٤٨٤؛ القرطبي، م. ن ٥ / ٥٨ وما بعدها.

نتحسسه من خلال قيام العديد من أيام العرب بسبب سلوك معين أو تصرف من أحد أفرادها[1] فهذا يدل على أثر الأسرة في التنشئة الاجتماعية إذ تغرس فيهم قوة التماسك والتآزر والتناصر فيما بينهم حتى أن المعاجم العربية عندما شرحت كلمة الأسرة كان من معانيها الدرع الحصين[2] .

إن مكانة الأطفال في المجتمع تتأثر تأثيراً كبيراً بمكانة الأسرة التي ينتمي إليها، فالطفل الذي ينشأ في بيوت السادة والأشراف يختلف اختلافاً بيناً عن الطفل الذي ينشأ في بيوت الرق والعبيد لأن (في الماضي كان الطفل يرث مكانة أسرته)[3] . ويظهر ذلك من خلال الأعمال والمهن التي يقوم بها والمكانة الاجتماعية التي سوف يتبوأها بالمجتمع[4] وهذا الوضع الاجتماعي له علاقة وثيقة بتنشئة الطفل لأن كلا الأسرتين سوف تنشئ طفلها حسب وضعها ومكانتها الاجتماعية وتقوم بتهيئته وإعداده لأخذ دوره في المجتمع وحياته المستقبلية اللذين يتلاءمان أصلاً مع مكانة أسرته، وقد قيل أنه عن طريق الأسرة يكتسب المرء خبراته بل وحتى تدريبه وتأهيله وإعداده[5]، إذن فبصمات الأسرة تظهر واضحة على جيلها الثاني الذي يرث ذلك من آبائه.

إن عيش الطفل في جو الأسرة وتحت مراقبة أفرادها ولا سيما الأب بوصفه رب هذه الأسرة التي لها دور كبير في تنشئته، وفي أخلاقه وطباعه ومعاملته للآخرين ونستطيع أن تستدل على ذلك من أن (امرأ القيس بن

---

(١) أحمد محمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب، ص ٣٩٠.

(٢) أنظر، المقدمة من هذا الفصل.

(٣) محمد الجواهري، الطفل في التراث الشعبي، مجلة عالم الفكر، مجلد (١٠)،ع (٣)،الكويت، ١٩٧٩، ص٥٢.

(٤) علي الهاشمي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٦٢ - ٢٧٤؛ عمر الدسوقي، الفتوة عند العرب، ص ٣٩٠؛ وفاء علي، المصدر السابق، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٥) إحسان محمد الحسن، العائلة والقرابة، ص ٢٨.

حجر الكندي) في طفولته (نشأ طريد والده) بسبب خلاعته فشب (الفتى في عهد غرباء)[1] وقال (ابن رشيق) أنه لذلك (اشتغل بالخمر والزنا عن الملك والرياسة)[2] حيث (كان في بني حنظلة مقيماً لأن ظئره كانت امرأة منهم)[3]. وأنا أرجح ما اتصف به امرؤ القيس من أخلاق وسلوك وتصرفات اجتماعية، غير مقبولة ومرفوضة من المجتمع لأنها تمس العفة، وقد عبر عنها في معلقته وما عمله في دارة جلجل[4] ما هي إلا انعكاس لتنشئته التي عاشها مطروداً من أسرته ولو كان يعيش في كنفها وفي رعاية والده الملك (حجر) لما كانت أخلاقه وسلوكه بهذا الشكل الذي عرف عنه وهذا يدل بشكل قاطع على أثر الأسرة في التنشئة الاجتماعية عند العرب قبل الاسلام. وهذا يتفق مع ما تؤكده الدراسات العلمية الحديثة بشأن اهمية ودور الاسرة في التنشئة الاجتماعية إذ تعدها الحجر الأساس في تلك العملية[5] .

من خلال ما تقدم يتضح لنا أن الأسرة إحدى العوامل الرئيسة في تنشئة الأطفال فهي تلعب دوراً مهماً في تربيتهم وغرس تقاليد المجتمع فيهم وعن طريقها يتعلمون الشجاعة والنخوة وزرع بذور الكرم والسخاء فيهم وتعليمهم الصبر ومقاومة المحن ومواجهة الصعاب وكيفية التعامل مع قسوة الحياة[6] .

---

(١) أبو عبيدة، أيام العرب، ق ١ / ٢٧٨.

(٢) العمدة ١ / ٤٣.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ط ١، طبعة دار الكتب المصرية ٩ / ٨٨.

(٤) البطليوسي، شرح الأشعار الستة ١ / ٧٥؛ الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص ١٥ وما بعدها، ودارة جلجل تقع بغمر ذي كندة وهي من منازل حجر الكندي بنجد وقيل إنها بين شُعبي وبين حسلات، وبين وادي المياه وبين البردان وهي دار الضباب مما يواجه نخيل بني فزارة، أنظر الأصمعي، الدارات، نشر (أوغست هفنر) مجلة المشرق مجلد ١، ١٨٩٨، ص ٢٦؛ ياقوت / معجم البلدان، ٢ / ٤٢٦.

(٥) أحمد زكي صالح، علم النفس التربوي، ص ١٨٢ - ١٨٤؛ حامد عبد السلام زهران، المصدر السابق، ص ٢٥٣ - ٢٥٦؛ أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، ص ٥١٧ - ٥١٨، ٥٢١؛ إيمان نعيم العقراوي، المصدر السابق، ص ٢٢ وما بعدها..

(٦) محمود مصري، المصدر السابق، ص ٤٨.

تشكل السنوات الأولى من عمر الطفل أهمية كبيرة في تنشئته لما لها من أثر في اكتسابه عادات وقيم مجتمعه[1] وتتكون فيها السمات العامة لشخصيته في المستقبل[2] ، فيتعلم الطفل خلالها المعايير الاجتماعية والخلقية التي يحبذها المجتمع، وينهونه عن الصفات التي تعد منبوذة وغير مقبولة لديهم[3] لأن ما يتعلمه ويكتسبه الطفل خلال هذه المدة من قيم واتجاهات تظل عالقة بضميره ويصعب تغييرها في الكبر[4].

لقد عنى العرب قبل الإسلام بمسألة تنشئة الأطفال وتربيتهم وتوجيههم وإرشادهم لما للتنشئة في الصغر من أثر فعال على سلوك الطفل في كبره وقد شعروا بأهمية المرحلة الأولى من عمره لذلك قالوا أن: (أقوم التقويم ما كان في الصغر، فأما إذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعباً)[5] . وقالت العرب (بادروا بتأديب الأطفال قبل تراكم الأشغال)[6] لأن تأديب الطفل في صغره يكون أسلس قياداً، وأسرع مواتاة من الكبير، لذلك فأن الطفل إذا اعتاد على الشيء سواء كان خيراً أم شراً أصبح جزءاً من سلوكه وتصرفاته[7] .

---

(١) جمال حسين الآلوسي وآخرون، ص ٨٥ - ٨٦، أحمد عزت راجح، المصدر السابق، ص ٥١٨؛ ألفت حقي، ثقافة الطفل، مجلة عالم الفكر، مجلد (١٠) ع (٣)، الكويت، ١٩٧٩، ص ٦٨.

(٢) أحمد أبو زيد، محاضرات في الانثروبولوجيا، ص ٨٠ - ٨١؛ جمال حسين الآلوسي وآخرون، المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٣) أحمد أبو زيد، المصدر نفسه، ص ٨٠ - ٨١؛ جمال حسين الآلوسي وآخرون، المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٤) الغزالي، إحياء علوم الدين ٣ / ٧٢؛ نصر الدين جابر، انعكاسات أسلوب التقبل، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسطنطينة عدد (٩)، الجزائر، ١٩٩٨، ص ٥٠.

(٥) محمود الحاد قاسم تاريخ طب الأطفال، ص ٢١٧.

(٦) الراغب الأصفهاني، المحاضرات ١ / ٤٧.

(٧) الغزالي، إحياء علوم الدين ٣ / ٦٩؛ ابن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، ص ١١٧.

قال ابن أبي الصلت: -

أن الغلام مطيع من يأدبه ولا يطيعك كهل حين يكتهل[1]

فالسنوات الأولى من حياة الطفل لها من الأهمية بمكانة في اكتسابه للأخلاق الحميدة والصفات الطيبة أو الصفات المذمومة والأخلاق الرديئة لذلك قيل أن الصبي إذا أهمل في ابتداء نشأته خرج في الأغلب رديء الأخلاق[2] . وقيل إن السنوات الخمس الأولى التي نعتت بأنها الحرجة من عمره تجده في كنف أسرته ولذلك يصبح في مستقبله شبيهاً لهذه الأسرة حيث يتأثر بأفرادها[3] . وأول من يتأثر به الطفل هو الوالدان لأنهما أكثر التصاقاً به وأكثر عناية بشؤونه ورعايته لأمره، فمتى ما كان قدوة حسنة له كان سلوكه حسناً ومتى كان الضد كان سلوك الطفل معوجاً بعيداً عن معاني الخير والسلوك القويم[4] . وقد نبه الرسول الكريم محمد (ص) إلى ذلك فقال (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[5] . فهذا يعني أن الطفل عرضة لتلقي أي اعوجاج أو استقامة من السلوك والخصال الممدوحة أو المذمومة لأن المرء يشب على ما شب عليه كما يقول القدامى[6] . وإن تعوده على الأشياء الذميمة يصعب إبعاده عنها

(١) ديوانه، تحقيق ودراسة بهجة عبد الغفور الحديثي، رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الطابعة بغداد ١٩٧٣، ص ٢٢؛ البحتري الحماسة، ص ٣٧٣؛ ابن عبد البر، مختصر جامع بيان العلم، ص ٤٠، باختلاف الألفاظ.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين ٣ / ٧٢ وما بعدها.

(٣) جمال حسين الآلوسي وآخرون، المصدر السابق، ص ١٢٩؛ ألفت حقي، المصدر السابق، ص ١٢٩.

(٤) الغزالي، المصدر السابق ٣ / ٧٤؛ محمد عبد الله عبيدات، المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٥) أبو يعلي الموصلي، مسند أبي يعلى ٢ / ٢٤٠؛ مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم ٣ / ٢٠٤٨؛ محمد بن حيان، صحيح ابن حيان ١ / ٣٣٦؛ البيهقي، السنن الكبرى ٦ / ٢٠٢، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٤ / ١١٤.

(٦) محمد العروسي المطوي، الطفل في الأدب العربي، مجلة الكتاب، عدد (٦)، بغداد، ١٩٧٥، ص ٢٧٤.

فيما بعد ولو (أخذ في الأدب غلبة تلك الأشياء عسر انتقاله ولم يستطع مفارقة ما اعتاده في الصبا)[١] لأن المرء يستمد أخلاقه وقيمه من سنوات طفولته الأولى[٢] وإن ما يحصل عليه المرء من عادات وقيم ومعتقدات في طفولته من أسرته يصعب تغييرها فيما بعد ويبقى أثرها ملازماً له في عهد الكبر[٣] .

وتاريخ الأدب العربي تكثر فيه الأقوال النثرية والشعرية التي يدعم بها المربون نظريتهم هذه من ذلك: - (من أدب ابنه صغيراً قرّت به عينه كبيراً)

وقالوا: -

قد ينفع الأدب الأحداث في مهل ... وليس ينفع عند الكبرة الأدب

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولن يلين إذا قومته الخشب

وقال الشاعر: -

وإن من أدبته في الصبا ... كالعود يسقي الماء في غرسه[٤]

ويمكن أن نستدل على أهمية السنوات الأولى في عمر الطفل من خلال حادثة وقعت سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م عندما كتب الخليفة أبو بكر (رض) إلى خالد بن الوليد أن يلتحق بقوات تحرير الشام مع جزء من قواته فتوجه إليها من العراق[٥] قاطعاً بادية السماوة حتى انتهى إلى قراقر (فلم يعرف الطريق فدل على رافع ابن عمير الطائي وكان دليلاً خريتاً[٦]) فأرشده (رافع) إلى

---

(١) ابن الجزار، سياسة الصبيان، ص ١٣٥.

(٢) ألفت حقي، المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٣) أحمد عزت راجح، المصدر السابق، ص ٥١٨.

(٤) ابن عبد البر، مختصر جامع بيان العلم، ص ٤٠ - ٤٢.

(٥) خليفة بن خياط، تاريخ، تحقيق سهيل زكار ق ١ / ١٠٣؛ الطبري، تاريخ ٣ / ٣٩٣.

(٦) ابن قتيبة، عيون الأخبار ٢ / ١٤٢؛ وقراقر واد لكلب بالسماوة من ناحية العراق نزله خالد بن الوليد عند قصده الشام، ياقوت، معجم البلدان ٤ / ٣١٧.

الطريقة التي يمكن اجتياز المفازة بسلام، فوافق عليها خالد وسار على ضوئها فلما وصل إلى آخر المفازة جهد الناس وعطشت دوابهم فقال له خالد ويحك؟ قال: أدركت الري إن شاء الله، انظروا هل تجدون شجرة عوسج على ظهر الطريق؟ فنظروا فوجدوها فقال: - احفروا في أصلها فحفروا فوجدوا عيناً فشربوا منها وتزودوا، فقال رافع: - والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام[1] . وقد أثبت أحد المسلمين هذه الحادثة في رجز له[2] .

إن هذا النص يوضح بشكل كبير أهمية السنوات الأولى للطفل، ويشير إلى سرعة التعلم فيها وقوة الذاكرة بدلالة حفظ الأحداث والتمييز بين المواقع بحيث تمكن (رافع) أن يذكر عبر هذه السنوات العديدة التي خلت من عمره موضع الماء تحت الشجرة التي سبق أن مرّ عليها هو وأبوه، فلم تغب عن باله وقد ذكر أحد الباحثين أن العرب منذ القدم عُرفوا بنباهتهم وبقوة شحذ أذهانهم وحدة الذاكرة عندهم مبكراً وامتازوا بدقة ملاحظتهم للظواهر الطبيعية المحيطة بهم[3] .

وافتخر العربي بالأسرة التي نشأ فيها وتربى لأنه تعلم منها قيم مجتمعه وعاداته فهذا (عبد المسيح بن عسله) يفتخر بأسرته: -

وأنا امرؤ من آل مرة إنْ   أكلمكم لا ترفأوا كلمي
من أسرة لي أن لقيتهمُ   حامي الحقيقة دافعي الظلم[4]

ولغرض تسليط المزيد من الضوء على دور الأسرة في التنشئة الاجتماعية

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار ٢/١٤٢ - ١٤٣؛ الطبري، تاريخ ٣ / ٤١؛ المرزوقي، المصدر السابق ٢ / ٢١٦.

(٢) ابن حبيب، المحبر، ص ١٩٠ - ١٩١؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار ٢ / ١٤٣؛ الطبري، تاريخ ٣ / ٤١٦، ابن دريد، الاشتقاق، ص ٣٨٩.

(٣) للتفصيل راجع: كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ١ / ٤١.

(٤) لويس شيخو، شعراء النصرانية، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

عند العرب قبل الإسلام يمكن توضيحه من خلال ما يلعبه قطبا الأسرة وهما الأم والأب فيها.

دور الأم:

تعد الأم (أهم عامل في عملية التنشئة الاجتماعية للوليد)[١] . وقيل أن (دور الأم بالتنشئة أكثر من دور الأب)[٢] وذلك لأنها أطول مقاماً معهم وأكثر لهم لزاماً من أجل ذلك كان تنشئتها وتربيتها لهم أكثر أثر من غيرها[٣] لأن الأب يقضي أكثر أوقاته خارج المنزل سواء لكسب الرزق أو المشاركة في فعاليات القبيلة والأم هي الركن الأساس في الأسرة بحكم قيامها بإدارة وتدبير المنزل وتربية الأطفال ومشاركتها للرجال في كثير من الأعمال[٤] وذكر أن من الأعمال التي تقوم بها المرأة قبل الإسلام في بيتها تربية أولادها[٥] حتى قيل أنه (كانت وظيفتها الأساسية تربية الأبناء) والقيام ببعض المهام المنزلية[٦] فهي (تربي ابنتها على حلب الماشية وطحن الحب ورعي الغنم)[٧] . وتدل الأخبار والقصص (على أن الأم العربية كانت لها آثار في تربية ولدها وفي تكوين عاداته وأخلاقه) وقد أثرت تلك الشخصية في نفسه إلى درجة أنه ما كان (يغيب عن باله ما نشأته أمه عليه من العادات والأخلاق) لأنها كانت مدرسته الأولى والمربي المخلص له[٨] ولذلك فأن هذه العلاقة التي بين الطفل وأمه سوف تؤثر في تنشئته وتربيته حتى في

---

(١) حامد عبد السلام زهران، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(٢) بتول سعيد غزال، المصدر السابق، ص ٢٠.

(٣) عبد الله عفيفي، المصدر السابق، ١ / ٨٠.

(٤) خاشع المعاضدي وآخرون، دراسات في المجتمع العربي، ص ٩.

(٥) علي الهاشمي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٦٣؛ زهير حطب، المصدر السابق، ص ٥٤.

(٦) هاشم يونس عبد الرحمن، الحياة الفكرية، ص ٥٦.

(٧) محمود مصري، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٨) علي الهاشمي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٠٤.

علاقاته التي يقيمها فيما بعد مع الآخرين[1] وهي المعين الذي يفيض والتربة الخصبة التي ينبت فيها الخير[2] حتى ضربت العرب الأمثال في تلك العلاقة فقالوا: - (إلى أمه يلهف اللهفان)[3] وعن أثر الأم في تنشئة أبناءها قالوا: - (وما كان لأحد من العرب أن يجاذب امرأته فخر تربية أبنائها، وفضل تأديبهم ذلك منها مفيضة، وإليها مرجعه)[4] .

أما عن معارف المرأة العربية التي ساعدتها في تنشئة أطفالها وتربيتهم فقد كانت الخيمة مدرستها، وهي تنسج وتخيط وتعنى بشؤون بيتها تربي أطفالها وتغني لهم حتى يناموا وهي تعرف الأنساب كما سمعتها على لسان أبيها ورجال قومها (فتذكر تاريخ القبيلة المجيد وسلسلة الأجداد ومواقف الأبطال وجيد الشعر)[5] ، وبذلك تكون المرأة العربية قد شاركت بالميدان التاريخي ونقل التراث لأبنائها (لقد كان التاريخ من جملة - المعارف - التي اشتركت نساء الجاهلية مع رجالهم في الوقوف عليها، إذ كان التاريخ عندئذ عبارة عن معرفة أخبار العرب وأيامهم وأقوالهم بالسماع)، فلا غرابة في اشتهار المرأة العربية في ذلك (لأن تاريخهم كان في أشعارهم وهم على شغف في حفظ الشعر)[6] وهي بتطلعها إلى السماء استطاعت أن تلم بمواقع الكواكب وسقوط الأنواء وبمراقبتها للحيوانات عرفت طبائعها، كما إنها استطاعت أن تميز النبات الطيب من الخبيث، وأن تساهم في أفراح القبيلة ومآتمها، فتعرف كيف ترثي الأهل والأقارب والأحبة في نبرات رخيمة

---

(١) هشام الشرباني، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) محمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٧٦.

(٣) الميداني، المصدر السابق١/ ٢٢؛ الزمخشري، المستقصي ١/ ٣٠٣؛ عبد الله عفيفي، المصدر السابق / ٨٠.

(٤) عبد الله عفيفي، المصدر السابق ١ / ٦٨.

(٥) واصف بطرس غالي، تقاليد الفروسية، ص ٩٥.

(٦) محمد جميل بيهم، المرأة في التاريخ، ص ١٤٧ - ١٤٨.

مؤثرة، وهي فصيحة بفطرتها فيستمع إليها بآذان صاغية وقلوب واعية[١] ورب سائل يسأل كيف يؤثر ذلك في تنشئة أطفالها وللإجابة نقول إن تصرف الأم بهذا السلوك اتجاه المواقف المتعددة أمام أبناءها سواء في بيتها أو في حياة القبيلة بشكل عام، لا شك سوف يتأثر به أبنائها ويترسخ في ضمائرهم فيقلدوه في سلوكهم[٢] لأن الأم إلى الطفل هي (أول معلم له يحبه ويطيعه)[٣] .

والأم أعظم مربية خصت بعوامل تأثيرية طبيعية تساعدها في تربية أولادها[٤] وهي مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق كما أنها من بين أفراد الأسرة تعد الشخصية الأولى لتوصيل التراث إلى الطفل وتنشئته على قيم مجتمعه لأنها هي التي تناغيه وتلاعبه[٥] ، فقد كانت المرأة العربية ترقص ولدها بأشعار توحي له بالخير وتغريه بالمجد والعرب قبل الإسلام (عرفوا بحرصهم على تربية الطفل وكانت الأمهات تغرس في نفوس الأبناء منذ نعومة أظفارهم حب الرجولة والفضائل الموروثة)[٦] كأم الفضل بنت الحارث وهي ترقص ولدها عبد الله بن العباس: -

ثكلت نفسي وثكلت بكري ... إن لم يسد فهراً وغير فهر

بالحسب الوافي وبذل الوفر ... حتى يوارى ضريح القبر[٧]

---

(١) واصف بطرس غالي، المصدر السابق، ص ٩٥ - ٩٦؛ محمد جميل بيهم، م. ن.، ص ١٢٩.

(٢) نوري حمودي القيسي، النسب إلى الأم، ص ٧٥.

(٣) محمد عبد الستار النصار، المصدر السابق، ص ١٧.

(٤) أبو بكر عبد الكافي، البنت في أمثالنا الشعبية، مجلة التراث الشعبي، عدد (٥- ٦)، بغداد، ١٩٧٦، ص١٣٢.

(٥) محمد عبد الستار النصار، المصدر السابق، ص ١٧.

(٦) علي الهاشمي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٧) القالي، الأمالي ٢ / ١١٧؛ عبد الله عفيفي، المصدر السابق ١/ ٧٢؛ أحمد عيسى بك، الغناء للأطفال، ص٣٥.

وروي أن (فاطمة بنت أسد) كانت ترقص ولدها عقيل بن أبي طالب وتقول: -

أنت تكون ماجداً نبيلاً إذا تهب شمالٌ بليل[1]

فتبعث في نفسه الأمل والثقة وحب الكرم.

وكان للأم العربية فضل كبير في تنشئة أولادها وأن يكونوا طلاب مجد لأنها كانت تدرك قيمة الشجاعة في بيئتهم للدفاع عن القبيلة والذود عن حياتها فهي لم تدللهم (ذلك الدلال الذي يضف شخصيتهم ويسيء إلى مستقبلهم بل كن يدفعن بهم إلى طريق الشرف والرئاسة، واحتذاء آثار الأبطال، ولذلك ظهر بين العرب كثير من الفتيان ذوي الشخصية القوية، والنفوس المعدة لتسنم ذروة المجد، ولا أدل على ذلك من تلك الشخصيات العظيمة الباهرة التي اشتهرت في الإسلام حين دانت للعرب دولة عتيدة، وتطلب الحكم الجديد خبرة ومهارة وعقولاً نيرة فتجلت تلك العبقريات الكامنة وظهرت على مسرح التاريخ متألقة في قيادة الجيوش، والقضاء، والخلافة، والتنظيم المبتكر ولا شك أن هذا كله يرجع إلى النشأة الأولى، وإلى الحياة التي تشربتها نفوسهم في الحداثة، حياة تجعل منهم شخصيات بارزة)[2] ، في حين كثرة الدلال يترتب عليه آثار سلبية إذ ينمي فيهم شخصيات ضعيفة[3] . وهذا (ما لم يفعله نساء العرب مع أولادهن)[4]. فهي تقف في أيام العرب لتدفع ابنها إلى ساحة الوغى كما فعلت أم (ربيعة بن مكرم) في يوم الكديد فقد اشترك فيها ونعته أبو عبيدة بقوله وكان يومئذ

---

(١) ابن عبد ربه، المصدر السابق ١ / ٢٧٨؛ عبد الله عفيفي، المصدر السابق ١ / ٧٢؛ أحمد عيسى بك، المصدر السابق، ص ٥٢.

(٢) عمر الدسوقي، الفتوة عند العرب، ص ٣٧، ٣٨، ٣٩ - ٤٠.

(٣) جمال حسين الآلوسي وآخرون، المصدر السابق، ص ١٤٨؛ إيمان نعيم العفراوي، المصدر السابق، ص ٢.

(٤) عمر الدسوقي، المصدر السابق، ص ٤٠.

غلام له ذو آبه[1] حتى جرح فسالت دماؤه فجرى إلى أمه (أم سنان) طالباً منها أن تشد على يده عصابةٍ فشدت عليه ثم قالت له: - لهفي عليك ولكننا هكذا... نفقد أشجع حماتنا، ونحن وإن كنا لا نرى كارثة أشد منها إلا أننا قد اعتدناها[2] وطلبت إليه أن يرجع إلى القتال فأخذ بنصيحة أمه وكر راجعاً إلى قومه وظل واقفاً، وهو مثخن بالجراح ليدافع عن الضعينة حتى مات[3] فتشجيع الأم لولدها ينمي لديه شعور قوي بالمسؤولية[4] .

كما نجد أن الأم تنشأ ابنها للأخذ بثأره ممن نال منه فهذه (ريحانة [*] بنت معد يكرب) الزبيدي أم (دريد بن الصمة)[5] تحرضه للأخذ بثأر أخيه بعد أن مر حولاً كاملاً على مقتل أخيه (عبد الله) من (غطفان) فحلف أن لا يكتحل ولا يدهن ولا يمس طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره[6] وكان ذلك من عاداتهم الاجتماعية التي توارثوها عن أسلافهم فأغار على غطفان وقتل جماعة منهم ثأراً لأخيه[7] .

والأم ترفض قبول الدية عن ولدها القتيل، وتحرض أسرتها للأخذ بثأره كما فعلت (أم ندبة) وهي تلوم زوجها (حذيفة بن بدر الفراري) وقد قبل دية ابنها (ندبة) طالبة منه أن يأخذ بثأره[8] .

---

(١) محمد أحمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب، ص ٣١٦.

(٢) واصف بطرس غالي، المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٣) للمزيد من المعلومات عن هذا اليوم راجع: ابن عبد ربه، المصدر السابق ٥ / ١٧٤؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني ١٤ / ١٢٩؛ البكري سمط اللالي ٢ / ٩١٠؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ١ / ١٤٤ - ١٤٥؛ أحمد محمد جاد المولى وآخرون، المصدر السابق، ص ٣١٥ - ٣١٦.

(٤) بتول سعيد غزال، المصدر السابق، ص ٢٠.

(٥) ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص ٤١١.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، ط، دار الثقافة، ١٠ / ٣٣.

(٧) كان ذلك في يوم اللوى وهو لغطفان على هوازن، أنظر أبو عبيدة، النقائض ٧١، ٥٨٣، ١٠٦١؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق ٥ / ١٦٨؛ ابن رشيق، المصدر السابق ٢ / ٢٠٢؛ النويري، المصدر السابق ١٥ / ٣٦٩.

(٨) زينب امواز، الدر المنثور، ص ٦٤؛ نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص =

ولا شك في أن مثل هذه المواقف من الأم سوف يكون لها تأثير على أولادها الآخرين فهي تربيهم على المطالبة بحقوقهم والأخذ بثأرهم، والسعي في مقاتلة الأعداء ورفض قبول الدية بما فيها من عار وسبه وعجز في نظر الآخرين، وهذه من العادات التي كانت سائدة في المجتمع العربي آنذاك فيتأثر أطفالها في مثل هذه التصرفات من الأم لأنها أقرب الناس إلى الطفل (ومن أشد العوامل تأثيراً في سلوكه وعاداته وما يكتسبه من أوضاع)[١] كما أن (العرب منذ القديم كانوا يؤمنون بأن في أحضان الكريمات ينشأ الرجال الكرام والأبطال العظام لأن آثار الأمهات وصور الوالدات تكون بادية في نفوس الأبناء)[٢] ومن الذين ظهرت فيهم آثار تربية أمهاتهم الجواد المعروف (حاتم الطائي) فأنه (غنية بنت عفيف) ذات يسار حتى عرفت بأنها من أسخى الناس[٣] ويعترف العرب بأن حاتم الطائي إنما ورث الجود من أمه[٤] .

ونجد آثار تنشئة الأم لطفلها من خلال طاعة أولادها لها في عظائم الأمور فقد روي أن (بشر بن أبي خازم) الأسدي هجا يوماً (أوس بن حارثة بن لأم) الذي تمكن من أسره بعد ذلك وأراد قتله فدخل (أوس) على أمه (سعدى بنت حصن) فقال لها: لقد أتينا ببشر الهاجي لك ولي فقالت:

= ٢٦٠ - ٢٦١ وقد ورد في هذا المصدر أن زوج (أم قرفة) هو (حذيفة بن اليمان) والصواب (حذيفة بن بدر) لأن الأول صحابي والثاني قتل في حرب داحس والغبراء في يوم الهباءة، راجع الشريف المرتضى، المصدر السابق ١/ ٢١٤.

(١) نوري حمودي القيسي، النسب إلى الأم، ص ٧٥.

(٢) علي الهاشمي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٠٥.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة١٧/ ٢٨٠؛ القالي، ذيل الأمالي، ص٢٣؛ الميداني، المصدر السابق١/ ١٨٣.

(٤) الأصفهاني م. ن. والطبعة١٧/ ٢٧٦؛ الميداني، المصدر السابق ١ / ١٨٣؛ عبد الله عفيفي، المصدر السابق ١ / ٧٩، نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص ٢٩٧؛ وفاء علي، المصدر السابق، ص ١١٣.

أوتطيعني؟ قال نعم فقالت له أمه (سعدى) التي وصفها الشريف المرتضى بأنها (كانت ذات رأي)[1] يا بني مات أبوك فرجوتك لقومك فأصبحت أرجوك لنفسك زعمت إنك قاطع رجل هجاك فمن يمحو ما يقول غيره؟ قال فماذا أصنع قالت تكسوه حلتك وتحمله على راحلتك وتعطيه مائة ناقة فأنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه ففعل ما أمرت به أمه، فمدح بشر فأكثر، وقال لا مدحت أحداً حتى أموت غيرك ومما مدحه قصيدة يقول فيها: -

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليقضي حاجتي وقد قضاها
فما وطئ الحصى مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها[2]

ومما هو جدير بالذكر أن البابليين كانوا يرددون دائماً: - (أسمع كلمة أمك كما تسمع كلمة إلهك)[3] والحكماء ينصحون الأبناء (ينبغي أن لا تنسى أمك)[4] وقد أوجب الإسلام إطاعة الوالدين إلا في معصية الخالق قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[5]. وقال تعالى ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾[6].

من العادات الاجتماعية التي كانت تتبعها بعض الأسر في تنشأتها

---

(١) الأمالي ٢ / ٤٦٢.

(٢) ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ١٤٨ - ١٤٩؛ المبرد، الكامل ١ / ٢٣٢، الثعالبي، ثمار القلوب، ص ١١٨ - ١١٩؛ الشريف المرتضى، المصدر السابق ١ / ٤٦٣؛ ابن الأثير، الكامل ١ / ٣٨٢ - ٣٨٣.

(٣) فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، ص ٢٣٩.

(٤) ديورانت، قصة الحضارة، المجلد ١، ج ٢، ص ٩٧.

(٥) القرآن الكريم، سورة الإسراء / ٢٣ - ٢٤.

(٦) القرآن الكريم، سورة لقمان / ١٥.

لأولادها إرسالهم للرضاعة في البادية في مراحل طفولتهم الأولى[1] فقد كان من عادة أشراف العرب[2] والأسر الغنية في الحواضر أن يسترضعوا لأطفالهم غير أمهاتهم (لأنه كان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد لهم ولد أن يلتمسوا مرضعة في غير قبيلتهم ليكون أنجب له)[3] . فقد كان ملوك الحيرة يعهدون إلى بعض الأسر بأبنائهم[4] حيث جعل (الأسود بن المنذر) أخو الملك (النعمان) ابنه (شرحبيل) في حضانة (سلمى بنت ظالم) زوجة (سنان ابن أبي حارثة) المري لترضعه وتربيه وينشأ فيهم[5] . وأن (المنذر بن ماء السماء) جعل ابنه (مالكاً)[6] وقيل (أسعد)[7] مسترضعاً في حجر (حاجب بن زرارة) التميمي لينشأ فيهم ويتولى تربيته وإعداده[8] وكان أهل بيت (حاجب) حضّان الملوك فافتخر هو بذلك[9] ويظهر أن الذين كانوا يسترضعون أولادهم هم الأغنياء والقادرون على استئجار المراضع من نساء القبائل[10] .

وكانت (حليمة بنت ذؤيب) السعدية مرضعة الرسول محمدﷺ فنشأ في

---

(١) الحلبي، المصدر السابق ١ / ١٤٦؛ يوسف رزق الله غنيمة، الحيرة، ص ١٥٧.

(٢) أمير علي، روح الإسلام، ص ١٨.

(٣) الحلبي، المصدر السابق ١ / ١٤٦.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الكتب المصرية ٢ / ١٠٥؛ النويري، المصدر السابق ١٥ / ٣٢٢.

(٥) ابن حبيب المحبر، ص ٤٦١؛ الزبير بن بكار، المصدر السابق، ص ١٢؛ الأصفهاني، الأغاني، ط، دار الثقافة، ١١ / ١٠٢؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٥ / ١٤٨.

(٦) ياقوت المقتضب ١ / ١٠١.

(٧) حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض، ص ٩٤؛ ذكر الأصمعي إن (أسعد هذا كان ابناً (لعمرو بن هند) ملك الحيرة، أنظر تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٠٩.

(٨) المبرد، الكامل ١ / ١٧٠.

(٩) أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال ١ / ٢٦١.

(١٠) إبراهيم فوزي، المصدر السابق، ص ٩٠.

بادية بني سعد، وشب في أحضانهم[1] وكانت تعنى به وتحبه حباً جماً، وكانت ترقصه وتقول: -

يــارب إذا أعــطــيــتــه فــأبــقــه   وأعــلــه إلــى الــعــلا ورقــه

وادحـض أبـاطـيـل الـعـدا بـحـقـه[2]

وتكمن الأسباب التي كانت تدفع العرب إلى إرسال أبنائهم إلى البادية في نقاط يمكن إجمالها بالآتي: -

رغبتهم في أن ينشأ الطفل في الأعراب ليكون أفصح لساناً[3] لأن العرب كانوا يعتقدون أن اللغة النقية هي لغة قبائل الصحراء، وأن الألسنة تعوج في المدن بمخالطة الغرباء[4] . وإن الرسول محمد (ص) قال مفاخراً بنشأته في بني سعد وتعلمه لسانهم قوله لأصحابه (أنا أعربكم أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر)[5] .

إن أهل الحواضر كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية لكي ينشأوا في جو صحي بعيد (عن أمراض الحواضر التي كثير ما تصيب الأطفال وهنالك تقوى أجسادهم وتشتد أعصابهم لما في هواء البادية من الصفاء)[6] وقد

---

(١) ابن هشام، المصدر السابق ق ١ / ١٦٢ - ١٦٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف ١ / ٩٣؛ المسعودي، التنبيه والأشراف ص ١٩٧؛ ابن حزم الأندلسي، المصدر السابق، ص ٢٦٥؛ ابن كثير، السيرة، ٣/ ٦٨٩.

(٢) البلاذري، المصدر نفسه، ١ / ٩٤؛ السيوطي، الخصائص الكبرى ١ / ٥٩؛ سعيد الديوه جي، المصدر السابق، ص ١٢ - ١٣.

(٣) نبيه عاقل، المصدر السابق، ص ٣٦١.

(٤) ابن حبيب، المحبر، ص ٢٦٣ - ٢٦٦؛ ب يوتروفسكي، اليمن قبل الإسلام، ص ٢٢٩، ٣١٢؛ صالح العلي، المحاضرات، ص ١٠٠.

(٥) ابن هشام، المصدر السابق، ق ١ / ١٦٧؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ١٣٢؛ ابن كثير، البداية ٢ / ٢٧٧.

(٦) يحيى الجبوري، الجاهلية، ص ٦٤.

عرفت مكة بانتشار الأوبئة فيها[١] وعرف العرب كذلك حمة يثرب[٢] وحمة خيبر[٣] وحمة الحيرة[٤].

ومن الأسباب التي تدفع الآباء لإرسال أولادهم إلى تلك المناطق الرغبة في اكتساب الشجاعة والإقدام[٥] لأن أهل البادية كما يقول (ابن خلدون) أكثر شجاعة من أهل المدن لانغماس هؤلاء في النعيم والترف[٦] وكذلك تعلم خشونة العيش والابتعاد عن الترف والدعة فينشأ الصبي نشأة مبنية على القوة والجلد، واكتسابه الصبر وقوة التحمل.

وكانت مدة الرضاعة عند العرب قبل الإسلام سنتين على عاداتهم[٧]. وقد جاءت الشريعة الإسلامية وأقرت ذلك قال تعالى: (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة)[٨]. أما عن أسلوب الفطام الذي كانت تتبعه الأمهات آنذاك لمنع أطفالهن من الرضاعة فقد كن يلجأن إلى وضع مادة الصبر - لأنه مر المذاق - على حلمة الثدي، حيث روي أن (سلمى بنت صخر) وهي أم (أبي بكر الصديق) (رض) استخدمته عندما أرادت فطامه[٩] علماً أن قسماً من النساء إلى اليوم يتبعن الأسلوب نفسه في عزل الصبي عن الرضاعة، وهذا يؤكد على استمرار نقل العادات والتقاليد من جيل لآخر في التنشئة الاجتماعية للأطفال عند العرب.

---

(١) ابن هشام، المصدر السابق، ق ١ / ١٦٤؛ ابن سعد، المصدر السابق ١ / ٥٢ - ٥٣.

(٢) هاشم يحيى الملاح، الوسيط في السيرة النبوية، ص ١٩٧.

(٣) ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ٣٨.

(٤) عبد الغني خماس، النابغة الذبياني، ص ١٠.

(٥) إبراهيم فوزي، المصدر السابق، ص ٩٠.

(٦) المقدمة، ص ١٢٥.

(٧) ابن هشام، المصدر السابق ق١/ ٩٤؛ البلاذري، أنساب الأشراف ١/ ٩٤؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر ١/ ٣٤.

(٨) سورة البقرة / ٢٣٣.

(٩) للتفصيل راجع، محمد بن ظفر الصقلي، أنباء نجباء الأبناء، ص ٤٣.

أن من المهام التي تقع على عاتق الأسرة في تنشئتها لأبنائها هي تعليمهم القراءة والكتابة[1] ورب سائل يسأل: - هل كانت الأسرة العربية آنذاك تقوم بهذه المهمة تجاه أولادها؟ ابتداءاً نقول لقد عرف العرب قبل بزوغ الإسلام القراءة والكتابة والأدلة على ذلك كثيرة[2] فقد ورد ذكر الكتابة وأدواتها في الشعر العربي القديم[3] . كما أن القرآن الكريم كان يقسم أحياناً بأدوات الكتابة كقوله تعالى ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[4] وقوله جل شأنه ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾[5] وكل من يرجع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم يجد طائفة كبيرة من الآيات التي تتصل بموضوع الكتابة[6] وإنها كانت ضرورية لهم لا سيما في مهنة التجارة[7] بالإضافة إلى طبيعة حياتهم الدينية وما فرضته عليهم من (تسجيل الأدعية والرقي وحفظها)[8] . وكذلك كتابة العرب لأحلافهم التي أتسمت بالطابع

---

(١) فينكس، المصدر السابق؛ وأنظر كذلك، صالح عبد العزيز المصدر السابق، ص ١٤٦ - ١٤٨.

(٢) للتفصيل راجع، الجاحظ، البيان والتبيين ١ / ٢٥٢؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار ١ / ٢٣٦؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٧- ٤٥٩؛ الهمداني، الإكليل ١/ ٩، ١٣، ١٣١، ١٨١، ١٩٣؛ ابن النديم، الفهرست، ص ٧- ٨.

Goldziher, Education Muslim, Encyclopaedia of Religion and Ethics, vol.V, 1912, p. 119.

(٣) للتفصيل عن ذلك راجع ما كتبه نوري حمودي القيسي بهذا الشأن في بحثه المعنون: الكتابة العربية وأدواتها ومجالات استخدامها في العصر الجاهلي، مجلة كلية الآداب، بغداد، ع (٢٧)، ١٩٧٩، ص ١١ - ٣٠.

(٤) القرآن الكريم، سورة القلم / ١.

(٥) القرآن الكريم / سورة طور ٢ - ٣.

(٦) محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٠٣، ٥٤٣، ٥٥٢، ٥٩١ - ٥٩٥.

(٧) ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ص ١١٥ - ١١٦؛ ناصر الدين أسد، مصادر الشعر الجاهلي، ص ٦٨ - ٦٩؛ حسين نصار، نشأة الكتابة، ص ٢٠؛ خليل إبراهيم السامرائي، دراسات في الفكر العربي، ص ١٥.

(٨) غانم جواد رضا، الرسائل الفنية، ص ٢٨.

القبلي كالحلف الذي ذكره (الدينوري) بين اليمن وربيعة[١] . والتاريخ يذكر أن قريشاً حين استقر رأيها على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب كتبوا بذلك صحيفة وعلقوها بأستار الكعبة[٢] . فهذه الشواهد والاستدلالات تؤكد وجود الكتابة في حد ذاتها عند العرب قبل الإسلام، أما معلوماتنا في تعليم الأطفال عندهم فقليلة إذا لم نقل بأنها نادرة حسب تعبير إحدى الباحثات[٣] إلا أن هناك إشارات يفهم منها وجود الكتاب لديهم فقد ذكر (أحمد شلبي) أنه (وجد نوع من الكتاتيب قبل ظهور الإسلام ولو أنه كان قليل الانتشار)[٤] ويتفق (أحمد عبيدات) مع هذا الرأي ويؤكد على وجود الكتاتيب خلال تلك الحقبة[٥] ، فكانت بعض الأسر تقوم بإرسال أبنائها إليه لغرض تعليمهم القراءة والكتابة فيها.

أما عن سن دخول التلاميذ إلى الكتاب وتخرجهم منه فلا نعلم عن ذلك شيئاً ولكن أعتقد أنه في سن مبكرة لسهولة تعلم الناشئ، كما أن استيعابه يكون أفضل لما يطرح عليه، إضافة إلى قوة ذاكرته في هذه المرحلة العمرية وقالت العرب: (التعليم في الصغر كالنقش على الحجر)[٦] أي من حيث الثبات والبقاء. وإلى تلك المعاني أشار (ابن خلدون) بقوله: - أن التعلم في الصغر أشد رسوخاً، وهو أصل لما بعده[٧] أما مدة بقاء الناشئ في

---

(١) الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

(٢) ابن هشام، السيرة ق ١ / ٣٥٠؛ المسعودي التنبيه والأشراف، ص ٢٠٠؛ ابن الأثير، الكامل ٢ / ٥٩.

(٣) مليحة رحمة الله، المصدر السابق، ص ١٨٩.

(٤) أحمد شلبي، تاريخ التربية، ص ٤٤.

(٥) الطفولة في الإسلام، ص ٩٦.

(٦) علي بن الجعد، مسند ابن جعد ١ / ١٦٢؛ ابن حبان، المجروحين ١ / ١٠٧، في هذين المصدرين ورد لفظ (الحفظ) بدل (التعلم)؛ الغزالي، المستصفى ١ / ٤٨؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري ٩ / ٨٣؛ ابن عابدين، حاشية ابن عابدين ١ / ١٧٤.

(٧) المقدمة، ص ٥٣٨.

الكـتّاب فيبدو أنه كان مقروناً برغبة أهله في مواصلة تعليمه وبإتقانه القراءة والكتابة فإذا عرف ذلك فعندها لا يصبح له مبرر للبقاء في الكـتُاب.

أما عن طريقة التعليم فقد ذكرت (ملكة أبيض) في حينها عن (عبد الله بن سعيد بن أحيحة) ت ٨هـ / ٦٢٩ م (أنه كان يعلم الحكمة بالمدينة على أسلوب تعليم الكتابة آنذاك فقد كان المعلمون يكتبون أما التلاميذ أمثالٌ وحكمٌ ويطلبون منهم أن ينسخوها عدداً من المرات)[١] وقد ذكر تلك الطريقة التعليمية أيضاً (فاخر عاقل) حيث قال: أن المعلم كان يكتب نماذج من الخط على اللوح ثم يدفعها للتلاميذ فيقلدونها[٢] . ونقل عن (عمر بن ميمون) أنه كان يحفظ الصيغة التي تقي شر العين وقد أسندها إلى (سعد بن أبي وقاص) الذي كان يعلمها أولاده ويكتبها لهم قائلاً: - أني أفعل ذلك كما يفعل المدرس مع تلاميذه[٣] .

وقد صور لنا (ثعلبة بن عمرو) الطريقة التي كان يستخدمها الكاتب وهو مكب على دواته وقد استخدم يديه في الكتابة ويقيم الحرف مرة ويخالفه مرة أخرى محاولاً بذلك كتابة الصحيح أو الوقوف على الشكل المناسب حيث يقول: -

أكَـبَّ عـلـيـهـا كـاتـبُ بـدواتـه يُـقـيـمُ يـديـه تـارةً ويـخـالـف[٤]

من خلال ما تقدم نستطيع أن نستنتج أن المرأة كانت تساهم في مهنة التعلم وأن هذه المهنة لم تكن حكراً على الرجل فقط هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن تعلم القراءة والكتابة لم يستأثر به الذكور دون الإناث بل كانت بعضهن يجيدن القراءة والكتابة قبل الإسلام فقد ذكر أن الرسول الله

(١) ملكة أبيض، التربية والثقافة، ص ٢٢٤.

(٢) التربية قديمها وحديثها، ص ٥١.

(٣) Goldziher, op. cit, vol, p: 199.

(٤) الأنباري، شرح ديوان المفضليات، ص ٥٦١.

(ص) طلب من (الشفاء بنت عبد الله) أن تعلم (حفصة) رقية النملة كما علمتها الكتابة[1] و(كانت الشفاء كاتبة في الجاهلية) وكذلك (أم كلثوم بنت عقبة)، و(كريمة بنت المقداد) في حين كانت (أم سلمة) تقرأ ولا تكتب[2] .

أما عن أماكن التعليم فقد كان يتم (في منازل المعلمين وربما خصص هؤلاء حجرة في بيوتهم لاستقبال الطلاب)[3] كما يفهم من بعض النصوص وجود نوع من المدارس عن العرب قبل الإسلام فقد كان في يثرب ما يشبه المدرسة وهي التي تعرف باسم المدارش (المدارس)[4] وقال (البلاذري) إن أهل الكتاب كانوا يقومون بتعليم القراءة والكتابة للراغبين فيهما[5] حيث كانوا (يعلمون الصبية والغلمان بيثرب قبل الإسلام)[6] وذكر أن (جفينة) رجل كان يعلم الكتابة في يثرب[7] فهذا يدل على معرفة بعض من أهل هذه المنطقة الكتابة فقد أشار (بن عساكر): - أن (بشير بن سعد بن ثعلبة بن الجلاس) الخزرجي كان يكتب بالعربية قبل الإسلام[8] وهو ما ذهب إليه (ابن حجر) أيضاً[9] . وروى البلاذري أن أول شخص اتخذ التعليم مهنة له في جزيرة العرب هو (رجل من وادي القرى أقام بها وعلم الخط قوماً من أهلها)[10] .

وقيل أن أول من تعلم الكتابة في مكة المكرمة هو (سفيان بن أمية بن

---

(١) سنن أبي داود ٤ / ١٠.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٨.

(٣) أحمد شلبي، تاريخ التربية، ص ٤٦.

(٤) ابن هشام، السيرة، ق ١ / ٥٦٤.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٩.

(٦) هاشم الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٣٥٦.

(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٦٠؛ الطبري، تاريخ ٤ / ٢٤٠.

(٨) عبد القادر بدران، تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ٣ / ٢٦٢.

(٩) تهذيب التهذيب ١ / ٤٦٤.

(١٠) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٧.

عبد شمس) و أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب) وقد تعلمها من (بشر بن عبد الملك) الذي تعلمها من الحيرة[1] ويذكر (ابن خلدون) أن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو (سفيان بن أمية) ويقال حرب بن أمية ت ٥٨٨م / ٣٦ ق. هـ [*] وتعلمها من (أسلم بن سدرة)[2] ولكن نحن نشكك في تلك الرواية ولا نميل إلى ترجيحها. وذلك أن مجتمع مكة هو مجتمع تجاري قديم وهي إحدى المدن التي كان يمر بها طريق البخور الذي يربط جنوب الجزيرة العربية بشمالها[3] وهذا يستلزم معرفة بعض أهلها الكتابة في حقبة زمنية هي أقدم من ظهور أولائك الرجال في مكة.

ونستأنس هنا بقول الجاحظ (وليس في الأرض أمة فيها طرق أو لها مُسْكة ولا جيل لهم قبض وبسط إلا ولهم خط)[4] . قال البلاذري أن الإسلام حين جاء كان في مكة سبعة عشر كاتباً، وفي يثرب أحد عشر كاتباً[5] وإن كان المضنون أن عددهم في هاتين المدينتين كان أكبر من ذلك فقد أورد أحد الباحثين جدولاً ذكر فيه أن عدد من كان يجيد الكتابة حسب ما ذكرته المصادر في مكة قبيل الإسلام هو (٣٢) رجلاً وامرأة، وإن عددهم في يثرب كان (١٨)، وأضاف قائلاً أنه من المحتمل أن يكون العدد فيها أكبر من ذلك بسبب وجود المدارس بها[6] . وهذا العدد من الكتاب يتعارض مع ما أورده (البلاذري) بشأن من كان يجيد الكتابة في هاتين المدينتين.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٧.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤١٨؛ وأنظر كذلك ابن النديم، الفهرست، ص ٧.

(٣) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٢٨؛ عبد العزيز السالم، تاريخ العرب في العصر الجاهلي، ص ٣٥٧؛ سعد زغلول عبد الحميد، في تاريخ العرب، ص ٧٤.

(٤) الجاحظ، الحيوان ١ / ٧١، وجاء في هذا المصدر أن طرق: - معناها هنا القوة.

(٥) فتوح البلدان، ص ٤٥٩.

(٦) للتفصيل راجع هاشم يونس عبد الرحمن، المثل والقيم الخلقية عند العرب ما قبل الإسلام، رسالة ماجستير، مطبوعة بالآلة الطابعة، الموصل، ص ١١٦، ١١٨.

إما في المراكز الحضرية الأخرى فكان التعليم يتم في الأديرة والمعابد إذ لعبت دوراً مهماً في تعليم القراءة والكتابة فقد كانت (بيوت عبادة ومدارس للتعلم)[1] . فكانت في نجران مدرسة عرّف أسقف نجران نفسه للرسولﷺ بأنه حبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم[2] .

وفي الحيرة فقد وردت أخبار شتى عن معرفة أهلها الكتابة[3] ، وقيل أن تاريخهم كان مدوناً في كتب محفوظة في كنائسهم[4] ، فقد ذكر (هشام بن الكلبي) كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر وعلاقتهم (بكسرى) وتاريخ ملوكهم من بيع الحيرة[5] . وروي أن أهل الحيرة (كانوا يعلمون أبناءهم في الصغر)[6] . وقال (الطبري) أن (خالد بن الوليد) عندما دخل (عين تمر) وجد أربعين غلاماً يتعلمون في إحدى البيع[7] الواقعة في قرية النقيرة[8] وكشفت لنا صحيفة (المتلمس) التي أصبحت من قبيل الأمثال عن معرفة بعض صبيان الحيرة القراءة والكتابة[9] وأن (عدي بن زيد العبادي) تعلم في الكتّاب: العربية، والفارسية وصار من بعد مترجماً في ديوان كسرى[10] . وذكر أن بعض الأسر الغنية من المناذرة ونظرائهم من المناطق

(١) جواد علي، المفصل ٨ / ٢٩٤.

(٢) ابن هشام، المصدر السابق، ق ١ / ٥٧٣.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٧؛ الطبري، تاريخ ١ / ٦٢٨؛ ابن النديم، المصدر السابق، ص ٧؛ ابن خلدون، تاريخ ٢ / ٥٤٧.

(٤) يوسف رزق الله غنيمة، الحيرة، ص ١؛ إبراهيم محمد علي، المناذرة، ص ٩١ - ٩٢.

(٥) الطبري، تاريخ ١ / ٦٢٨؛ ابن خلدون، تاريخ، ٢ / ٥٤٧.

(٦) أحمد محمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي؛ ص ٤١٤.

(٧) الطبري، تاريخ ٣ / ٣٧٧.

(٨) ياقوت، معجم البلدان، ٥ / ٣٠١.

(٩) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ١ / ١١٢؛ الأصفهاني، الأغاني ط دار الثقافة ٢٣ / ٥٤٤ - ٤٥٤؛ الميداني، المصدر السابق ١ / ٣٩٩ - ٤٠١.

(١٠) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة، ٢ / ٨٢؛ عرفان محمد حمور، المصدر السابق، ص ٣٨.

المختلفة الأخرى كانوا يرسلون أولادهم إلى مدينة الحيرة ليتعلموا القراءة والكتابة فيها. وأما بشأن المناهج التعليمية التي يدرسها أهل الحيرة في المدارس الخاصة فأنها كانت تتضمن أسماء ملوكهم وسيرتهم وأخبارهم وأحاديثهم إضافة إلى بعض الدروس التي تعنى ببعض أنواع العلوم[١] . وهذا يبين أن اهتماماتهم كانت منصبة على دراسة تاريخ الحيرة السياسي من خلال حياة ملوكها وعلاقاتهم الحربية أو الاجتماعية مع الآخرين.

وكان للأم العربية في الحيرة دوراً في تعليم أبنائها الكتابة ولا سيما اللواتي كن يعرفن القراءة فقد روي أنه (تعلم حماد بن زيد بن أيوب الكتابة من أمه بعد قتل أبيه ثم كان من أكتب الناس، وكتب للنعمان الأكبر)[٢] . ولكن علينا أن نشير إلى أن هؤلاء النسوة القارئات الكاتبات قليلات. فالمرأة العربية القديمة كانت قد أخذت دورها في تعليم أبنائها القراءة والكتابة وكرست حياتها في تنشئتهم وتربيتهم[٣] بهدف إعدادهم وتأهيلهم ليأخذوا دورهم في المجتمع فهي تضحي في سبيلهم في الأمثال قالوا: (أم فرشت فأنامت)[٤] .

أما أهل البادية فأن طبيعة حياتهم تباعد ما بينهم وبين هذه المعرفة[٥] . ولكن هذا لا يعني افتقار انتشار الكتابة على الحواضر والمدن بل تسربت الكتابة إلى البادية نفسها فعرفها (أكثم بن صيفي)[٦] حكيم قبيلة تميم

(١) للمزيد من المعلومات راجع الدراسة التي أعدها إبراهيم محمد علي، عن المناذرة، ص ٩٢.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة، ٢ / ٨٢.

(٣) قالت العرب: حنت المرأة على أولادها أي عطفت عليهم بعد زوجها فلم تتزوج بعد أبيهم، أنظر الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ١٠ / ١٠١.

(٤) الميداني، المصدر السابق ١ / ٢٢؛ الزمخشري، المستقصى ١ / ٣٦٨.

(٥) محمد أحمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٤١٤.

(٦) السجستاني، المصدر السابق، ص ٢٢ - ٢٤.

وخطيبها وكذلك ابن أخيه (حنظلة بن ربيع) كاتب النبي ﷺ[1] و (لبيد بن ربيعة)[2] والمرقش الأكبر وأخوه (حنظلة)[3] .

لكن هل تعليم القراءة والكتابة كان ضمن الأسر الغنية فقط؟ يبدو لي أن تعليمها كان أكثر انتشاراً في تلك الأسر إلا أن الفئة الفقيرة كان البعض منها مهتماً أيضاً بتعليم أبناءه ونستطيع أن نستدل على ذلك مما ذكره المؤرخون أن الرسول محمد ﷺ طلب من أسرى بدر أن يعّلم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين[4] ولا شك أن هؤلاء من الفقراء الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة قبل الإسلام فيومئذ تعلم (زيد بن ثابت) الكتابة في جماعة من غلمان الأنصار[5] .

وهكذا يتضح لنا أن عملية تعليم القراءة والكتابة كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام إلا أنها كانت محدودة وضمن نطاق ضيق ولما جاء الإسلام فتح الباب على مصراعيه أما الناس بالتعليم، كما نستطيع أن نستشف مما تقدم أن العرب كانت تعظم دور البيت وتعده مسؤولاً مسؤولية تامة عن تنشئة أطفاله وإعدادهم خلقياً خلاف ما كان سائداً في بعض الأمم الأخرى[6] وهذا يدفعنا إلى القول أن الأسرة العربية قبل الإسلام كان بيدها زمام التنشئة والتربية والأخلاق والعقيدة.

---

(١) البلاذري، مخطوطة أنساب الأشراف، ق(٦)، ورقة ١٠٧٣ وجاء في هذا المصدر أنه كان يقال له (حنظلة الكاتب).

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٣٠؛ حسين نصار، المصدر السابق، ص ٢٣ - ٢٤.

(٣) الأصفهاني، الأغاني ١٦ / ١٣٠ (في خبر المرقش الأكبر)؛ الأنباري، المصدر السابق، ص ٤٠٦؛ إسماعيل عز الدين، المكونات الأولى، ص ٥٤.

(٤) ابن سعد، المصدر السابق، ٢ / ٢٢؛ المقريزي، إمتاع الأسماع ١ / ١٨٧؛ هاشم يونس عبد الرحمن، الحياة الفكرية، ص ١٢٧.

(٥) المقريزي، م. ن. ١ / ١٨٧.

(٦) ذكر ابن سعيد إبراهيم الجيار في كتابه (دراسات في تاريخ الفكر) ص ٩٣ أن اليونانيين هدفوا إلى تقليل أهمية البيت وتجلى ذلك بوضوح في أسمى تعبيراتهم الفكرية والاجتماعية التي تضمنتها جمهورية أفلاطون.

وقد يشارك بعض الأقارب في تعليم وتنشئة الفرد ونقل تقاليد وعادات المجتمع إليه فقد قيل أن (الكميت الأسدي) كانت له جدتان أدركتا قبل الإسلام فكانتا صفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس وتوقفانه على كل شعر أو خبر يشك فيه[1] فهذا يدل وبشكل واضح على أن التنشئة الاجتماعية عند العرب كانت تقوم بدور نقل التراث من جيل إلى آخر.

أن دور الأم في تنشئة أبنائها لا يختصر على المرحلة الأولى من أعمارهم بل ترى أنها تمتد إلى الفترات اللاحقة، وهذا نلمسه من خلال دورها الفعال في تزويج بناتها سواء في استشارة الأب لها في إقناع ابنتها بالزواج فعلى الرغم من ان مهمة اتخاذ القرارات إزاء شؤون ومستقبل الأسرة كان الرجال ينفردون بها نظراً لمنزلتهم العالية، حسب المفاهيم الاجتماعية السائدة آنذاك مع هذا فأن هنالك حالات متعددة تتحمل فيها الأم مسؤولية القرارات والإجراءات التي اتخذتها بعض الأسر بشأن أمورها ومشاكلها الحياتية والاجتماعية فالأم في هذه الحالة كانت تعمل بالخفاء حيث أن القرارات التي يتخذها الرجل في الأسرة ما هي في الحقيقة إلا قرارات الأم فقد تشير الأم على زوجها في تزويج ابنته ويرتضي هذه المشورة كما فعلت زوجة (أوس بن حارثة) الطائي [*] عندما خطب إليه (الحراث بن عوف) المري ابنته (بهيسة) بعد أن كان قد رفض أن يزوجه إياها[2] .

أو يقوم الزوج باستشارة زوجته لإقناع ابنتها بالزواج وتهتدي البنت برأيها. قيل أنه لما خطب (الحارث بن سليل) الأسدي إلى (علقمة بن

(١) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة، ١٦ / ٣٥٢.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ط الثقافية ١٠ / ٣٠٤؛ ابن نباته، المصدر السابق، ص ١٠٤؛ عمر كحالة أعلام النساء ١ / ١٥٥؛ البياتي، الحرب في داحس والغبراء، ص ٦١.

خصفة) الطائي قال (علقمة) لأم الفتاة اريدي ابنتك على نفسها فاستشارتها فامتنعت حتى أقنعتها على الموافقة[١] .

كما أن أم الفتاة كانت ذات رأي في تزويج ابنتها فيذكر ابن قتيبة رواية عن المدائن قال: -

خطب رجل من بني كلاب امرأة فقالت له أمها: - حتى أسأل عنك[٢]، وتقدم لنا أخبار العرب أمثلة أخرى على دور الأم في زواج ابنتها وحسبنا أن نقرأ في بعض المصادر الدور الذي قامت به زوجة (المحلق) الكلابي في تزويج بناتها[٣] .

ومن أجل أن يتضح لنا بشكل جلي أثر الأم في التنشئة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام وجدنا من المناسب أن نقف عند بعض الوصايا التي كانت الأم توصي بها ابنتها عند زواجها. فقد ذكر إن (إمامة بنت الحارث) زوجة (عوف بن ملحم بن ذهل) الشيباني قد أوصت ابنتها (أم إياس) يوم حملت إلى زوجها (عمرو بن حجر) ملك كندة[٤] فقالت لها: - أي بنية إنك قد فارقت بيتك الذي منه خرجتِ وعشك الذي فيه درجتِ إلى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمه يكن لك عبداً واحفظي له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً فأما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة وحق السمع والطاعة وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منكِ على قبيح ولا يشم منكِ إلا أطيب الريح واعلمي أي بنية أن الماء أطيب

(١) ابن قتيبة عيون الأخبار، ٤ / ٤٧ - ٤٨؛ الميداني، المصدر السابق، ١ / ١٢٢؛ النويري، المصدر السابق، ٣ / ٢٠؛ البرقوني، دولة النساء، ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ٤ / ١٣.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية، ٩ / ١١٣ - ١١٤؛ ابن رشيق العمدة، ١ / ٤٨ - ٤٩؛ عبد اللطيف حمزة، الأعلام في صدر الإسلام، ص ٣٥.

(٤) اليعقوبي، التاريخ، ١ / ١٨٧ - ١٨٨؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٦ / ٨٣؛ ابن الأثير الكامل، ١ / ٥٤٩؛ أولندر، ملوك كندة، ص ٧٧.

الطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود وأما الخامسة والسادسة، فالتفقد لوقت منامنه وطعامه فأن تواتر الجوع ملهبه، وتنغيص النوم مغضبه، وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظ بماله والرعاية على حشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التقدير وفي العيال حسن التدبير، وأما التاسعة والعاشرة، فلا تفشي له سراً ولا تعصي له أمراً، فأنك أن أفشيتي سره لم تأمني غدره، وإن عصيتي أمره أوغرتِ صدره. ثم وإياك الفرح بين يديه إن كان مهتماً، والكآبة بين يديه إذا كان فرحاً[1] .

إن هذه الوصية تعد واحدة من أفضل الوصايا وأكملها في موضوعاتها فيما يخص التنشئة الاجتماعية وخصوصاً أنها صدرت من امرأة ذات مكانة وشرف وكانت مواضيع الوصية كلها مستمدة من تجاربها وخبراتها. وفي هذه الوصية قوام السعادة الزوجية، فالأم تريد أن تنشأ ابنتها على طاعة زوجها والعناية بنظافتها ومظهرها وزينتها وبأبسط المواد الماء والكحل، كما تنصحها على أن تراعي زوجها في راحته ومنامنه وطعامه، وأن تقتصد في نفقاتها وتربي أولادها والعناية بهم. وهذه كلها من الأمور الجليلة التي تسعى الأم لتحقيقها في تربيتها لأبنتها، كما تقدم لها الإرشادات التي عليها الالتزام بها في علاقاتها مع زوجها بأن لا تفشي له سراً ولا تعصي له أمراً وأن تشاركه مشاركة وجدانية في أفراحه وأحزانه.

فهذه جملة من الإرشادات موجهة إلى البنت لتكون تعاليماً واضحة تهتدي بها وهي عبارة عن جملة عادات وتقاليد تتناقلها الأسرة العربية جيلاً بعد جيل عن طريق الوصية. والتي تعبر عن غريزة تناقل الخبرة عن الشخص

(١) السجستاني، المصدر السابق، ١١٩ - ١٢٠؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٢ / ٢٦٣، ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة ١٨ / ٣٣٢. (وردت في المصدر الأخير بلفظ أوصت امرأة من نساء العرب).

بعينه إلى آخرين ليمنحهم تجربته الطويلة وخبراته المتنوعة. وقد ألف أبو حاتم السجستاني كتاباً سماه (المعمرون والوصايا)[1] .

وقال أحد الباحثين أن الوصايا تعد سجلاً لأنماط العلاقات الأسرية والاجتماعية انعكاساً حياً لتطور القيم والأفكار[2] فالأم من خلال هذه الوصايا تسعى لتوضيح ما هو مطلوب منها بوصفها زوجاً وكيف نجعلها أماً تتحمل مسؤولية تربية أطفالها وإعدادهم مستقبلاً بالطبع أن كل هذه الموضوعات وغيرها تحدد للأفراد سلفاً من خلال التنشئة الاجتماعية[3] .

كما كانت الأم تتلافى زلة لسان ابنها إذ عرفت بمقدرتها في معالجة الموقف الناشئ عن ذلك وقد اشتهرت بالعرب (أم مدوي) حتى ضرب بها المثل لمن يوري بالشيء عن غيره وأصله أن امرأة من العرب خطبت إلى ابنها جارية فجاءت أمها إلى أم الغلام لتنظر إليه فدخل الغلام فقال لأمه: - أ أدوي، فقالت له: - اللجام معلق بعمود البيت، والسرج في جانبه، فأظهرت أن ابنها إنما أراد أداة الفرس للركوب فكتمت بذلك زلة ابنها عن أم الفتاة، وإنما أراد ابنها بقوله (آكل الدواية) وهي القشرة التي تعلوا اللبن.

قال يزيد بن الحكم الثقفي: -

بدا لك غش طالما قد كتمته كما كتمت داء ابنها أم مدوي[4]

وسألت إعرابية عن ابنها فقالت: - انفع من غيث وأشجع من ليث يحمي العشيرة ويبيح الذخيرة ويحسن السريرة[5] .

كما نستطيع أن نلتمس أثر التنشئة الاجتماعية على الفتاة وذلك من

---

(١) السجستاني، المعمرون، ص ٣ - ١٦.

(٢) الدوري، أدب حكماء تميم، ص ٤٤.

(٣) عبد علي سلمان، المصدر السابق، ص ٩٨.

(٤) للتفصيل عن تلك الحادثة راجع ابن الأثير مجد الدين، المرصع، ص ٣٥ - ٣٦.

(٥) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ١٣٩.

خلال سلوكها وتصرفاتها مع زوجها من خلال ما تطرحه من آراء في كيفية مواجهة الأحداث وطريقة معالجتها إذ يظهر هنا تأثير التنشئة والتربية الأسرية عليها واضحاً وخير مثال على ذلك إنه لما خطب (الحارث بن عوف) بهيسة بنت أوس بن حارثة الطائي سيد العرب وكانت ذات عقل ورأي. فلما هم بها قالت أتفرغ للنساء وتخصهن بوقتك كله وقد أفنت الحرب عبس وذبيان؟ فأخرج إلى هؤلاء القوم وأصلح بينهم؟ فسر الحارث من حديثها وخرج هو و (هرم بن سنان) وأصلحا بين القوم وحملا عنهم الديات[١] فانصرفا بأجمل الذكر وشاد بهما (زهير بن أبي سلمى) في معلقته[٢] وبذلك تم الصلح على يد الحارث بفضل زوجته بهيسة. إن قيامها بهذا الدور في تشجيع زوجها على السعي لإنهاء الضغائن والأحقاد بين عبس وذبيان التي استمرت لمدة ليست بالقصيرة[٣] لا شك أن ذلك كان يتأثر بتنشئتها وتربيتها الأولى وإنها كانت تسمع في بيت أهلها أهمية الصلح وإنهاء الحرب وأن يسود السلام والأمان ووحدة القبيلة فانعكست آثار تنشئتها على سلوكها وأخلاقها وتصرفاتها وقد آتت أكلها بأن أنهيت تلك الحرب بين القبيلتين. وهكذا نرى أن التنشئة العربية قبل الإسلام كانت تنشئة يتم تعليم الأبناء على الخير والسلام والابتعاد عن الأحقاد والكره والضغائن لأنها صفات لا تتفق مع الأخلاق العربية الأصيلة.

وكان العرب قبل الإسلام يميزون الأم بالتقدير والإكرام ولذلك قيل أنهم لم يكونوا يعزون بالمرأة بعد موتها إلا أن تكون أماً[٤] .

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة ١٠ / ٣٠٤؛ ابن نباته، المصدر السابق، ص ١٠٥؛ عمر كحالة، أعلام النساء، ١ / ١٥٥ - ١٥٧؛ البياتي، الشعر في حرب داحس والغبراء، ص ٦١.

(٢) ديوانه، ص ٧٤ وما بعدها؛ الزوزني، المصدر السابق، ص ١٣٤ وما بعدها؛ حمزة بن الحسن الأصفهاني، الدرة الفاخرة، ١ / ٢٢٤.

(٣) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٥ / ١٥٢.

(٤) محمد جميل بيهم، المرأة في التاريخ والشرائع، ص ١٦١.

كما أن الدور الذي تؤديه الأم دوراً اجتماعياً ورئيساً فلم تصبح بالزواج قريناً لزوجها فحسب بل معيناً نفسياً يساهم في إسعاد القبيلة بوجه عام. فرسالتها في تغذية المحاربين برجال أشداء شجعان وإنجاب أبطال عديدين، بذلك فضل العرب المرأة المنجبة[1] على الجميلة العاقر لما عرفوا به من التفاخر بكثرة العدد والتعيير بالقلة[2] لأن حياتهم القبلية كانت تعتمد على العصبية والنصرة والحروب[3] وفي الحديث (سوداء ولود خير من حسناء لا تلد) وقولهﷺ خير نسائكم الودود الولود)[4] فهي الأثيرة عند زوجها العزيزة عند قومها وكانوا لا يعدون المرأة منجبة حتى تنجب ثلاثة بنين فأكثر من النابهين الأشراف النجباء[5] إعلاناً لتفوقها في أداء رسالتها الاجتماعية[6] لذلك قالوا أفضل النساء الولود[7] و (من لا يلد لا ولد)[8] وينبغي أن تكون المنجبة على جانب كبير من كرم النفس إذ لم يفد (أم خارجة) ما أنجبته[9] وقد عقد (ابن حبيب) فصلاً مطولاً وشيقاً تحت عنوان المنجبات من النساء

---

(١) رشيد الجميلي، المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٢) قال السمؤال:

- تعيرنا إنا قليل عديدنا   فقلت لها إن الكرام قليل

ديوانه، ص ٩٠؛ أبو تمام، الحماسة، ص ٤٢؛ القالي، الأمالي، ١ / ٢٦٩؛ المقدسي، اللطائف والظرائف، ص ٤٠ وهذه من القيم التي نها الإسلام عنها وحاربها قال رسول الله (ص) بعد فتح مكة (إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكثرها بأبنائها، كلكم لأدم وآدم من تراب)؛ المقريزي، إمتاع الأسماع ١ / ٣٨٥.

(٣) محمد أحمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ١٥٤.

(٤) أبو طالب المكي، قوت القلوب ٢ / ٥٢٤.

(٥) ابن حبيب المحبر، ص ٤٥٥؛ الميداني، المصدر السابق ٢ / ٣٥٠؛ الزركلي، المصدر السابق، ٥ / ٢٦٩.

(٦) علي الهاشمي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٠٩.

(٧) ابن قيم الجوزية، أخبار النساء، ص ٧.

(٨) هاشم يونس عبد الرحمن، الحياة الفكرية، ص ٧٥.

(٩) ابن حبيب المحبر، ص ٣٩٨؛ ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٣٥.

وقد أحصيت ما أورده فيه فبلغن إحدى وثلاثين امرأة[١] . ولما كانت المرأة المنجبة عماد الحياة الاجتماعية[٢] لذا اهتم العرب برعايتها حتى ضربوا بها الأمثال فقالوا : - (أنجب من فاطمة بنت الخرشب)[٣] (وأنجب من خبيئة) (وأنجب من عاتكة)، (وأنجب من أم البنين)[٤] التي افتخر أبنائها بها فقالوا : (نحن أبناء أم البنين)[٥] .

وكان العرب إذا أرادوا تكريم الأم كنوها باسم بنيها[٦] كأم الفضل العباس بن عبد المطلب عم النبي محمد (ص) وفيها يقول عبد الله بن يزيد الهلالي : -

ما ولدت نجيبة من فحل كستة من بطن أم الفضل
أكرم بها من كهلة وكهل[٧]

وكفاطمة بنت الخرشب الإنمارية التي نعتها العرب بأم الكملة فليس في أبنائها غير السيد والشاعر والفارس[٨] وكان لها سبعة أولاد مشهورين وقد لقبوا بنعوت الحمد[٩] . وذكر البغدادي أن (كل واحد منهم قد رأس في

(١) ابن حبيب، المصدر نفسه، ص ٤٥٥ - ٤٦٣.

(٢) هاشم يونس عبد الرحمن، الحياة الفكرية، ص ٥٧.

(٣) الميداني، المصدر السابق، ٢ / ٣٤٩؛ النويري، المصدر السابق ٢ / ١٢٣.

(٤) الميداني، المصدر السابق ٢ / ٣٤٩ - ٣٥٠؛ النويري، المصدر السابق، ٢ / ١٢٣. وقد ورد فيه بلفظ (أنجب من بنت الحارث) والصواب ما أثبتناه؛ واصف بطرس غالي، المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص ٨٩؛ الأصفهاني، الأغاني، ط ١، دار الكتب المصرية، ١٥ / ٣٦٤؛ الشريف المرتضى، المصدر السابق ١ / ١٩٣؛ الميداني، المصدر السابق، ٢ / ٣٥٠.

(٦) الأصفهاني، م. ن. والطبعة، ١٦ / ١٣٧؛ شيخو، المصدر السابق، ص ٧٥٦.

(٧) أحمد عيسى بك، المصدر السابق، ص ٣٦.

(٨) أبو عبيدة، النقائض، ١ / ١٩٣؛ ابن حبيب، المحبر، ص ٣٨٨، ٤٥٨؛ الميداني، المصدر السابق، ٢ / ٣٤٩؛ النويري، المصدر السابق، ٢ / ١٢٣.

(٩) وهم : - الربيع الكامل، وعمارة الوهاب، (دالق)، وأنس الخيل (الفوارس)، وقيس الحفاظ، والفارس الحرون، ومالك اللاحق وعمرو الدارك، أنظر الياقوت، المقتضب، ٢ / ١٧٧؛ واصف =

الجاهلية وقاد جيشاً)[1] فكانت تسموا بهم بيوتهم وتعز بشهرتهم قبائلهم. وقد نعتوا بأنهم الكملة من بني عبس[2] وقال البلاذري أن العرب كانت لا تطلق لفظ (الكامل) على الشخص إلا إذا كان يجيد الكتابة، السباحة والرمي[3] كما قيل أنه أطلق على كل منهم هذا اللقب (لاكتمال صفات الرجل فيه من حكمة وحزم وفروسية وفصاحة)[4] . وقد زهيت الأم العربية بأبنائها السادة الماجدين وزهى أبناؤها بها (لأنهم يدينون لها بالكثير من عظمة نفوسهم وسلامة أبدانهم وشهرتهم ومجدهم)[5] .

روي أن (عبد الله بن جدعان) لقي مرة (فاطمة بنت الخرشب) الإنمارية أو الكملة وهي تطوف بالكعبة فقال لها نشدتك برب هذا البيت أي بنيك أفضل[6] فأصبحت في حيرة من أمرها بتميز أحدهم عن الآخر[7] فقالت: - ثكلتهم إن كنت أدري أيهم أفضل[8] هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها[9] .

وهذا لا يعني أن بعض الأسر العربية قبل الإسلام لم تكن تميز بين

= بطرس غالي، المصدر السابق، ص ١٠٧. في حين أوردت قسم من المصادر الأخرى بعض منهم مثل ابن حبيب المحبر، ص ٤٥٨؛ النويري، المصدر السابق، ٢ / ١٢٣؛ المرصفي، المصدر السابق، ٣ / ٤٤؛ وهم بنو (زياد بن عبد الله بن سفيان بن ثابت العبسي) راجع ابن الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق محمد فردوس، ٢ / ١٦٣: ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٣ / ٣٥١؛ Nicholson, A literary history of the Arabs, p. 88.

(١) الغدادي، خزانة الأدب، ٣ / ٣٦٤.

(٢) ابن حزم، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٣) فتوح البلدان، ص ٤٥٩.

(٤) البياتي، الشعر في حرب داحس والغبراء، ص ٤٧.

(٥) محمد أحمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٨٥.

(٦) محمد أحمد جاد المولى، أيام العرب، ص ٢٤٨ هـ ١.

(٧) المطوي، الطفل في الأدب، ص ٢٧٧.

(٨) الميداني، المصدر السابق ٢ / ٣٥٠.

(٩) البغدادي، خزانة الأدب، ٣ / ٣٦٤.

أبنائها في التعامل، فقد عثرنا على نصوص توضح ذلك. ذكر أن (ضمرة بن ضمرة) النهشلي، كانت أمه تفضل أخاً عليه يدعى (جندب)[١] وتؤثره دونه فكان لهذا الأسلوب في التعامل من أمه وسوء معاملتها بالغ الأثر في نفسه وقد انتهى الأمر فيه إلى الرحيل عن أهله حيث كشف لنا عن ذلك في شعره[٢] . فشعور الطفل بأنه غير مرغوب فيه من والديه يكون له آثار نفسية عليه[٣] ، لأن شعوره بالإهمال وعدم الرعاية من الوالدين يكسبه أخلاقاً وسلوكاً تكونه مرفوضة من مجتمعه[٤] .

ومن القصص الطريفة التي ذكرت عن التفضيل بين الأطفال في الأسرة العربية ما ذكره ابن قتيبة[٥] ويتبعه كذلك (ابن عبد ربه)[٦] أن (مزرداً) كانت أمه[*] تؤثر عيالها بالزاد عليه وكان ذلك يغضبه فذهبت يوماً تزور أهلها وخلفت (مزرداً في بيتها فدخل الخيمة فأخذ صاعين من دقيق وصاعاً من عجوة[٧] وصاعاً من سمن فضربه بعضه ببعض فأكله ثم أنشأ يقول: -

ولما مضت أمي تزور عيالها أغرت إلي العكم الذي كان يمنع

خلطت بصاعي حنطة صاع عجوة إلى صاع سمن فوقه يتربع[٨]

كما أن شعور الأبناء وإحساسهم الذاتي بوجود نوع من التميز أو

(١) البغدادي، المصدر نفسه، ١ / ٢٤٣.

(٢) هاشم طه شلاش ضمرة بن ضمرة النهشلي، أخباره وما بقي من شعره، مجلة المورد، حج١٠، عدد (٢)، بغداد ١٩٨١، ص ١١٣.

(٣) نصر الدين جابر، انعكاسات أسلوب التقبل، ص ٣٩.

(٤) أحمد عزت راجح، المصدر السابق، ص ٦٠٨؛ ألفت حقي، المصدر السابق، ص ١٢٤؛ راجحة أحمد صكر، المصدر السابق، ص ١٥.

(٥) عيون الأخبار، ٣ / ٢٠٤.

(٦) العقد الفريد، ٦ / ٣٠١ - ٣٠٢.

(٧) العجوة: - التمر، الفيروز آبادي، المصدر السابق، ٤ / ٣٦١، (العجوة).

(٨) يتربع: - يتمتع ولا يستقر لكثرة المبرد، الكامل، ٤ / ٧٤؛ الزبيدي، م. ن. والطبعة، ٨ / ٤٠٤، باختلاف الألفاظ..

التفضيل من قبل الوالدين لأخ لهم من دونهم فأن ذلك سيولد لديهم الكره والحقد والبغض له بل قد يصل بهم الأمر إلى العمل من أجل التخلص منه وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم عندما حكى قصة يوسف (عليه السلام) وأخوته[1] لذا فأن من واجب الوالدين أن يساويا بين أبنائهم في المعاملة والعطف والشفقة والتربية[2] لكي لا ينشأوا الأبناء على الغيرة والمنافسة والحسد لبعضهم بعضاً[3] .

وقد أوصى الإسلام بأن يعدل الأب بين أبنائه فلا يفرق في المعاملة بينهم وأن يسوي بينهم في العطية حتى يتربوا على التراحم والتعاطف ولا يشبوا وهم يحقدون على بعضهم البعض. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: - (اتقوا الله واعدلوا في أولادكم)[4] . وعن (النعمان بن بشير)أن أباه أتى به النبي ﷺ فقال: - أني نحلت - أعطيت - ابني هذا غلاماً كان لي، وأنا احب ان تشهد فقال رسول الله ﷺ: - أكل ولدك نحلت مثل هذا؟ قال لا فقال أرجعه، فرجع أبي في تلك الصدقة[5] .

كما نجد أن قسم من الأسر العربية قبل الإسلام كانت تفضل الذكور على الإناث وهناك أسباب عديدة دفعتهم إلى ذلك يمكن توضيحها بالنقاط الآتية: -

أ - الجانب الاجتماعي

كان العرب آنذاك يفضلون الذكور على الإناث شأنهم في ذلك شأن

(١) سورة يوسف / ٤ - ١٠٢.

(٢) أحمد عبيدات، المصدر السابق، ص ٥٤.

(٣) راجحة أحمد صكر، المصدر السابق، ص ١٥.

(٤) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود، ص ١٧٨.

(٥) ابن الأثير، أسد الغابة، ١ / ١٩٤؛ ابن يوسف المزي، تحفة الأشراف، ٢ / ٩٨ - ٩٩؛ ابن قيم الجوزية، تحفة المودود، ص ١٧٨.

الشعوب القديمة، وذلك ملائم لطبيعة مجتمعهم وظروف حياتهم[1] ، - هذا وقد عرضت بعض الدراسات لهذه الملاحظة بكل جلاء ودون أي لبس[2]، - والأسباب التي دعتهم إلى ذلك يمكن معرفتها من خلال ما يأتي: -

١ - تحقيق الرجولة والاستمرارية:

اكتسب الذكر في المجتمع العربي قبل الإسلام سلسلة من الامتيازات فهو يعد عماد المجتمع، ومحور حياته وأنه يحقق حلم الأب المزدوج بالاستمرار والرجولة لأن قاعدة حساب النسب مبنية على النسب الذكري فلكل قبيلة أب تتخذ منه أن يتوالى أبناؤه وأحفاده الذكور بعده وبهم يقوم عمود النسب[3] وولادة الذكر بمثابة حلقة تضاف إلى سلسلة البقاء ولذلك فأن العرب تنظر إلى الولد أنه امتداد لأبيه[4] . ولعل هذا يفسر لنا عزوف القبائل عن تزويج بناتهم إلى قبائل أخرى إذ ترغب أن تبقيهن ليلدن لهم الأولاد لأن الابن ينسب لأبيه، في حين تنسب أبناء البنات إلى قبائل أزواجهن إذا كن متزوجات من خارج القبيلة، فالعربي مال إلى توكيد عصبيته في أرومته من أبيه ورأى أولاد بناته منسوبين إلى آبائهم، حتى كلمة (ولد) عند العرب (كانت تطلق عرفاً على الابن، وابن الابن، ولا تطلق على ابن البنت الذي ينتسب إلى أسرة ثانية وقد يكون من عشيرة ثانية)[5] ، وإلى هذه المعاني أشار الشاعر بقوله: -

---

(١) جواد علي، المفصل ٤ / ٦٥٠ - ٦٥١.

(٢) أنظر، فوزية دياب، المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٣) ابن عبد البر، القصد والأمم، ص ١١، وما بعدها؛ القلقشندي، قلائد الجمان، ص ٧ وما بعدها؛ إحسان النص، العصبية القبلية، ص ١٤؛ محمود محمد الروسان؛ المصدر السابق، ص ١٩٨؛ لطفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة، ص ٣٤٣.

(٤) الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش، ص ١٣؛ الهمداني، الإكليل، ١ / ٣٢ وما بعدها.

(٥) إبراهيم فوزي، المصدر السابق، ص ١٩٩.

بـنـونـا بـنـو أبـنـائـنـا وبـنـاتـنـا بـنـوهـن أبـنـاء الـرجـال الأبـاعـد[1]

وهم كذلك موضوع التفاخر والزهو[2] فكثرتهم مدعاة للفخر ومأثرة يتميزون بها على سواهم وتكون خصلة حميدة يستخدمونها كمنقبة شخصية ويفتخرون بها على منافسيهم في الزعامة وخاصة في المنافرات [*]، أجل لقد شهد تاريخ العرب قبل الإسلام العديد منها وحفظ لنا الرواة قصصها[3] فمما قاله (علقمة بن علاقة) عند منافرته لابن عمه (عامر بن الطفيل) أمام (هرم بن قطبة): - أنا أبو عشيرة وهو عقيم)[4] .

والذكور أيضاً مصدر طمأنينة للأسرة على حفظ ممتلكاتها وتخليد أسمها[5] قال(البغدادي): - عرف (صخر) و (ومعاوية) ابنا (عمرو بن شريدة) السلمي بالفروسية والشجاعة والسيادة والرفعة والسؤدد لأنهما مفخرتا مضر وكان أبوهما يشعر بالغبطة والسرور فكان يأخذ بيدي أبنيه ويقول أنا أبو خيري مضر، فتعترف العرب له بذلك[6] . فالذكور على ضوء ذلك تتيح للأب الظهور بمظهر الرجولة وحيازتها ومن الطبيعي والحال هذه أن تمجد.

---

(١) الجاحظ، الحيوان ٢ / ٢٠٦، البغدادي، خزانة الأدب ١ / ٢١٣.

(٢) فوزية دياب، المصدر السابق، ص ٣٠٦.

(٣) يروي المؤرخون أن (حرب بن أمية) نافر (عبد المطلب بن هاشم) إلى (نفيل بن عبد العزى) فقضى فيها إلى (عبد المطلب) وخاطب حرباً قائلاً: (أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة.... وأكثر منك ولداً) راجع ابن حبيب، المحبر، ص ١٧٣ - ١٧٤؛ الماوردي، أعلام النبوة، ص ١٢٤، وجاء في هذا المصدر إن المنافرة كانت بين (أمية) و (هاشم)؛ المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم، ص ٧ - ١٠؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ١ / ٣٠٧ - ٣٠٨؛ ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، ص ٢٢٠؛ إبراهيم الأبياري، معاوية الرجل الذي أسس دولة، ص ١٥.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ط ١، طبعة دار الكتب المصرية ١٦ / ٢٨٦؛ ابن قيم الجوزية، أخبار النساء، ص ١٤٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى ١ / ٣٨٣؛ الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٣٧٠.

(٥) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي ١ / ١٧٩؛ فوزية دياب، المصدر السابق، ص ٣٠٦.

(٦) البغدادي، خزانة الأدب ١ / ٢٠٩.

٢ - الذكور مصدر قوة للقبيلة:

ينظر المجتمع العربي قبل الإسلام إلى الذكور على أنهم مصدر قوة للأسرة والقبيلة، ولذا فأنه يفضلهم على الأنثى لأنه الأقدر على حمل السيف والذود عن حمى القبيلة[١] والاعتماد عليهم في الغزو والحرب[٢] فالذكر هو فتى القبيلة في السلم والحرب والعسر واليسر[٣] . والذكور عنوان القوة وضمان النصر ففي كثرتهم عز ومنعة وفي قلتهم ضعف واستهانة[٤] . وعلاوة على أن الذكور يمثلون قوة للقبيلة فأنهم سيزيدون من حجم الأسرة وتفرعاتها بالزواج والمصاهرة في أسر أخرى[٥] وقال (زهير حطب) لقد كانت الغاية من الزواج عند العرب قبل الإسلام هي: - (الإنجاب وتقوية القبيلة)[٦] ولعل هذا يوضح لنا بعض أهداف أخذ الأسيرات أنهن يلدن من المحاربين فتزداد قبيلتهم منعة[٧] ، وإن كان أمر أسر الرجال والنساء على السواء أمراً قاسياً إلا أنه كان تعرض النساء للأسر أكثر من تعرض الرجال[٨] . ولذلك كان العرب يؤثرون البنين على البنات لأن وقوع النساء في الأسر يعد من المعايب الشديدة[٩] . ومثله يشهر بها الشعراء ويشمت بها

---

(١) أحمد شلبي، المصدر السابق ١ / ١٧٩؛ وفاء علي، المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٢) عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في العصر الجاهلي، ص ٤٤٧، زهير حطب، المصدر السابق، ص ٢١.

(٣) سعيد الديوه جي، أشعار الترقيص، ص ٥.

(٤) محمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ١٥٤.

(٥) فوزية دياب، المصدر السابق، ص ٣٠٦.

(٦) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٧) علي الهاشمي، الإماء في المجتمع العربي قبل الإسلام، ص ١٣٦.

(٨) رشيد الجميلي، المصدر السابق، ص ٢١٠؛ هادي الحمداني، الأسر عند العرب، مجلة الأستاذ، مج ١٣ عدد (١ - ٢)، بغداد ١٩٦٥، ص ٣٥.

(٩) رشيد الجميلي، المصدر السابق، ص ٢١٠؛ صالح موسى درادكه، الحرب عند القبائل، مجلة المؤرخ العربي عدد (٢٩)، ١٩٨٩، ص ١٢٥.

الخصوم[١] وقيل أن أسر الرجال في الحروب لا يعد شأناً مثل أسر النساء[٢] . ومن جراء أسر النساء تحدث الحروب[٣] ولذلك كانوا يعتزون بالذكور على سواهم والاستكثار منهم عن طريق تعدد الزوجات بهدف تقوية نفوذ القبيلة في المجتمع والاستفادة منهم في الحروب[٤] . لأنه لم يكن للقبيلة جيش ومن هنا كان كل فرد قادر على حمل السلاح فيها يعد مقاتلاً يذود عن قبيلته[٥] ، وبما أن الرجال يتحملون مسؤولية الدفاع عن القبيلة لأنه كتب القتل والقتال عليهم، لذلك كان ينظر إلى المرأة على أنها تشكل عبئاً على الرجال (لأنهن يأخذن ولا يعطين وينفقن ولا يكسبن)[٦] وتحمل مسؤولية الدفاع عنهن[٧] . فقدرة القبيلة على التوسع والامتداد مرهونة بقدرتها على كثرة إنجاب الذكور[٨] وكانوا يُعِزونَهم لأن الذكر يغني حيث لا تغني الأنثى[٩] . وقد عبرت أمثال العرب عن ذلك فقالوا (إن كنت حبلى فلدي غلاماً)[١٠] لأن الذكر عنصر مهم في حياتهم حيث يكون عـِدّة لوالده ولأهله ولعشيرته[١١] فقد ذكر أنه عندما قتل (جسّاس بن مرة) كليب وائل

---

(١) الأعشى (ميمون بن قيس)، ديوانه، ص ٤٩؛ محمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٤٨٦.

(٢) جواد علي، المفصل، ٥ / ٩٨.

(٣) هادي الحمداني، المصدر السابق، ص ٤٣.

(٤) مليحة رحمة الله، المصدر السابق، ص ١٩١.

(٥) محمد أحمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٩٣.

(٦) محمد أحمد الحوفي، م. ن، ٢٩٣.

(٧) زهير حطب، المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٨) زهير حطب، المصدر السابق، ص ٢٢.

(٩) محمد أحمد الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ص ٢٢٤.

(١٠) الميداني، المصدر السابق ١ / ٧٦؛ محمد سعيد الحافظ، المثل وتصوره للحياة الاجتماعية، مجلة الجامعة، الموصل، عدد (١)، ١٩٧٨، ص ٣٣.

(١١) جواد علي، المفصل، ٥ / ٩٨.

جاء وقد بني كليب (لمره) وطالبه بتسليم (همام) إليهم ليقتصوا منه بعد أن هرب (جسّاس فرد عليهم (مره) بقوله: - (وأما همام فأبوا عشرة وأخو عشرة، ولو دفعته إليكم لصيح بنوه في وجهي وقالوا دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره)[١] .

إضافة إلى أن الذكر هو الذي يتولى مسؤولية إدارة أعمال أبيه في كبره وعجزه وبعد مماته كما فعل (قصي بن كلاب) عندما عهد إلى ابنه الأكبر (عبد الدار) بإدارة شؤون مكة[٢] وهكذا يلاحظ أنه بمثل تلك البيئة وهذه الظروف هي التي أعطت قصب السبق إلى الذكر دون الأنثى وأن يكون له القدح المعلى.

أن حب العرب للذكر يفسر لنا انتشار أدعية وتمنيات خاصة بكثرة إنجابهم وما يدل على ذلك ما قاله (ابن حبيب)[٣] ، و (ابن عبد ربه)[٤] إنه حين تحمل العروس إلى بيت زوجها يقول لها أبوها أو أخوها متمنياً وموصياً: (أيسرت وأبكرت ولا أنثت جعل الله منك عدداً وعزاً وجلداً) هذا إذا كان زوجها في قبيلتها أو لقريب لها، أما إذا زوجت في غربة قال لها: - (لا أيسرت ولا أذكرت فإنك تدنين البعداء، وتلدين الأعداء)، ونجد هذه الرواية في مصادر أخرى[٥] .

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧، ١ / ٣١٨ باختلاف الألفاظ؛ النويري، المصدر السابق ١٥ / ٣٩٩؛ ابن نباته، المصدر السابق، ص ٦٢؛ جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٢٦٥؛ محمد أحمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، ص ١٥٣؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام العام ١ / ٥٥؛ شيخو، المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٢) ابن هشام، السيرة، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١، ١٩٥٥/١٢٩.

(٣) المحبر، ص ٣١٠.

(٤) العقد الفريد، ٦ / ٨٥.

(٥) للتفصيل راجع الآلوسي بلوغ الأرب، ٢ / ٣؛ نبيه عاقل، المصدر السابق، ٣٠٢؛ ولكن، المصدر السابق، ص ٥٧.

ب - الجانب الاقتصادي

لقد كان من دوافع تفضيل العرب للذكور على الإناث أن الأعمال التي كانوا يقومون بها تعود على أسرهم بفوائد اقتصادية كالصيد[١] والرعي وقد أوردت المصادر أن الرسول محمد (ص) كان يعمل في صغره وصباه في رعي الغنم سواء عندما كان عند مرضعته (حليمة السعدية)[٢] أم في مكة حيث روي أنه (ص) قال كنت أرعى الغنم لأهل مكة (بالقراريط)[٣] . وكذلك كان الصبيان يقومون بجمع الكمأة[٤] أو (الحنظل) حيث قيل أنهم كانوا في أيام الشدة يرسلون أولادهم لجمعه فإذا جمع نقف أي كسر لآخراج هبيده[٥] : - حبه لطبخه أو تحميصه[٦] والعرب تقول مفتخرة: (وضرب ينقف الهام عن الدماغ)[٧] وقد تفاخر (حسان بن ثابت) بالغساسنة لأنهم كانوا في رغد من العيش ولا يرسلون أولادهم لنقف الحنظل[٨] ولذا فأن الذكر يعد كسباً للأسرة[٩] كما إن قوته التي تفوق قوة الأنثى يستطيع أن يقوم بصورة أفضل بالأعمال التي تتطلب بذل جهد وقوة[١٠] .

---

(١) القالي، الأمالي ١ / ٦١؛ عبد العزيز السالم، المصدر السابق، ص ٤٤٧.

(٢) ابن هشام، السيرة، ق ١ / ١٦٥ - ١٦٦؛ هشام الملاح، الوسيط في السيرة، ص ٨٧.

(٣) ابن سعد الطبقات الكبرى، ط ١، أعد فهارسها رياض عبد الله عبد الهادي، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٩٦،١/٥٩؛ الزبيدي، المصدر السابق، ط الكويت ٢٠ / ١٩ وورد في هذا المصدر أن القراريط موضع أو جبل.

(٤) يوسف رزق الله غنيمة، الحيرة، ص ١٠٤.

(٥) الزبيدي، المصدر السابق، ط الكويت ٢٤ / ٤٣٢، وأنظر كذلك شرح ديوان علقمة الفحل (ضمن كتاب شرح ديوان علقمة، وطرفة، وعنترة)دار الفكر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢١ (بيت رقم ١٨) حيث ورد ذكر الحنظل وهبيدة.

(٦) جواد علي، المفصل ٥ / ٦١.

(٧) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٤٧١.

(٨) ديوانه، طبعة صادر، ١٩٦٦، ص ١٨٠.

(٩) محمد الجوهري، المصدر السابق، ص ١٨.

(١٠) عاطف وصفي، المصدر السابق، ص ٩٣.

جـ - التنشئة ووأد البنات

إن الأسرة العربية قبل الإسلام لم تكن تستقبل البنت بالحماسة نفسها التي تستقبل بها الصبي عند الولادة، وهذا ملائم لطبيعة مجتمعهم وظروف حياتهم فالمرء عندهم ينفر من الأنثى[1] شأنهم في ذلك شأن الشعوب القديمة[2] ، وقيل لأعرابي ما ولدك؟ قال: - قليل خبيث ! قيل وكيف ذلك؟ قال: - لا عدد أقل من الواحد ولا أخبث من بنت[3] حسب زعمه.

وكان المرء منهم يضيق صدره ويشعر بالحزن إذا أخبر بولادة زوجته بنتاً، وقد صور القرآن الكريم حالته تصويراً نفسياً رائعاً قال تعالى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى)[4] أي أخبر بولادتها (ظل وجهه مسوداً) من الكآبة (وهو كظيم) أي مملوء غيظاً (يتوارى من القوم) يستخفي من قومه (من سوء ما بشر به) وهي الأنثى، ويبقى متوارياً أياماً يدبر فيها ما يصنع (أيمسكه) أيتركه ويربيه (على هون) أي ذل (أم يدسه) أي يخفيه (في التراب) والمراد يئده[5] .

لقد كان أهم خبر يترقبه أفراد الأسرة بمجرد أن تضع الأم طفلها هو جنس المولود أهو ذكر أم أنثى فإذا كان صبياً فرحوا به أشد الفرح وإذا كانت أنثى أخذ الحزن نفوسهم، روى أن (صعصعة بن ناجية) جد الفرزدق كان يتجول بين مضارب العرب للبحث عن ناقتين له قد ضلتا، فإذا بشيخ جالس بفناء الدار فسأله عن الناقتين فقال هما عندي فجلست معه فإذا

---

(١) جواد علي، المفصل، ٤ / ٦٥٠ - ٦٥١.

(٢) علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص ١١٩.

(٣) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٣ / ٤٦٨؛ الثعالبي، اللطائف والظرائف، ص ٧٠؛ وفاء علي، المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٤) سورة النحل، ٥٨ - ٥٩.

(٥) للتفصيل راجع، الطبري، التفسير ١٤ / ١٢٣ - ١٢٤، الزمخشري، الكشاف ٢ / ٦١٢ - ٦١٣، القرطبي، جامع الأحكام، ١٠ / ١١٦ - ١١٨، الآلوسي، بلوغ الأرب ٣ / ٥٠ - ٥١.

عجوز قد خرجت من الدار فقال لها الشيخ ما وضعت المرأة فإن كان ذكراً شاركنا أموالنا وإن كان أنثى وأدناها[1] .

وقد رويت في كراهة بعض العرب للبنت عند ولادتها قصص وأشعار منها أن رجلاً يدعى (أبو حمزة) الضبي تزوج جارية من رهطه، وطمع أن تلد له غلاماً، فولدت له جارية، فهجرها وهجر منزلها، فمر يوماً فسمعها وهي ترقص بنتها: -

ما لأبي حمزة لا يأتينا   يظل في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنينا   تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا   ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوا فينا[2]

فلما سمع الأبيات دخل عليها وصالح زوجته وقبل بنته وقال: - (ظلمتكما ورب الكعبة)[3] .

ولعل أبرز العادات الاجتماعية التي ارتبطت بتنشئة الأطفال وخاصة البنات منهم ظاهرة الوأد. وهي من العادات والتقاليد التي شهدها المجتمع العربي قبل الإسلام.عرفت المصادر اللغوية الوأد بأنه دفن البنت وهي حية[4]

---

(١) أبو عبيدة، النقائض، ٢ / ٦٩٧؛ المبرد، الكامل ٢ / ٨٤؛ الطبري، تفسيره ١٥ / ٧٨، ٣٠ / ٧١ - ٧٢؛ الزمخشري، المصدر نفسه ٤/٢٤٣؛ النسفي، تفسيره المسمى (بمدارك التنزيل وحقائق التأويل)، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ ٢/ ٣٤٦؛ النويري، المصدر السابق ٣ / ١٢٦- ١٢٧؛ الشاطبي، الاعتصام ٢/ ١٨١.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ١ / ١٨٦، ٤ / ٤٧؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق ٣ / ٤٨٢؛ الراغب الأصفهاني، المحاضرات ١ / ٣٢٥؛ الميداني، المصدر السابق ١ / ٦٤، الفخر الرازي، المصدر السابق ٧ / ٤٣٥؛ الزمخشري، تفسيره ٤ / ٢٤٣.

(٣) الجاحظ، م. ن، ٤ / ٤٧، والقسم برب الكعبة هو نوع من الحلف عند العرب قبل الإسلام وكانوا يقسمون أيضاً بالله وبرب البيت والحجر، وبأوثانهم، وقد صنف (النجيرمي) كتاباً سماه (أيمان العرب في الجاهلية) أورد فيه الصيغ التي كانت العرب تختارها للحلف بها، للمزيد، راجعه من ص ٤ - ٣٢.

(٤) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٤٩٠؛ ابن منظور، المصدر السابق، ٢ / ٤٤٢، (وأد)، الفيروز =

.وفي حديث العزل: - (ذلك الوأد الخفي)[١] وفي حديث آخر (تلك المؤودة الصغرى)[٢] وروى قولهﷺ: - (الوئيدة في الجنة)[٣] . ونقل (الزبيدي) قول (ابن سيدة): - أن العرب ربما كنو بالصهر[*] عن القبر لأنه كانوا يئدون البنات فيدفنونهن فيقولون (زوجناهن القبر)[٤] . وقد وردت في أقوالهم ما يستفاد منه مدحهم لهذا العادة من ذلك قولهم (عورت سترت بقبر)[٥] ونعم الصهر القبر[٦] . (ودفن البنات من المكرمات)[٧] .

وقد بين الإسلام العادات والقيم الذميمة وسوء عاقبتها حيث قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه (وإذا المؤودة سئلت (٨) بأي ذنب قتلت (٩))[٨] . فالعادة: الوأد، وفاعل العمل: الوائد، والبنات المدفونة وهي حية: - المؤودة.

إن الوأد لم يكن وباء عاماً عند العرب جميعاً وقد أثبتت المعلومات التاريخية أن هنالك عدداً قليلاً من بطون بعض القبائل هي التي يسود فيها الوأد[٩] . فقد جاء في تفسير الثعالبي عند حديثه عن الوأد أنه (كان جمهور

= آبادي، المصدر السابق ١ / ٣٥٥؛ الزبيدي، تاج العروس، ط صادر ٢ / ٥٢٠.

(١) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ٢ / ١٠٦٧؛ ابن قيم الجوزية، تحفة المودود، ص ١٨٦؛ ابن كثير تفسيره ٤ / ٤٧٧؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ٣ / ٥٣.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث ٤ / ١٨٩؛ ابن منظور، المصدر السابق، ٢ / ٤٤٣، (وأد)؛ الزبيدي، المصدر السابق ط صادر ٢ / ٥٢٠، الألوسي، بلوغ الأرب ٣ / ٥٣.

(٣) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث ٤ / ١٨٩؛ ابن منظور، المصدر السابق، ٢ / ٤٤٣، (وأد)؛ ابن كثير، تفسيره ٤ / ٤٧٧ (ورد في المصدر الأخير بلفظ (المؤودة في الجنة).

(٤) تاج العروس، ط الكويت ١٢ / ٣٦٧؛ المقدسي، اللطائف والضرائف، ص ٧٠.

(٥) ابن عبد ربه، المصدر السابق ٣ / ١٩٦؛ زهير حطب، المصدر السابق، ص ١٩٣.

(٦) ابن عبد ربه، المصدر السابق ٣ / ١٩٦.

(٧) الميداني، المصدر السابق ١/ ١٣٤؛ المقدسي، اللطائف والضرائف، ص٧٠؛ ولكن، المصدر السابق، ص ٤٩.

(٨) سورة التكوير / ٨ - ٩.

(٩) يحيى الجبوري، الجاهلية، ص ٧٤.

العرب لا يفعله)[1] . وهي نقاط في بحر واسع ونفهم من ذلك من قولهم أنها كانت عند واحد ومتروكة عند عشرة[2] كتميم[3] وخزاعة وكنانة[4] وبني أسد[5] وقيس وهذيل وبكر وقريش[6] . ولو كان العرب جميعاً ينفذونه لما وصلت لنا أخبار عن نساء عظيمات في المجتمع العربي ولا كان العرب في هذا العدد عندما نهضوا بالدعوة الإسلامية، علماً أنه لم يكن العرب وحدهم الذين كانوا يعرفون وأد البنات بل كانت العديد من الشعوب تمارسه[7] .

إن ظاهرة الوأد كانت محدودة وقد قوبلت باستنكار عقلاء العرب[8] منهم (عبد المطلب) جد الرسول محمدﷺ وهو من حكماء قريش، وتؤثر عنه سنن أقرها الإسلام ومنها النهي عن قتل المؤودة[9] ناهيك بمن اشتهر منهم بفداء المؤودات أمثال (صعصعة بن ناجية بن عقال)[10] جد (الفرزدق) الشاعر، الذي قال فيه مفتخراً: -

---

(١) الثعالبي، تفسيره، المسمى (بجواهر الحسان في تفسير القرآن) ١ / ٥٦٢.

(٢) الآلوسي، بلوغ الأرب ٣ / ٤٢.

(٣) جرجي زيدان، تاريخ التمدن ٥ / ٦٤.

(٤) جواد علي، المفصل ٥ / ٩١؛ علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص ١١٩.

(٥) مهدي عريبي حسين الدخيلي، بنو أسد، ص ١٧٥.

(٦) عبد العزيز سالم، المصدر السابق ص ٤٤٩؛ جواد علي، المفصل، ٥ / ٩١.

(٧) علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص ١٢٢؛ عاطف وصفي، المصدر السابق، ص ٢٧، ٢٩؛ انجلس، أصل العائلة، ص ١٣.

N0ldeke, Arabs Ancient, Encyclopedia of Religion, vol. 1. p. 669.

(٨) رشيد الجميلي، المصدر السابق، ص ٢١٤؛ خليل إبراهيم السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، ص ١٧؛ هاشم يونس عبد الرحمن؛ الحياة الفكرية في الجزيرة العربية قبيل الإسلام وعصر الرسالة، ص ٥٨.

(٩) ابن حبيب، المحبر، ص ١٣٢؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ١ / ٣٢٣ وما بعدها؛ جواد علي، المفصل ٥ / ٦٤٩.

(١٠) ابن حبيب، المصدر نفسه، ص ١٤١؛ النويري، المصدر السابق ٣ / ١٢٧؛ الابشيهي، المصدر السابق ٢ / ٣٢٣؛ الحلبي، السيرة الحلبية ١ / ٧٤.

ومـــنـــا الـــذي مـــنـــع الـــوائـــدا ت وأحـيـا الـوئـيـد فـلـم يـؤاد[١]

وقد عد ذلك من مفاخر قومه[٢] ، ومنهم (المنسم) رجل من بني أسد كان قد ضمن لهم رزق كل بنت تولد فيهم[٣] ، وعرف كذلك (زيد بن عمرو بن نفيل)[٤] . وقيل أن اشهر مكان كانت قريش تئد فيه هو جبل أبي دلامة[٥] .

وثمة أمران أود الإشارة إليهما في سياق بحثنا لقضية الوأد هما : -

الأول: - عدم ذكر الوأد في الوصايا (*) العربية.

إن بين أيدينا العديد من الوصايا التي تروى عن رجال كثيرين ولعل أشهرها ما ذكره صاحب كتاب (المعمرون والوصايا)[٦] وما حفل به كتاب (تاريخ الأصمعي)[٧] إضافة إلى ما نقلته كتب التاريخ والأدب[٨] ألا أننا لم نجد أحداً من الموصين أوصى ابنه أو أقاربه باستهجان البنات و وأدهن بل

---

(١) الفرزدق، ديوانه، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٧٣؛ ابن حبيب، المحبر، ص ١٤١؛ القرطبي، الجامع في أحكام القرآن، ١٠ / ١١٧ ورد فيه بلفظ (وعمي) بدل (ومنا)؛ النويري، المصدر السابق ٣ / ١٢٧ ورد فيه بلفظ (وجدي).

(٢) محمود غناوي الزهيري، المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٣) الزبيدي، تاج العروس، ط صادر ٩ / ٧٥، مهدي عربي حسين الدخيلي، بنو أسد، ص ١٧٥.

(٤) ابن حبيب، المحبر، ص ١٧١؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري ٧ / ١١٠؛ الحلبي، السيرة الحلبية ١ / ٦٧، ٧٣.

(٥) الابشيهي، المصدر السابق، ٢ / ٣٢٣؛ علي عبد الواحد وافي، غرائب النظم ١ / ٩٤.

(٦) السجستاني، ص ١٤ وما بعدها.

(٧) الأصمعي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٥ وما بعدها.

(٨) للتفصيل راجع، وهب بن منبه، التيجان، ص ١٤٧؛ الجاحظ، البيان والتبيين ١ / ٥٣ - ٥٤، ٢ / ٧٤، ٧٩ - ٨٠، ١٧٩؛ الوشاء، الفاضل ١ / ١٩١؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق ٣ / ١٥٢ وما بعدها؛ ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه القرآن، ص ٣٠٧؛ الزجاجي، الأمالي، ص ٢٩؛ الأصفهاني، الأغاني، ط دار الكتب المصرية ١١ / ٥٩؛ القالي، الأمالي ١ / ١٠٢؛ نشوان الحميري، ملوك حمير (قصيدة النشوانية)، ص ٣ وما بعدها؛ ابن أبي الحديد، المصدر السابق ١٧ / ١٢٣ - ١٢٤.

نراهم قد تعاطفوا مع المؤودة وأحسوا بما كانت تعاني منه حتى ضربوا بها الأمثال فقالوا (أضعف من موؤدة)[1] إضافة إلى اشتهار بعض رجالهم بفداء المؤودات كما بيناه سابقاً.

الثاني: - عدم ذكر الوأد في النقوش العربية الجنوبية.

لم يرد ذكر للوأد في النقوش العربية الجنوبية وهذا يعني أنهم لم يمارسوه، وبنينا استنتاجنا هذا على أربع ملاحظات: -

أ - عند مراجعتنا المعجم السبئي[2] لم نعثر فيه على كلمة (وئد) وهذا يدل على أنهم لم يكونوا يمارسون مثل تلك الظاهرة، ولو كان معروفاً وشائعاً لديهم لذكروه في نقوشهم لا سيما إن مثل هذه القضية لا يمكن تجاهلها أو غض الطرف عنها، لما لها من أثر مباشر في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية، هذه من جهة ومن جهة أخرى إن معظم النقوش التي وصلت إلينا كانت ذات صفة دينية حيث كانت تتحدث وبشكل جلي وواضح عن قيام أهل اليمن بتقديم النذور والقرابين للإله من الحيوانات والتماثيل[3]، وحتى من المحاصيل الزراعية فقد كانوا يجعلون من ذلك جزءاً لها[4] وإن آيات نزلت في ذلك[5] بقوله تعالى ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا

---

(١) الزمخشري، المستقصى ١ / ٢١٧.

(٢) Bestin, SABIC Dictionary, p. 1 - 173.

(٣) ديتلف نيلسون وآخرون، التاريخ العربي القديم ص ٢٩ وما بعدها؛ زيدون علي عنان، تاريخ حضارة اليمن القديم، ص؛ مطهر علي الارياني، نقوش مسندية، ص ١٥١، ١٦١، ١٩١، ٤٦٢؛ خليل يحيى نامي، نقوش خربة معين، ص ٥ - ٦ (نقش رقم ٥)، ص ٢٩ (نقش رقم ١٩)؛ وللمؤلف نفسه، نقوش عربية جنوبية، المجموعة الثانية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ١٦، ج ٢، ١٩٥٤، ص ٣٤، ٣٧، ٤١ وكذلك نقوش خربة براقش المجموعة الثالثة مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ١٨، ج ٢، ١٩٥٦، ص ١٦ (نقش رقم ٩٦)، ص ٢٠ (نقش رقم ١٠٣).

(٤) شاكر مجيد كاظم، قبيلة خولان بن عمرو، رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الطابعة، البصرة، ١٩٩٧، ص ٣٢١ وما بعدها.

(٥) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٤٣؛ ابن هشام، السيرة، ط مصطفى البابي الحلبي، مصر ١ / ٨٠؛ الفخر الرازي، تفسيره ٤ / ٢٢٩؛ ابن كثير تفسيره ٢ / ٢٢٩، ياقوت معجم البلدان ٤ / ١٥٨ - ١٥٩.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(١). فلو كانوا يمارسون الوأد سواء لأسباب دينية أو لغيرها لوجدنا له آثاراً في كتاباتهم المسندية شأنه في ذلك شأن باقي القرابين والنذور والأعمال الأخرى التي دونوها في النقوش، كما أن (جواد علي) عندما تعرض إلى (نقد كتاب المعجم السبئي) وثبت عليه العديد من الملاحظات لم يذكر أن كلمة (وئد) كانت من الكلمات التي أهملها المعجم، أو فسرها بشكل مغاير كما ذكر ذلك بخصوص كلمات وردت فيه، بل حتى لفظة (وئد) لم يذكرها أصلاً بمقالته دلالة على عدم وجودها في النقوش وإلا لكان من أوائل الذين تحدثوا عن ذلك وهو الخبير بنقوش اليمن وتاريخه القديم(٢).

ب - قام العديد من الباحثين والمهتمين بدراسة النقوش العربية الجنوبية والتنقيب عن آثار المنطقة ودراسة التاريخ القديم لها(٣) فلم ترد في تلك الدراسات أية إشارة إلى ممارسة عرب الجنوب للوأد وقد نشر العديد من تلك النقوش(٤) وأشار إلى بعض منها (Ryckmans) في كتابة الذي صدر

---

(١) القرآن الكريم، سورة الأنعام / ١٣٦.

(٢) جواد علي، نقد كتاب المعجم السبئي، مجلة المجتمع العراقي، مجلد ١٨، ج ٢- ٣، ١٩٨٧، ٣٨٥ - ٣٩٧.

(٣) Noldeke, TG. Arabs Ancient, Vol. 1, pp. 659 - 673, Grohmann, Adolf, KhAwLAN, the Encyclopedia of Islam, London, vol2. 1927. pp.932 - 933; Abdallah, yusuf, Diepersonen namen in Al - Hamadn is Al - Iklil, p. 3 ff; Jacqueline, pirenne: Recently Discovered inscriptions and Archaeology As Sources for south - Arabian kingdoms, pp. 45 - 54

(البحث الأخير منشور ضمن كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، القسم الإنكليزي، ط ١، الرياض، ١٩٧٩)؛ بيغوليفسكيا، من تاريخ اليمن في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ص ١٣ - ١٨ذ.

(٤) أنظر مجموعة النقوش التي أصدرتها أكاديمية الكتابات الأثرية والأدب في باريس عام ١٨٦٩ والتي يرمز لها بـ Corpus inscriptionum semiticarum AB academia inscriptionum Et =

في عام ١٩٥١[١] . وندعم رأينا هذا بما ذكره (محمد عبد القادر بافقيه) عندما قال: - (وليس هنالك في النقوش ما يدل على تقديم قرابين من البشر)[٢] .

جـ - ذكر ابن حبيب في أثناء حديثة عن العقائد الدينية السائدة عن العرب قبل الإسلام أن هنالك قبائل (كانوا لا يئدون بناتهم)[٣] منها ((قبائل الطلس[*] وهم من أهل اليمن وحضرموت)). وهذا يؤكد صحة استنتاجاتنا بأن عرب الجنوب لم يعرفوا الوأد أولاً، وكما يدعم الرأي الذي ذكرناه سابقاً بأن الوأد لم يكن معروفاً عند جميع العرب ثانياً.

د - أن مؤرخي اليمن القدامى لم يذكروا في مؤلفاتهم أن الوأد كان معروفاً لديهم، أو أن بعض من بطون قبائلهم قد مارسته، فهذا لسان اليمن ومؤرخها (الهمداني) لم يشر إليه في موسوعته العلمية (الإكليل) بأجزائه الأربعة التي وصلت إلينا [٤] ولا في مؤلفاته الأخرى (كالمشتبه)[٥] و (صفة جزيرة العرب)[٦] علماً أن الناس عيال على ما كتبه (الهمداني) عن تاريخ اليمن القديم

= Litterarum Humaniorum (CIH) Conditum Atque Digestum Paris, 1889, Vol, pp1 - 458, Vol pp1 - 390, Vol pp1 - 376. ومجموعة النقوش السامية المعروفة اختصاراً لـ (RES)!

ومجموعة النقوش التي جمعها الرحالة (إدور كلاسر) النمساوي التي يرمز لها بـ .(GL)

JAMME, A. Sabean inscriptions from mahram Bilqis (Marib), Baltimore, 1962.

وأورد (ديتلف نيلسون) العديد من النقوش في كتابه (التاريخ العربي القديم)، ص ١، وما بعدها.

(١) Linstition Monar chigne Arab Meridionale avant Islam, Louvin, 1951.

(٢) تاريخ اليمن القديم، ص ٢١٥.

(٣) ابن حبيب، المحبر، ص ١٧٩ وأنظر كذلك ص ١٨١.

(٤) الإكليل، ج ١ / ٣ - ٤٢٢؛ ٢ / ١٩ - ٤١٢، ٨ / ٥ - ٣٣١، ١٠ / ٢٥٦ - ١.

(٥) المشتبه، تحقيق لوفكرين، ص ١٥ - ٥٤.

(٦) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي، ط دار الحرية، بغداد، ص ٣٩ - ٤٠٤.

ولم نعثر على ذلك أيضاً في مؤلفات (نشوان الحميري)[1] ، ولا عند (ابن المجاور)[2] ، ويشاطرها في هذا المفسرون المسلمون الذين تحدثوا عن الوأد وذكروا أسماء بطون القبائل التي تمارسه ألا أنهم لم يذكروا ضمنها أسماء قبائل عرب الجنوب[3] .

أسباب الوأد

هنالك أسباب عديدة للوأد، يمكن توضيحها بالشكل الآتي: -

أرجع بعض الباحثين الوأد إلى عوامل دينية وهي تقديم قرابين للآلة[4] . كإظهار للشكر على النعم. فقد ذكر أن (المنذر بن ماء السماء) ملك الحيرة، قدم أربعمائة فتاة قرباناً للآلة (العزى)[5] ونقل (الطبري) ما رواه (عكرمة) أن الآية الكريمة (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم)[6] نزلت فيمن يئد البنات من العرب[7] وليس معنى هذا أن الوأد كان قاصراً على البنات فقط بل الذكور أيضاً[8] ويتبين أثر العامل الديني ما جاء في القرآن الكريم

---

(١) ملوك حمير، (القصيدة النشوانية)، ص ١ - ١٨٧، وكتابه الآخر شمس العلوم، تحقيق وسترسن ط ١، ق ١، ص ١ - ٢٧٥، ج ١، ق ٢، ص ٢٧٦ - ٣٨١.

(٢) صفة بلاد اليمن، ص ١ - ٣٠١.

(٣) الطبري، تفسيره ٨ / ٥١، الزمخشري، تفسيره ٢ / ٧٢، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ١١٦ - ١١٧، الآلوسي، روح المعاني، ٤ / ٣٩٣.

(٤) الزمخشري، تفسيره ٢٠ / ٦٩ - ٧٠؛ خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة، ص ٢٥؛ فريزر، أدونيس، ص ١٣٢.

(٥) نولدكه، أمراء غسان ص ١٨، وورد في هذا المصدر عن تقديم (ابن الحارث بن جلبة) ملك الغساسنة قرباناً لها؛ بيغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة، ص ١٠١؛ منذر عبد الكريم البكر، معجم الإلهة، ص ٣٣٠.

(٦) القرآن الكريم، سورة الأنعام / ١٤٠.

(٧) الطبري، تفسيره، ٨ / ٥١.

(٨) القرطبي، الجامع ٧ / ٩١؛ الشاطبي، المصدر السابق ١ / ١٧٥؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ٣ / ٤٤؛ عبد العزيز السالم، المصدر السابق، ص ٤٥١؛ علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص ١١٩؛ مصطفى عبد اللطيف جياووك، الحياة والموت، ص ٤١؛ ناجي معروف، أصالة الحضارة، ص ٤٧١.

عن إقدام (إبراهيم) عليه السلام على ذبح ابنه (إسماعيل)[١] ، ومثله نذر (عبد المطلب) في قصة فداء (عبد الله) والد النبي محمدﷺ المعروفة[٢] ، وقد أشار الرسولﷺ إلى تلك الأحداث بقوله: - (أنا ابن الذبيحين)[٣] يعني أباه (عبد الله) وجده (إسماعيل) عليه الصلاة والسلام[٤] . إلا أن قتل الأولاد الذكور عندهم كان أقل انتشاراً من وئد البنات (باعتبار أن الولد عنصر مهم في السلم والحرب وأقدر على الكسب من الأنثى ثم أن وقوعه في الأسر لا يجلب العار إلى أهله)[٥] وأرجع أحد الباحثين قتل الذكور إلى عوامل تتعلق بصحة المولود كأن يكون ضعيفاً أو مشوهاً[٦] .

ومما هو جدير بالذكر أن وأد البنات وقتل الذكور لم ينفرد به العرب بل كان معروفاً وسائداً عند أقوام آخرين كالفراعنة واليونان والرومان[٧] .

وقال الطبري أن العرب قبل الإسلام كانت تحلف باللات والعزى وما

---

(١) القرآن الكريم، سورة الصافات / ١٠١ - ١٠٧؛ الطبري، تفسيره، ٢٣ / ٨١ - ٨٢؛ الابشيهي، المستطرف ٢ / ٣١٣، وأنظر كذلك: -

Princeton, N. J. and S. M. Zewemer. Behold the Lamp of God, periodical the moslem world. Vol. XXIV, No 4, New York, 1934, p. 327.

(٢) ابن إسحاق، السير والمغازي، ص ٣٢ - ٤١؛ ابن هشام، السيرة ط مصطفى الباي الحلبي، ١ / ١٥٠ - ١٥٥، ١٦٠ - ١٦٤؛ الازرقي، المصدر السابق ٢/ ٤٣ - ٤٩؛ الطبري؛ التاريخ ٢ /٢٣٩ - ٢٤٣؛ السهيلي، الروض الأنف ١/ ١٠٣؛ القرطبي، تفسيره ٧٥/ ٩١؛ ص ٢٩٦- ٢٩٧؛ الماوردي،أعلام النبوة، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٣) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٧٥؛ الحلبي السيرة الحلبية ١ / ٥٩؛ الآلوسي، بلوغ الإرب ٣ / ٤٧؛ علي عبد الواحد وافي، غرائب النظم ١ / ٩٤؛ وكتابه الآخر الأسرة والمجتمع، ص ١٢٣.

(٤) البيروني، المصدر نفسه، ص ٢٧٥.

(٥) رشيد الجميلي، المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٦) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ٥ / ٢٩٨.

(٧) علي عبد الواحد وافي، غرائب النظم ١ / ٨٣؛ صالح أحمد العلي، المحاضرات، ص ١٣٩.

يضحى عليها من الضحايا والقرابين إذ ورد في ذلك شعراً نسبه إلى (عمرو بن عبد الجن)[1] .

وقال علماء التفسير أن قسماً من الذين كانوا يئدون بناتهم كانوا يقولون أن الملائكة بنات الله فالحقوا البنات به فهو أحق بهن[2] وإلى هؤلاء يشير سبحانه وتعالى بقوله (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون)[3] وكان واحد من الأسئلة التي وجهها (نافع بن الأزرق) إلى (عبد الله بن العباس) معنى قوله تعالى (تلك إذاً قسمة ضيزى)[4] قال قسمة جائرة حين وصفوا لله البنات[5] في حين قدم (علي عبد الواحد وافي) تعليلاً آخر لوأد البنات حيث قال: - أن الذين يئدون بناتهم كانوا يعتقدون أن البنات رجس من خلق الشيطان أو من خلق إله غير ألهتهم وأن مخلوقاً هذا شأنه ينبغي التخلص منه[6] .

والبعض الآخر كانوا يبررونه بخشيتهم على سمعتهم من العار[7] الذي يلحق بهم إذا ما وقعت المرأة في الأسر[8] وأسر النساء معرة في نظرهم

---

(١) الطبري، تاريخه ١ / ٦٢٢ جاء فيه قوله: -

أما ودماء مائرات تخالها على قلة العزى أو النسر عندما.

(٢) الزمخشري، الكشاف ٤ / ٧٠٨؛ القرطبي، المصدر السابق ١٩ / ٢٣٠؛ وأنظر كذلك الطوسي، التبيان ٦ / ٣٩٣؛ الخازن، تفسيره ٣ / ٢٨.

(٣) القرآن الكريم، سورة النحل / ٥٧.

(٤) القرآن الكريم، سورة النجم / ٢٢. وضيزى بمعنى ناقصة، أنظر الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥١٣.

(٥) سؤالات نافع بن الأزرق، ص ٤٧.

(٦) غرائب النظم ١ / ٩٩؛ وكتابه الآخر الأسرة والمجتمع، ص ١٢٠.

(٧) الطبري تفسيره ٨٥ / ٥١؛ الزمخشري، الكشاف، ٢ / ٧٢؛ القرطبي، تفسيره، المصدر السابق، ١٠ / ١١٧، ١٩ / ٢٣٠؛ النويري، المصدر السابق ٣ / ١٢٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى ١ / ٤٠٤؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ٣ / ١٢٧، ولكن، المصدر السابق، ٤٩؛ بندلي جوزي، المصدر السابق، ص ١٧١.

(٨) المبرّد، المصدر السابق ٢ / ٨٢ - ٨٤؛ الثعالبي، تفسيره، طبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت، بدون تاريخ، ١ / ٥٦٢.

ولذا فأن هؤلاء وأدوا البنات تخلصاً مما قد يلاقيه من مسؤوليات[١] .

وقدم لنا طائفة من المؤرخين سبباً آخر للوأد هو الخوف على البنات أن يتزوجن بغير الأكفاء[٢] في حين ذكر بعض الباحثين أن أسباب الوأد تعود إلى الصفات في المؤدة كقتل من يولد ضعيفاً أو مشوهاً[٣] . وأورد صاحب الروض الأنف[٤] إن بعضهم كان يئد نوعاً من الإناث وهن: - الزرقاء، والشيماء، والكسحاء، والبرشاء[*]، ويتفق معه في ذلك الحلبي[٥] ، وهي من الصفات التي يتشائم منها العرب[٦] ، وأرجح أن سبب هذا التشائم يعود إلى خشية اليأس من تزويجهن.

وأرجعت طائفة أخرى الوأد إلى أسباب اقتصادية خشية الفقر والجوع[٧] وعدم القدرة على تربية الأولاد[٨] . وقد أيد القرآن الكريم هذا الرأي في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾[٩] وذكر أن بعضهم كانوا يئدون لأنهم عاجزون عن الإنفاق عليهم

---

(١) صالح أحمد العلي، المحاضرات، ص ١٣٧.

(٢) الزبير بن بكار، الموفقيات، ص ٦٣٠؛ ابن أبي الحديد، المصدر السابق ١٣ / ١٧٧؛ القرطبي، تفسيره، ١٠ / ١١٧؛ ابن حجر، الإصابة ٣ / ٢٤٣.

(٣) عبد العزيز السالم، المصدر السابق، ص ٤٥١؛ علي الهاشمي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٢٦.

(٤) السهيلي ١ / ١٤٨.

(٥) السيرة الحلبية ١ / ٧٣.

(٦) الآلوسي، بلوغ الأرب ٣ / ٤٣.

(٧) المبرد، المصدر السابق، ٢ / ٨٢؛ الطبري، تفسيره ٨ / ٥١، الثعالبي، تفسيره، ط مؤسسة الأعلمي ١ / ٥٦٢؛ الزمخشري، تفسيره، ٢ / ٧٢، ٢ / ٦١٣؛ القرطبي، تفسيره، ١٠ / ١١٧، ١٩ / ٢٣٠؛ النويري، المصدر السابق ٣ / ١٢٦ - ١٢٧؛ محمد مصطفى، الفهرس الموضوعي لآيات القرآن، ص ٣٥٤؛ حسن عون، صورة ملهمة، ص ٧٤.

(٨) وافي، غرائب النظم ١ / ٩٥؛ ولكن، المصدر السابق، ص ٤٩.

(٩) القرآن الكريم، سورة الإسراء / ٣١، والإملاق: - الافتقار، أنظر الراغب الأصفهاني مفردات ألفاظ القرآن، ص ٨١٩.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم)[١] ، ولهذا قدم الله رزق الآباء على رزق الأبناء في مقام توقع الفقر والخشية منه في المستقبل، وقدم الأبناء على رزق الآباء في مقام الفقر الواقع الحادث[٢] . ورب سائل يسأل: - هل الوأد كان عند الفقراء فقط؟ يعتقد أن الفقراء والأغنياء كانوا يضحون بأبنائهم على حد سواء[٣] فالفقراء لترضى عنهم ألهتهم وتمنحهم المال، والأغنياء لتبارك فيما يملكون وتزيد فيه[٤] .

أما سن الوأد الذي كان العرب يئدون بناتهم فيه فهنالك اضطراب كبير في الروايات بشأنه، فتارة تذكر أن البنت توئد حين ولادتها[٥] وتارة تقول عندما تبلغ الثالثة من عمرها[٦] ونجد رواية تخالف هاتين الروايتين مخالفة تامة حيث تذكر أنها توأد عندما تبلغ السادسة من عمرها[٧] ونحن لا نميل إلى الرأيين الأخيرين ونرى أن إمهال البنت حتى تكبر ثم وأدها أمر قد يكون قليل الاحتمال وأرجح الرأي الأول القائل بأن الوأد يكون حين الولادة وهو الأعم والأشمل.

ولا شك أن الوأد كان حقبة مظلمة في تاريخ تنشئة الأطفال عند العرب قبل الإسلام وبالرغم من أن الوأد عادة منكرة ولكن شظف الحياة وقسوتها

---

(١)) القرآن الكريم، سورة الأنعام / ١٥١.

(٢) الآلوسي، روح المعاني ٨ / ٥٤.

(٣) الطيب تزيني، المصدر السابق، ص ١٤٩.

(٤) مصطفى عبد اللطيف جياووك، الحياة والموت في الشعر الجاهلي، ص ٤١.

(٥) الزمخشري، الكشاف ٤ / ٧٠٨؛ القرطبي، تفسيره، ١٩ / ٢٣١؛ الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٢ / ٥٢٠؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ٣ / ٤٣؛ وأنظر بهذا الشأن ما ذكره ولكن، المصدر السابق، ص ٤٩.

(٦) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٢ / ٥٢٠.

(٧) الزمخشري، الكشاف ٤ / ٧٠٨؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ٣ / ٤٣.

والبيئة الشحيحة، وندرة الأمطار وقلة الزراعة دفعت إليه[١] وكما ذكرنا سابقاً أن الوأد لم يكن عاماً عند العرب بل كان عند قسم منهم، وحتى هؤلاء لم يفش الوأد في أفرادها جميعاً، وقد ساد في تاريخ البشرية فترات كان الأطفال يرمون بالخارج بسبب العوز والفقر أو لأسباب اجتماعية[٢] ، والفينيقيون يضحون بالأطفال (لمولوخ) إله النار[٣] أما اليونان والرومان[٤] والعبرانيون[٥] وغيرهم فكانوا أقسى على أبنائهم من العرب الذين لم يكن الوأد عندهم حجة على ضعة المرأة سوف نلمح بطرف إلى مكانتها وأهميتها ودورها عند العرب قبل الإسلام.

إن اهتمام العرب بالذكور بوصفهم عماد المجتمع لا يعني أن البنات لم يكن يحظين باهتمام المجتمع بل كان معظم العرب يقدرون بناتهم[٦] وإن ما برز من مظاهر سلبية كالوأد فهي مظاهر محدودة، فمن الحقائق التاريخية أن المرأة العربية لم تترك من مجالات الحياة إلا قد ولجته ونافست الرجل فيه بشكل وبآخر سواء في السلم أو الحرب حتى النبوة ادعتها[٧] وقد جاء (إن النساء شقائق الأقوام) أي مثل الرجال[٨] ولذا فإن المرأة العربية قبل

---

(١) Nicholson, Reynoold, op. cit. pp 90 - 91.

(٢) للتفصيل راجع، صالح حسين الرويح، العبيد في العراق، رسالة ماجستير، مطبوعة بالآلة الطابعة، بغداد، ١٩٧٦، ص ٧٦.

(٣) جميل بيهم، المرأة في تاريخ، ص ٤٤؛ علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص ١١٨.

(٤) علي عبد الواحد وافي، م. ن، ص ١١٨؛ محمود مصري، المصدر السابق، ص ٤١؛ صالح عبد العزيز، المصدر السابق، ص ٩٧، ١٠٢.

(٥) فريزر، أدونيس، ص ١٣٢ وجاء في هذا المصدر أنهم كانوا يحرقون أطفالهم.

(٦) المقدسي، اللطائف والظرائف، ص ٦٩؛ رشيد الجميلي، المصدر السابق، ص ٢١٢؛ محمد أحمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٧٩ - ٢٨٨.

(٧) كما فعلت (سجاح) التميمية، أنظر خبرها عند البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٠٨؛ الطبري، تاريخ ٣ / ٢٧٣؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٤٨.

(٨) الميداني، المصدر السابق ١ / ٢٩.

الإسلام احتلت منزلة اجتماعية تليق بها[١] .

والعربي لم ينظر إليها على أنها مصدر للحب والجمال والمتعة فحسب[٢] بل أنها مصدر رئيس وإذا ما حلت بأي أرض أحيتها كما قال المرقش الأكبر[٣] .

وسميت العرب بعض ألهتها بأسماء مؤنثة[٤] وعند مراجعتنا لمعجم أسماء الآلهة للمرحوم منذر البكر) الذي ثبت فيه (٢٣٨) أسماً للأصنام والآلهة أن الآلهة التي سميت بأسماء مذكرة كانت (١٩١) والتي سميت بأسماء مؤنثة بلغت (٤٧)[٥] حتى الملائكة كانوا يسمونها تسمية الإناث وهن بنات الله[٦] . ولسنا نريد أن نتطرق إلى مكانة المرأة بصورة عامة لأن ذلك قد يخرجنا من مجال بحثنا ونبتعد عن خطته ولذلك سوف نمس بعض

---

(١) فيليب حتي، المصدر السابق، ١ / ٣٧.

(٢) نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر العربي، ص ٥٢.

(٣) المفضليات، ص ٤٣١ (بيت رقم ٢)؛ المرزوقي، الأزمة، ١٨.

(٤) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٦، ٢٥، ٢٩؛ صالح أحمد العلي، المحاضرات، ص ١٣٩، لقد عكس العرب قبل الإسلام حياتهم الاجتماعية على المظاهر الكونية، أنظر في ذلك: - قصة خطوبة الدبران إلى الثريا وكيف إنها رفضته لأنه كان فقيراً، راجع محمود سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا عند العرب، ٩٨، وعن قابلية العقلية العربية لتوليد الأساطير راجع: محمد عبد المعيد خان، الأساطير والخرافات عند العرب، ص ٢٣ وما بعدها. كما أنهم قد جعلوا لبعض ألهتهم وظائف الزواج والإخصاب والولادة، فقد عرف القدماء الثالوث الكوكبي المقدس وهو عبارة عن عائلة فلكية تتألف من الأب وهو القمر والأم وهي الشمس والابن وهو عشتر، للمزيد من المعلومات راجع كريمر، أساطير العالم القديم، ص ١٠٩؛ الحوت، المصدر نفسه، ص ٩١ - ٩٧؛ فريزر، المصدر السابق، ص ١٦؛ منذر عبد الكريم البكر، دراسة في الميثولوجيا العربية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلد (٨)، ع (٣٠)، الكويت، ١٩٨٨، ص ١٠٩ - ١٢٠؛ جواد مطر رحمة الحمد، الديانة اليمنية، ص ٥٨ - ١٢٥.

(٥) منذر البكر، معجم أسماء الآلهة، ص ٢ - ٥٠، ونود أن نوجه عناية القارئ الكريم إلى حدوث تكرار في طبع المعجم ص ٢٢، مرتين، وإلى عدم انتظام ترقيم تسلسل أسماء الأصنام فيه ابتداءً من ص ٢٠ وما بعدها وذلك بسبب الطباعة.

(٦) سؤالات نافع ابن الازرق، ص ٤٧؛ الزمخشري، الكشاف، ٤ / ٧٠٨؛ القرطبي، تفسيره ١٩ / ٢٣٠.

أدوارها هنا مساً خفيفاً، قال الجاحظ : - إن المرأة أرفع حالاً من الرجل في أمور منها : إنها التي تُخطب، وتراد وتعشق وتطلب وهي التي تفدى وتحمى[١]، ووصف (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة العرب أمام (كسرى) بقوله : - (خيلهم أفضل الخيل، ونسائهم أعف النساء)[٢] ففي هذا تعبير واضح عن الحس القومي الذي كان يشعر به ملك الحيرة تجاه قومه، والإشادة بهم وبخصائصهم التي هي محط فخر وتقدير، كما كانت المرأة مظهراً من مظاهر الاعتزاز فبحديثها تفتتح القصائد، وعند ديارها يستوقف الأصحاب[٣] . والعرب تستسقي بأغاني النساء حين يحتبس المطر[٤] وحينما يخاطبونها وهي ذات زوج يلقبونها بخير الألقاب[٥] ولا أدل على احترامها من مخاطبتها بربة البيت[٦] كدليل على تقدير مكانتها فيه[٧] كما كان الرجل يفتخر بنسبه لأمه كافتخاره بنسبه لأبيه[٨] وللدلالة على مكانة المرأة عند العرب قبل الإسلام أنهم كانوا يتناخون باسمها في القتال وكان يعد من (تقاليد القتال العربية ذلك أن من القبائل من كانت تتخذ شعاراً تتعارف به أثناء القتال وهو غالباً شعار يثير حماس المقاتلين وحميتهم)[٩] . وذكر ابن حبيب أن شعار (عصيمة بن خالد) المنقري

---

(١) حسن السندوبي، وسائل الجاحظ، ط ١، ص ٢٦٩.

(٢) العقد الفريد، ٢ / ٧.

(٣) محمد الخضري بك، المصدر السابق، ١ / ٢٦؛ رسول حمود حسن الدوري، المصدر السابق، ص ٧٨.

(٤) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ص ٦ / ٢٧.

(٥) محمد الخضري بك، المصدر السابق، ١ / ٢٦.

(٦) قال الشاعر:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ... ضمني إليك رحال القوم والقربا

راجع محمد الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ص ١٥٧؛ رشيد الجميلي، المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٧) أحمد صالح العلي، المحاضرات، ص ١٣٧.

(٨) ياقوت، معجم البلدان ٣ / ٤٥٧؛ شاكر مجيد كاظم، قبيلة خولان، ص ١٦.

(٩) مصطفى عبد اللطيف جياووك، المرأة في الجزيرة العربية، ص ١٢٢.

التميمي هو (كوثر) وقد نادى به قومه عندما أجار (عامر بن صعصعة) من (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة[١] . كما تحدث في موضع آخر من كتابه عن شعار كان لغسان وشعار لسليح[٢].

وتتردد في الشعر العربي القديم أعلاماً نسائية معينة مثل (أسماء) في شعر (بكر بن وائل) وأسم (هند) يرد في الشعر الذي يتصل بالمناذرة[٣] . قال (مصطفى عبد اللطيف جياووك) أنه (ما زال بعض عشائر العراق والجزيرة العربية تحتفظ بتقليد الشعار القتالي وهو يعرف بالنخوة وهو عبارة أسم نسائي مسبوق بلفظ الأخوة، ومن هذه النخوات، أخوان موزة، وأخوان سعدة، وأخوان رزنة..... وهذه شعارات تثير نخوة أبناء القبيلة فيهبون إلى نجدة من يناديهم بها)[٤] . وهذا يدل على إن التقاليد والعادات العربية تنتقل من جيل لآخر ولها أثر في تنشئة الأبناء فتثير في نفوسهم الحماسة والأريحية والشهامة.

كما إن المصادر تقدم لنا معلومات عن اشتراك المرأة في القتال لسقي الماء وتضميد الجراح[٥] أو في تحريضها وتشجيعها للمقاتلين كما فعلت نساء بني شيبان يوم ذي قار[٦] ويوم (تلاحق اللمم)[٧] وكما فعلت مذحج

(١) المحبر، ص ٣٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧١.

(٣) مصطفى عبد اللطيف جياووك، المرأة في الجزيرة العربية، ص ١٨٨.

(٤) مصطفى عبد اللطيف جياووك، المصدر نفسه، ص ١٢٤.

(٥) محمد أحمد جاد المولى وآخرون، أيام العرب في الجاهلية، ص ١٦٢ - ١٦٣؛ محمد أحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٢٣٨؛ علي الهاشمي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٧٥ - ٧٦.

(٦) الطبري، تاريخ ٢ / ٢٠٨؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٠٧ - ٢٠٨؛ الميداني، المصدر السابق ١ / ٢٦٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١ / ٢٩٠؛ سعد زغلول، المصدر السابق، ص ٣٠٩.

(٧) كان لبني بكر بن وائل على تغلب وفيه حلقت رجال بني بكر رؤوسها ليكون ذلك علامة لهم تميزهم وأعطوا لكل امرأة منهم هراوة فإذا مرت على جريح منهم عرفته بعلامته فسقته من الماء =

يوم (فيف الريح)[1] ويتجسد ذلك أيضاً عندما أخذت ابنة (الفند الزماني) تحرض الناس على القتال بما ترتجز به من مقاطع شعرية حماسية[2] بل نراها في مواطن أخرى تتولى قيادة قبيلتها كما فعلت (رقاش) التي كانت في (طي) تغزو بهم ويتيمنون برأيها وكانت كاهنة، لها حزم ورأي وكانت عليهم في يوم (رحى جابر) وهو لطي على إياد ولها ينسب المثل القائل (رويد الغزو بنمرق)[3] يضرب في التمكث وانتظار العاقبة، وكذلك عرفت (الزباء) ملكة تدمر بقيادتها للجيوش[4] و (بلقيس) ملكة سبأ[5] وهذه (عمرة بنت علقمة) الحارثية التي تلقت الراية حين سقطت في وطيس موقعة (أحد) ونشرتها وهي تسخر من المقاتلين المترددين فلاذوا بها وقاتلوا[6] وقد هجا (حسان بن ثابت) قريشاً وعيرهم بذلك[7] . كما تقدم لنا سير الملاحم لعرب

= ونعشته وإذا مرت على رجل من تغلب ضربته بالهراوة وأتت عليه، أنظر محمد أحمد جاد المولى، المصدر السابق، ص ١٦٢ - ١٦٣؛ شيخو، المصدر السابق ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(١) كان لمذحج على بني عامر للتفصيل راجع ابن عبد ربه، المصدر السابق ٥ / ٢٣٥ - ٢٣٦، ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص ٤١٨ - ٤١٩؛ سعد عبود سمار، قبائل مذحج، ص ٨٤ - ٨٨، وقد سجل ذلك اليوم (عمرو بن كلثوم) التغلبي في شعره إذ أنشد قائلاً:

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقسم أو تهونا

راجع الزوزني، شرح القصائد السبع، ص ١٨٣.

(٢) عبد العزيز السالم، المصدر، ص ٦٧؛ عز الدين إسماعيل، المصدر السابق، ص ٣٢.

(٣) الضبي، أمثال العرب، ص١٢٠-١٢١؛العسكري جمهرة الأمثال، ١/ ٤٨٣؛ الميداني، المصدر السابق، ١/ ٢٢٨.

(٤) جواد علي، المفصل ٣ / ١١٢ - ١٢٤؛ هاشم الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٨٧؛ ر. ج، الملكات العربية قبل الإسلام، مجلة المشرق، مجلد (٤٢)، بيروت، ١٩٤٨، ص ٢٩١ - ٢٩٣.

(٥) وهب بن منبه، التيجان، ص ١٥٩ - ١٧٩.

(٦) ابن هشام، السيرة، ط بيروت ٣ / ٨٣؛ البلاذري، أنساب الأشراف ١ / ٥٥؛ الطبري، التاريخ ٢ / ٥١٣؛ جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٣٤.

(٧) ديوانه، ص ١٨، حيث يقول: -

لولا لواء الحارثية أصبحوا ... يباعون في الأسواق بيع الجلائب

ما قبل الإسلام صوراً من تلك النساء[1] وقد سمى العرب بعض أيامهم بأسماء بناتهم كيوم (حليمة) الذي ضرب به المثل فقالوا (وما يوم حليمة بسر)[2] وكانت فتيات قريش من الكثرة حتى أن أحد القرشيين كان يسمي بناته بالأرقام الهندية: - الأولى، الثانية[3] ومن مظاهر اعتزاز العرب ببناتهم إنه كان بعضهم يكنى بأسماء بناته فكان (ربيعة بن رياح) والد زهير الشاعر يكنى (بأبي سلمى)[4] ، و (حاتم الطائي): - (بأبي سفانة)[5] و (قيس بن مسعود) الشيباني (بأبي الخنساء)[6] (والنابغة الذبياني) (بأبي إمامة)[7] وغيرهم.

ويمكن أن نبرهن على مكانة المرأة عند العرب وعلو كعبها أنهم لم يجدوا حرجاً من الاحتكام إليها وقبول حكمها لحكم الرجل، ومن خلال

وأنظر كذلك البلاذري، أنساب الأشراف ١ / ٥٥؛ المبرد، نسب عدنان وقحطان / ص ١٣. ورد في المصدرين الأخيرين لفظ (بالثمن الوكس) بدل (بيع الجلائب)، والجلائب جمع جليب وهو ما يجلب من بلد إلى بلد ليباع من عبيد وإماء وحيوان وما شابه، الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر، ١ / ١٨٤. (جلب)

(١) للتفصيل راجع، وفاء علي، المصدر السابق، ص ١٦٧؛ ثريا منقوش، سيف بن ذي يزن، ص ٨٩ - ١٣٤.

(٢) المبرد، المصدر السابق، ٢ / ٢٧٣؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق ٣ / ٩١؛ حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض، ص ٩١؛ الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ١٢ / ٢٢ (سرر)؛ نبيه عاقل، المصدر السابق، ص ١٥٨ وعن تفاصيل هذا اليوم أنظر ابن الأثير، الكامل، ١ / ٣٢٧ - ٣٣٠؛ البغدادي، خزانة الأدب ٢ / ١١؛ نولدكه، المصدر السابق، ص ٤١؛ عبد الله عفيفي، المصدر السابق، ١ / ١٠٣؛ أحمد صالح العلي، المحاضرات، ص ٥٨.

(٣) لامنس، الحلم عند العرب، مجلة المشرق، مجلد ٣٢، بيروت، ١٩٣٤، ص ٤٩٢ هامش ٥.

(٤) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ١ / ٧٩، زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ١٠٢.

(٥) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ٦٥؛ المسعودي، مروج الذهب، ٢ / ١٦٣؛ الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الثقافة، ١٧ / ٢٧٨؛ ابن الأثير، أسد الغابة ٥ / ٤٧٥؛ داود سلوم، شخصيات الأغاني، ص ١٩.

(٦) الأنباري، شرح المفضليات، ص ٦١٢.

(٧) رشيد الجميلي، المصدر السابق، ص ٢١٢.

دراستنا وجدنا العديد من حكيمات العرب مثل (ابنة الخس) و (خصيلة بنت عامر بن الظرب) العدواني، و(صحر بنت لقمان) و (حذام بنت الريان)، ونسبت إليهن أقوال ذكر أن أكثرها صارت مثلاً[1] و (طريفة) كاهنة اليمن و (فاطمة بنت مر) الخثعمية بمكة[2] وقاضية مثل بني (سعد بني هذيم) التي احتكم إليها (عبد المطلب) في قضية زمزم الشهيرة[3] ، واشتهرت (أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب)[4] عمة الرسول محمدﷺ بأنها كانت من نساء قريش المعروفات بالعقل والتدبير، وتقرض الشعر[5] وأما (الخنساء) إلا مثال نير على شاعرية المرأة وبلاغتها[6] ، حتى حضي ذلك بتأليف بعض الكتب[7] .

وعرفت المرأة العربية ناقدة وكان يحتكم إليها في الأمور الأدبية وها هي قصة (امرئ القيس مع زوجته (أم جندب) التي حكمها بينه وبين (علقمة الفحل) أيهما أشعر، فحكمت (لعلقمة) فطلقها (امرؤ القيس)[8] كما

---

(١) القالي الامالي ٢ / ٢٥٦ وما بعدها وللمؤلف نفسه ذيل الامالي، ص ١٠٧، ١١٩؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ١ / ٣٢٨ - ٣٤٤، إحسان النص، الخطابة العربية، ص ١٢، واصف بطرس غالي، تقاليد الفروسية، ص ١٠٧.

(٢) الحلبي، السيرة الحلبية، ١ / ٦٥؛ عز الدين إسماعيل، المصدر السابق، ص ٧٣، جميل بهيم، المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٣) ابن إسحاق، المصدر السابق، ص ٢٤ وما بعدها؛ ابن سعد، المصدر السابق ١ / ٣٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٢ / ٧.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص ٨٢؛ محب الدين الطبري، ذخائر العقبي، ص ٢٥٠.

(٥) زينب أمواز، المصدر السابق، ص ٥٥؛ عمر رضا كحالة، أعلام النساء ١ / ٢٨٢.

(٦) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ١ / ٢٦٠ - ٢٦٤؛ الأصفهاني، الأغاني ط دار الثقافة، ١٥ / ٦٠ وما بعدها؛ عبد الله عفيفي، المصدر السابق، ١ / ١٥١ - ١٥٢، جميل بهيم، المصدر السابق، ص ١٣١.

(٧) للتفصيل راجع ابن طيفور، بلاغات النساء، ص ٣ - ٢٣٤؛ المرزباني، أشعار النساء ص ٢٥ - ٢١٢؛ زينب أمواز، ص ٢ - ٥٥٢.

(٨) شرح ديوزانه علقمة (ضمن كتاب شرح ديوان طرفة وعنترة)، ص ٧ - ٨؛ طه حسين، في الأدب الجاهلي، ص ٢٠٧.

اشتهرت بفطنتها وذكائها وخير مثال على ذلك امرأة (أبي حمزة الضبي) التي أشرنا إليها آنفاً (*) وأما شجاعتها فربما أظهرت في ذلك ما تتحدى به قوة الرجل فيما حكاه (الميداني) عن إعرابية تتمكن من أسر (جندب بن العنبر) (**) بعد أن أراد أن يأسرها أو الاعتداء عليها[1] ، وقد بلغ من علو منزلتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن فقد أجارت (فكيهة بنت قتادة) خالة (طرفة بن العبد (: السليك بن سلكة، وحمته من بكر بن وائل، وقد أثنى على فعلها (السليك) وذكره في شعره[2] ، وأجارت (زينب) بنت رسول اللهﷺ زوجها (أبا العاص) فأطلقه المسلمون من الأسر[3] ، كما أن أم (هاني) أخت الإمام (علي بن أبي طالب) عليه السلام أجارت رجلين أراد أخوها (علي) أن يقتلهما يوم فتح مكة، فأقر الرسول (ص) إجارتها وقال لها قد أجرنا من أجرت[4] .

ولم تكن النساء تقل عن الرجال شجاعة وأريحية ونبلاً فقد ذكر (ابن عبد ربة)[5] ورواها (الأصفهاني)[6] أن (دريد بن الصمة) وقع في أسر بني (فراس) من بني (كنانة) فلما عرفت (ريطة بنت جذل) الطعان، أرملة (ربيعة بن مكدم) سعت إلى قومها بإطلاق سراحه لما له من فضل سابق عليها

(١) أنظر تفاصيل الخبر في مجمع الأمثال، ٢ / ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٢) ابن حبيب، المحبر، ص ٤٣٣؛ دلال جويد تعبان، الأحلاف في الشعر العربي قبل الإسلام، رسالة ماجستير، مطبوعة بالآلة الطابعة، البصرة، ١٩٩٦، ص ٥٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧، ٢ / ٩٤.

(٤) ابن هشام، السيرة، ط دار التراث العربي، بيروت، ٤ / ٥٣ - ٥٤؛ ابن سعد، المصدر السابق ٢ / ٣٢٢، البخاري، الجامع الصحيح (مطبوع بهامش فتح الباري للقسطلاني) ٦ / ١٩٦؛ أبي داود، السنن، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، د. ت ٣ / ٨٤؛ الغزالي حرب، بين الآباء والأبناء، مجلة القافلة، العدد (١١)، مجلد (١٩)، الرياض، ١٩٧١، ص ٢٠.

(٥) العقد الفريد ٥ / ١٧٢ - ١٧٣.

(٦) الأغاني، ط ١، طبعة دار الكتب المصرية ١٦ / ٦٧ - ٦٨.

وعلى زوجها فتم لها ذلك ثم جهزته ولحق بقومه[١] فلم يزل كافا عن غزو بني (فراس) حتى هلك[٢] وقد عد (ابن حبيب) (دريد) بأنه من (أشراف العميان) و (البرص الأشراف)[٣] كما برزت المرأة في النشاط الاقتصادي وممارسة بعض الأعمال والمهن من أمثال (رومي) سيدة نجران التي أقرضت ملك اليمن أثني عشر ألف دينار وكانت تمتلك ثروة طائلة وأراضي ومقاطعات زراعية[٤] ، وكذلك أم المؤمنين (خديجة بنت خويلد)[٥] .

إن تلك الأخبار تدحض آراء الشعوبية [*] بعد أن أدركت أن المرأة العربية محل اعتزاز وإكرام، وموضع تفاخر فعمدت إلى الإساءة إلى سمعتها[٦] فهي كما يزعمون يستولي عليها الرجل (بلا عقد نكاح ولا استبراء من طمث)[٧] وهي مزاعم لا تصمد أمام النقد الموضوعي[٨] .

وهكذا نرى أن المرأة عند العرب قبل الإسلام قد دخلت في شتى

---

(١) كان ذلك في يوم الضعينة - والضعينة المرأة التي تكون في الهودج، ابن دريد، الاشتقاق، ص ١٧٧، حيث تمكن (ربيعة بن مكدم) من قتل ثلاثة من فرسان (دريد بن العمة) حتى انكسر رمحه فلما رأه (دريد) بدون سلاح قال له: - إن (مثلك لا يقتل) ثم أعطاه رمحاً وتركه، للتفصيل راجع، النويري، المصدر السابق ١٥ / ٣٧٠ - ٣٧٢؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ٢ / ١٣٤ - ١٣٧؛ محمد أبو الفضل إبراهيم، قصص العرب ٤ / ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ط ١، المكتبة المصرية ١٦، ٦٥ - ٦٦، ٦٨؛ النويري، المصدر السابق ١٥ / ٣٧٢ ، ٣٧٣.

(٣) المحبر، ص ٢٩٩، ٣٩٨.

(٤) كوبيشانوف، الشمال الشرقي الأفريقي، ص ٣١؛ بيغوليفسكيا، اليمن في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ص ١٥٧.

(٥) ابن هشام، المصدر السابق طبعه مصطفى البابي الحلبي، ١ / ١٨٧ - ١٨٨؛ البلاذري، أنساب الأشراف ١ / ٩٧ - ٩٨.

(٦) عبد الله سلوم السامرائي، الشعوبية حركة مضادة، ص ١٤٦، ١٨٨.

(٧) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٣ / ٤١٢.

(٨) أنظر ابن حبيب، المحبر ص ٣٠٩ وهو يذكر سنن العرب وتقاليدهم كدليل على الرد على تلك المزاعم وغيرها.

ميادين الحياة وإن نجاحها في مزاولة تلك الأعمال يكمن أن يفسر بعاملين أساسيين : -

الأول : - ارتفاع مكانتها وسمعتها الاجتماعية.

الثاني : - حاجة المجتمع إلى خدماتها وأنشطتها خصوصاً في المجتمع المتحضر.

دور الأب

أما بشأن دور الأب في التنشئة الاجتماعية فقد كان يمثل في الأسرة العربية دوراً بارزاً في حياة الطفل، فالأب مسؤول عن تربية أولاده حتى يبلغوا أشدهم وهو مسؤول أيضاً عن رعاية أحفاده بعد ابنه[١] فهو حريص على تنشئة ابنه التنشئة السليمة وتربيته وتعليمه، ومن مظاهر تلك التربية أنه كان (يربي ولده على الحراسة، وقتال الأعداء وطريقة كسب العيش)[٢] . كما كان يحذره من الكسل والهوان والضجر فهو ينشأه على الجد والعمل والكسب والصبر في الحياة ويريد منه أن يكون رجلاً عاملاً يعتمد على نفسه فيقول له : (إياك والكسل، وإياك والضجر فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً وإذا ضجرت لم تصبر على الحق)[٣] .

ولما كان الشعر ديوان العرب[٤] والمرآة العاكسة لقيم المجتمع ومفاهيمه وتقاليده وأعرافه ولما يحتل من مكانة في المجتمع القبلي[٥] لذلك بذل الأب جهوداً مضنية في سبيل تعليم ابنه الشعر ونراه لا يكتفي بذلك فحسب، بل يتابعه شخصياً وبصورة مستمرة ليتعرف بنفسه على ما استطاع

---

(١) جواد علي، المفصل ٥ / ٥٢٨.

(٢) محمود مصري، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ٢ / ٢٥٢.

(٤) الجاحظ، الحيوان ١ / ٥٣؛ ابن رشيق، العمدة ١ / ٣٠.

(٥) ابن رشيق، المصدر نفسه ١ / ٢٩.

الابن من حفظه له، وندعم ما نذكره هنا بما جرى بين (زهير بن أبي سلمى) وابنه (كعب) حيث: - (ركب كعب وأبوه زهير سفينة في بعض الأسفار، فأنشد زهير قصيدته المشهورة " أمن أم أوفى دمنة لم تكلم [*] " وقال لابنه كعب دونك فأحفظها فقال نعم، وأمسيا فلما أصبحا قال له يا كعب ما فعلت العقيلة، يعني القصيدة، قال يا أبي أنها تشمرت مع الجاري، يعني نسيتها، فمرت مع الماء فأعادها عليه فقال: أن شمرتها [**] يا كعب شمرت بك على أثرها) فأصبح قوله مثل تتناقله العرب[1] .

وجاء في أخبار زهير مع ابنه كعباً ما يدل على (الطريقة التي كان يخرج بها الشعراء منذ كان يلقنهم شعره ويرددن عنه وما زالوا يتلقون حتى تتطبع في أنفسهم طريقة نظم الشعر وصوغه وهو في أثناء ذلك يمتحن قدرتهم بما يلقي عليهم من أبيات يطلب إليهم أن يجيزوها بنظم بيت على غرار البيت الذي ينشده في الوزن والقافية)[2] .

ولأن التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة فأن العرب تابعوا رعاية وتربية أبنائهم فعندما أخذ كعب يقول الشعر فأن رعاية أبيه زهير قد استمرت له دون انقطاع وعمل على تنشأة ميوله واستعداداته الشعرية فكان يوجهه حتى تناقل الرواة أنه كان يمنعه من قول الشعر مخافة أن يروى عنه ما لا خير فيه[3] .

كما أن تربية الأب لأبنائه وتعليمهم لم يكن يشمل الذكور فقط فمنهم من عنى بتحفيظ بناته شعره ما بلغن استحقاق التحكيم والاختيار لجيد الكلام فالأعشى مثلاً كان قد علم ابنته وثقفها حتى وصلت إلى مستوى

---

(١) الميداني، مجمع الأمثال، ١ / ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) العصر الجاهلي، ص ٣٠٤ وجاء في هذا المصدر أن الحطيئة كان تلميذ زهير وخريجه.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، ط الثقافة ١٧ / ٣٩.

التحكيم في الشعر[1] كما أنه كان إذا ما قال قصيدة عرضها عليها قائلاً لها: - (عدي المخزيات) فعدت قوله: -

أغــرُ أروع يـسـتـشـفـى الـغـمـام بـه لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا[2]

وحسب فهمنا لهذه العبارة فأن الأعشى كان يسأل ابنته أن توضح له الألفاظ والكلمات الصعبة أو الجمل التي يصعب على الآخرين أن يأتوا بمثلها في شعرهم، فإذا ما ذكروها أو جاءوا بشبيه لها فأنهم يعجزون عن مجاراته أو أن يصلوا إلى ما وصل إليه من القدرة في الصياغة والنظم والتعبير وبالتالي فأنهم يخزون أنفسهم أي يذلونها ويفضحونها [*] بفعلهم هذا لعجزهم وضعفهم وهذا يدل على أنه نشأ ابنته وعلمها ودربها وأهلها لتكون لها القدرة الكبيرة في النقد الأدبي. وقد بلغ الأمر ببعض البنات أن كن يفسرن بعض أبيات آبائهن، من ذلك ما فعلت (أم شريك بنت تميم ابن أبي مقبل)[3] ، فهذا يدل على وجود توجيه من الآباء إلى الأبناء في نشأتهم وهنالك أمثلة عديدة حول ذلك[4] .

وأشارت (سفانة بنت حاتم الطائي) إلى دور أبيها في تنشئتها وما بذله من جهد في تربيتها حتى تمكن من غرس مكارم الأخلاق في نفسها فصارت سجية فيها وجزءاً من سلوكها وشخصيتها حتى اشتهرت بالسخاء والعطاء[5] وفي يوم ضجر أبيها على ما فيه من كرم، فقال لها: - (يا بنية الكريمان، إذا اجتمعا في المال أتلفاه فأما أن أعطي وتمسكي، وأما أن أمسك وتعطي

---

(١) الأصفهاني، الأغاني ١٧ / ٨٣ - ٨٤.

(٢) الأصفهاني، م. ن ط ٢، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ، ١٦ / ٤٣٦.

(٣) البكري، معجم ما استعجم ١ / ١٣١ (مادة اذرع).

(٤) ابن هشام، السيرة ٤ / ٩١، بشأن دريد ابن الصمة، وابنه سلمة، ابن حزم، المصدر السابق، ص ٣٠٤ بشأن (عمرو بن كلثوم) وأبناءه، عبد الله، وعياد، والأسود.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافي ١٧ / ٢٨٠؛ شيخو، المصدر السابق، ص ٩٩.

فأنه لا يبقى على هذا شيء)[1] فقالت له: - (منك تعلمت مكارم الأخلاق)[2] .

فعلى هذه الفضائل أنشأ العرب أبناءهم وعلى هذه الطباع سهروا على تربيتهم حتى غدت تلك المناقب مآثر لهم.

من خلال ما تقدم نستطيع أن نستدل ما يأتي: -

كان للأسرة العربية دور رئيس في عملية التنشئة الاجتماعية وفي نقل التراث العربي من جيل لآخر وهذا يتفق مع الدراسات الحديثة بهذا الشأن[3] .

إن حرص الآباء على تنشئة أبناءهم وتعليمهم، ولما كان الشعر أبرز ملامح ثقافة ذلك العصر فأنهم لم يألوا جهداً في تعليمهم إياه.

إن الشعراء كانوا يحفظون أبناءهم شعرهم ونرجح أنهم كانوا ينشدونها في المجالس والمحافل.

كما أنها تدل على عناية القبائل العربية في رواية شعرائها وهم سجل حافل لتاريخ القبيلة وبطولاتها ومآثرها.

ومن خلال قراءتنا النصوص المتعلقة بموضوع بحثنا وخاصة عن أثر الأب في تنشئة أبنائه نلاحظ أنه كان شديد الحرص على تعليمهم بضرورة التمسك بالقيم والعادات الاجتماعية السائدة في المجتمع وعدم الخروج عنها حتى إن كان الأمر متعلقاً بحياتهم وهذا نلمسه في قضية فداء الأسرى ولا سيما أبناء السادة والأشراف حيث ترتفع قيمة فدائهم عن سواهم فيطمع بهم الناس فيذكر أن (زرارة بن عدس) أوصى بنيه فقال: - (لا توكل العرب

---

(١) الأصفهاني، م. ن. ١٧ / ٢٧٦؛ شيخو، المصدر السابق، ص ٩٩.

(٢) زينب أمواز، الدر المنشور، ص ٢٤٤.

(٣) أحمد عزت راجح، المصدر السابق، ص ٤٤٣.

أنفسكم ولا تزيدوا بفدائكم على فداء رجل من قومكم فيذوب بكم ذؤبان العرب)[١] . أما مقدار فدية الأسير فقد حددها لهم بـ مائتي بعير[٢] ولكن أبناءه لم يلتزموا حرفياً بتلك الوصية بل كانت جزئية [*] ففي يوم (رحرحان [**]) أسر (معبد بن زرارة)، أسره (عامر) و (الطفيل) ابنا (مالك بن جعفر بن كلاب) فوفد (لقيط بن زرارة) في فدائه وعرض عليهما مائتي بعير في فدائه فامتنعا قائلين: - أنت سيد الناس وأخوك (معبد) سيد مضر فلا نقبل فيه إلا دية ملك فأبى أن يزيدهم وقال لهم: - (إن أبانا أوصانا ألا نزيد أحداً في ديته على مائتي بعير) ورحل لقيط عن القوم وبقي (معبد) عندهم حتى هلك[٣] .

لقد كان العربي يرشد ابنه ويعلمه في حله وترحاله فمن المعروف أنهم كانوا يصحبون معهم بعض أبنائهم في رحلاتهم وأسفارهم[٤] وقد ذكرنا أنفاً أن زهير كان يصحب ابنه كعباً في سفرته البحرية. وقسم منهم كان يرافق أباه في رحلات الصيد في البر والبحر[٥] أو السفر مع أقاربه في القوافل

---

(١) أبو عبيدة، الأيام ق ١ / ٥٠٨؛ ورد فيه: - ذؤبان العرب: لصوصهم؛ وكتابه الآخر النقائض ١ / ٢٢٧؛ الأصفهاني، الأغاني، ط ١، طبعة دار الكتب المصرية، ١١ / ١٢٨؛ ابن الأثير، الكامل ٢ / ١٨٠.

(٢) أبو عبيدة النقائض ١/ ٢٢٧؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٥/ ١٤٠؛ النويري، المصدر السابق ١٥/ ٣٥٠.

(٣) أبي عبيدة، الأيام، ق ١ / ٢٢٧ - ٢٢٨، ٣٣٠؛ الأصفهاني، الأغاني، ط دار الكتب ١١ / ١٢٨؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٥ / ١٣٩ - ١٤٠؛ ابن الأثير الكامل، ١ / ٣٤١؛ ياقوت، معجم البلدان، ٣ / ٣٦؛ النويري، المصدر السابق، ١٥ / ٣٥٠؛ المرصفي، رغبة الأمل ٤ / ٢٢٧ - ٢٢٨. وكان دية الملك (١٠٠٠) بعير أنظر: - الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة ١١ / ١٠٥؛ الآلوسي، عقوبات العرب في الجاهلية، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد (٣٥)، ج ٢، ص ٦٠.

وعم هلاك (معبد) راجع أبو عبيدة، الأيام، ق ١ / ٥٠٨؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٥ / ١٤٠؛ ابن رشيق، العمدة، ٢ / ٢٠٩؛ النويري، المصدر السابق، ١٥ / ٣٥٠.

(٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار ٢ / ١٤٢ - ١٤٣؛ عز الدين إسماعيل، المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٥) شريف يوسف، في التقاليد والعادات السومرية، مجلة التراث الشعبي عدد (٥ - ٦) بغداد ١٩٧٦، ص ١٤.

التجارية[1] . ولكن هل كان العربي ينشئ ويعلم ابنه على مستلزمات السفر، زمنه، عدته، معارفه، آدابه؟ وكيف يمكن معالجته للمواقف والأحداث التي قد تنجم أثناء السفر؟ تقدم لنا أخبار العرب شيئاً عن ذلك فقد كانوا في الصحراء يحبذون السفر بالليل[2] لأن السفر في النهار ينذر بأخطار منها شدة الحرارة[3] وتصدي اللصوص[4] لذلك اتخذوا من الليل جملاً حيث لا هادي سوى النجوم قال تعالى: - ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[6] .

وأورد ابن هشام أخباراً تفيد أن الجيش الذي جاء من الشام لإنجاد (قصي بن كلاب) في صراعه مع (خزاعة) كان يسير بالليل ويكمن ويستتر بالنهار[7] . لذلك نجد أن الأب كان يعلم ابنه قائلاً: - (إذا بعدت عليك المنازل فعليك بالدلج)[8] أي: السير ليلاً[9] وكانوا يفضلون السير فيه من منتصفه إلى آخره وحذروا من السير في أوله (وإياك والسير في أول الليل

---

(١) ابن هشام، السيرة، ق ١ / ١٨٠ - ١٨١؛ الحلبي، المصدر السابق، ١ / ١٩٢ - ١٩٩؛ عرفان محمد حمور، المصدر السابق، ص ١٩٧.

(٢) كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي في ١ / ٤١، وكان للإدلاء دور مهم في إرشاد مسافرين إلى غاياتهم مثل (السليك بن سلكة) و (وعلة الجرمي) و (دعميص الرمل) وغيرهم للتفصيل راجع ابن حبيب، المحبر، ص ١٨٩ - ١٩١؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ٢ / ١٧٥؛ المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، ٢ / ٢١٥.

(٣) محمد أحمد حسون، أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، ص ١٠.

(٤) عرفان محمد حمور، المصدر السابق، ص ٦٦.

(٥) القرآن الكريم، سورة النحل / ١٦.

(٦) القرآن الكريم، سورة الأنعام / ٩٧.

(٧) ابن هشام، المصدر السابق، ١ / ١٢٦.

(٨) ابن قتيبة، عيون الأخبار ٢ / ١٣٥.

(٩) المبرد الكامل ١ / ١٠٤، ٣ / ٨٨؛ ابن دريد، الاشتقاق، ص ١٩٥. وأنظر كذلك محمد توفيق البكري، أراجيز العرب، ص ١١٤.

وعليك بالتعريس (*) والدلجة من نصف الليل إلى آخره)[1] أما النهي عن السفر في أول الليل فحسب فهمنا للنص أن مرد ذلك إلى الخوف من اللصوص وقطاع الطرق ومن الحيوانات التي تكون لا زالت غير ساكنة ولا زالت حركتها نشطة، ففي هذا الزمن ينصح المسافر بأخذ قسط من الراحة، ثم يواصل السير بعدها في النصف الثاني من الليل لأن الطريق يكون أكثر أمناً كما أنه شخصياً يكون أكثر نشاطاً وحيوية، كذلك كان يرشده يأخذ معه سلاحه وعدته للدفاع عن نفسه وحمايتها من أخطار الطريق، بعد ذلك ينتقل في وصاياه إليه فيما يخص الجانب الأخلاقي، وما ينبغي أن يتصف به بأنه لا يخالف أصحابه وأن يكون عوناً لهم وتقديم المساعدة إليهم وأن يسمع كلام من هو أكبر منه ليستفيد من رأيه وخبرته وتجربته، وأن يكون كريماً جواداً، ثم يوضح له جانباً لآخر من جوانب آداب السفر وإذا رأيتهم يمشون فأمشي معهم، أو يعملون فأعمل معهم بعد ذلك ينتقل الأب في وصاياه وإرشاداته لأبنه إلى مسألة مهمة تخص المسالك حيث يقول له وإذا تحيرتم بالطريق فانزلوا، وإذا شككتم في القصد فتثبتوا وتآمروا، أي إذا لم يتضح لكم الطريق الصحيح وابتعدتم عن جادة الصواب فعليكم بالتريث وعدم مواصلة السير حتى تتأكدوا من الجهة التي تقصدونها وتعرفوا صواب الطريق الذي تسلكونه[2] لأن لبلاد العرب طرقاً وجادات لا يعرفها (إلا أهلها الذين نشئوا فيها وعرفوا مسالكها)[3] .

كما كان للعرب بعض المعارف يستخدمونها لتحديد قرب أو بعد المنازل عنهم فقيل أن ساري الليل إذا أظلم عليه وأدْلهمّ، فلم يستبن محجة وضع وجهه على الأرض وعوى عواء الكلب لتسمع ذلك الهراء الكلاب

(١) ابن قتيبة، المصدر السابق ٢ / ١٣٥.

(٢) للتفصيل راجع: - ابن قتيبة، عيون الأخبار، ٢ / ١٣٥.

(٣) محمد أحمد حسون، المصدر السابق، ص ٣.

الأخرى إن كان الحي قريب منه فتجيبه فيقصد إلى مكان الحي[1] أو ليعلم أنه قريب من الماء[2] فيتجه صوبه ولو فرضنا أن هذا الشخص كان مستصحباً معه ابنه فأنه مما لا شك فيه أنه سوف يتأثر بهذا السلوك، ويكتسب خبرة ومعرفة من جراء ذلك، وبالتالي يمكن أن يلجأ إلى استخدام الطريقة نفسها إذا ما ظل في ليلة ما في حياته. إننا نستفيد من كل هذه الأخبار والروايات أن العرب قد نشأوا وعلموا أولادهم على آداب السفر، وقدموا خلاصة تجاربهم إليهم التي جاءت من خبرات مكتسبة من بيئتهم. كما إن هذه النصائح كان الهدف من ورائها هو تنشئة أبناءهم وتعريفهم آداب السفر وكيفية التهيؤ والاستعداد له، فالعرب أصحاب خبرة في السفر[3] وقد نعتوا بأنهم كانوا يتمتعون بمعين لا ينضب من التجارب المباشرة في مجال الجغرافية الفلكية وسراهم بالليل[4] هذا وحفظ لنا الشعر العربي القديم إشارات كثيرة لمواضع جغرافية[5] . كما كانت لهم معرفة في النجوم ومطالعها ومساقطها وصفاتها[6] واهتموا بمعرفة مهاب الريح للاهتداء بها في أسفارهم ولذا وضعوا لها أسماء[7] كما كانوا يجدون مساكنهم بمواقع

(١) الشريف المرتضى، المصدر السابق ٢ / ١١٤؛ رشيد الجميلي، المصدر السابق، ص ٢٠١.

(٢) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٧٥.

(٣) فاضل زكي محمد، المصدر السابق، ص ١٠٨.

(٤) كراتشوفسكي، المصدر السابق، ١ / ٤١.

(٥) ينظر ديوان لبيد بن ربيعة، ص ٢٠، قوله: -

جاوزن فلجاً فلحزن يدلجن ... بالليل ومن رمل عالج كثبا

وديوان عبيد بن الأبرص، ص ٢٣ قوله: -

أقفر من أهله ملحوب ... فالقطبيات فالذنوب

فراكس فثعيلبات ... فذات فراقين فالقليب

وكذلك ديوان حسان بن ثابت، ص ٢٥٣.

لمن الدار أوحشت بمعان ... بين أعلى اليرموك فالخمان

(٦) ابن قتيبة، الأنواء، ص ١ وما بعدها؛ ابن الاجدابي، الأزمنة، ص ٦٥.

(٧) المبرد، الكامل، ٣٥٧ - ٦١؛ البيروني، الآثار الباقية، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

النجوم[1] علماً إن هذه المعارف الجغرافية ظلت حية بين العرب حتى بعد الإسلام حيث أصبحت القاعدة المتينة التي قامت عليها المؤلفات الإسلامية الجغرافية، إذ أخذ مؤلفوها يتتبعون مآثر أسلافهم في هذا الفن[2] .

والعربي عندما يلمس أن تنشئته لأبنه آتت ثمارها وأنه أصبح بالإمكان الاعتماد عليه فلا يجد حرجاً من إرساله بالنيابة عنه وهذا ما نستشفه من إرسال (أكثم بن صيفي) حكيم تميم ابنه (حبيشاً) إلى الرسول محمدﷺ بعد أن سمع بمبعثه فينوب ابنه ليستطلع الأمر فلما جاء به جمع قومه وخطب فيهم ودعاهم إلى الإسلام[3] .

ونرى أثر الأب في التنشئة الاجتماعية للابن من خلال إرشاده وتوجيهه إلى الزواج من المرأة التي تتمتع بالصفات الحميدة، وتحذيره من الصفات المنبوذة والمكروهة فيها. قال: - (رجل لأبنه يا بني إياك والرقوب، العضوب، الإنابة، الحنانة، المنانة، فالحنانة، التي كان لها زوج قبل فتذكره بالحنين، والتحزن رقة على ولدها إذا كانوا صغار ليقوم الزوج بأمرهم)[4] .

---

(١) ابن قتيبة، الأنواء، ص ٢ - ٣، قيل أن (السليك بن سعد) سأل (قيس بن مكشوح) المرادي أن يصف له منازل قومه فقال قيس: - خذ بين مهب الجنوب والصبا، ثم سر حتى لا تدري أين ظل الشجرة فإذا انقطعت الحياة فسر أربعاً حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق فإنك ترد على قومي مراد، فقال السليك: - خذ بين مطلع سهيل، ويد الجوزاء اليسرة العاقد لها أفق السماء فثم منازل قومي بني سعد بن زيد مناة، للمزيد من المعلومات راجع البكري معجم ما استعجم، ٢ / ٤١١.

(٢) عرام ابن الأصبع، أسماء جبال تهامة، تحقيق عبد السلام محمد هارون ضمن كتاب نوادر المخطوطات ٢ / ٣٧٣ - ٤٤١؛ وأنظر ما كتبه بهذا الشأن كراتشوفسكي، المصدر السابق، ١ / ٤٣ - ٤٤.

(٣) ابن نباته، المصدر السابق، ص ١٤؛ الميداني، المصدر السابق، ٢ / ٢٦٧؛ ابن حجر الإصابة ١ / ١١١.

(٤) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٩ / ١٨٤. والرقوب: - التي لا يعيش لها ولد فهي ترقب موت ولدها، الزمخشري أساس البلاغة، ص ١٧٢؛ الزبيدي المصدر السابق، طبعة الكويت، ٢ / ٥١٧ والعضوب: - المرأة الشتامة، الزمخشري م. ن، ص ٣٠٤؛ فيروز آبادي، المصدر السابق، ١ / ١٠٩؛ والإنابة التي لا ينفع معها لا تأديب ولا تأنيب، الزمخشري، م. ن. ص ١٠. والحنانة: - قيل وهي التي تحن على ولدها من زوجها المفارق، الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر، ٩ / ١٨٦.

وحظيت البنت بتنشئة الأب وتربيته وعنايته ومثلما كانت الأم توصي ابنتها بوصايا عند زفافها فأن الأب كان أيضاً يزودها بجملة من تلك الوصايا حيث عثرت على بعض منها ليرشدها فيها إلى الطريق الذي ينبغي لها أن تسلكه والآداب التي ينبغي لها أن تتحلى بها فيعلمها ما يمكن أن تدوم معه العشرة الزوجية والانسجام بين الزوجين ونرى فيما رويي منسوب إلى (عامر بن الضرب) العدواني من وصيته لابنته شيئاً من ذلك فيقول مخاطباً أمها: - (مري ابنتك ألا تنزل مفازة إلا ومعها ماء فأنه للأعلى جلاء وللأسفل نقاء ولا تكثر مضاجعته فأنه إذا مل البدن مل القلب، ولا تمنعه شهوته فإن الحظوة في الموافقة)[1] . وقريب من ذلك وصية (ضرار بن عمرو) الظبي قال لها يوم زواجها (يا بنية أمسكي عليك الفضلين قالت: وما الفضلان قال: - فضل الغلمة، وفضل الكلام)[2] ، فهو ينصحها بعدم الإكثار من الثرثرة في الكلام وفي المضاجعة.

ويرد في وصية نسبت إلى (الزبرقان بن بدر) أنه كان إذا زوج ابنته له دنا من خدرها وقال لها: (كوني له أمه يكن لك عبداً)[3] .

كما نقل الآباء خبرتهم وتجربتهم بالحياة في تنشئتهم لأبنائهم فهذا (قيس بن مسعود) الشيباني يخشى على ابنته إذا قتل زوجها (لقيط بن زرارة) أو مان فأوصاها بالإ تخمش عليه وجهها ولا تحلق شعرها[4] لأنه كان من العادات والتقاليد الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام إذا فجعت المرأة

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ٤ / ٧٦.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ١ / ١٩٣.

(٣) الضبي، أمثال العرب، ص ٧٣ وجاء فيه أن الوصية منسوبة إلى (قيس بن مسعود) الشيباني؛ ابن قتيبة عيون الأخبار ٤ / ٧٧.

(٤) الضبي، م. ن، ص ٧٣؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق ٦ / ٨٥.

بعزيز عليها تذهب فتقص شعرها وتخمش وجهها وتشق جيبها، وتلطم خدها وتنوح عليه[1] .

قال طرفة: -

إذا مت فانعيني بما أنا أهله   وشقي علي الجيب يا ابنة معبد[2]

وقال (عبد مناف بن ربع) الهذلي: - أنه كان بعضهن من المهتاجات يصفقن وجوههن وصدورهن بنعلين[3] . وهو ما أشارت إليه الخنساء أيضاً[4] وفي رواية ذكرها الواقدي.. أن نساء قريش جزت شعر رؤوسهن حزناً على قتلى بدر[5] وقد عرف أهل الحيرة تلك العادات في الموت والمناحة[6] ولا زالت بعض من هذه العادات مستمرة إلى وقتنا الحاضر، دلالة على استمرارها وانتقالها من السلف إلى الخلف.

والعربي كان يؤثر أبناءه وأفراد أسرته حتى على نفسه، ويضحي من أجلهم ويتحمل الجوع في سبيل إشباعهم[7] وهو يعتز بأبنائه يتفقدهم ويحرص عليهم كما في قول (غيلان بن سلمة) الثقفي عندما سأله (كسرى)

---

(١) علي الهاشمي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٢٢٢.

(٢) شرح ديوان طرفة، (ضمن كتاب شرح ديوان علقمة وعنترة)، ص ٤٦.

(٣) قوله: -

إذا تجاوب نوح قامتا معه   ضربا أليماً بسبت يلعج الجلدا

ينظر: المبرد الكامل ٢ / ١٦١.

(٤) الخنساء، ديوانها طبعة دار الكتب، بيروت، ب. ت، ص ١٠٦، قولها: -

ولكني رأيت الصبر خيراً   من النعلين والرأس الحليق.

(٥) الواقدي، المغازي، ص ١٢٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ١ / ٤٤٧.

(٦) يوسف رزق الله غنيمة، الحيرة، ص ١١٢.

(٧) أنظر ما قاله (أبو خراش الهذلي) لزوجته، ديوان الهذليين، ق ٢ / ١٢٧ - ١٢٨ إذ أنشد قائلاً: -

وإني لأثوي الجوع حتى يملني   فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمني

أرد شُجاع البطن قد تعلمينه   وأوثر غيري من عيالك بالطعم.

عن أحب بنيه إليه قال: - (الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يقدم)[١] فيتبين لنا أنه لم يميز بين أولاده ونظر إليهم جميعاً بعين الأب في حنانه ورعايته وتربيته... وهذا له أثر كبير في التنشئة الاجتماعية حيث سينعكس ذلك على سلوك وأخلاق الأبناء في تعاملهم مع أبناء المجتمع[٢] ومع بعضهم بعضاً.

وربما كانت منزلة الابن عند العربي طاغية على مكانة زوجته لا سيما إذا كان هذا الابن من زوجة ثانية وذلك لما لعاطفة الأبوة من أثر كبير. وقد تجسدت تلك العلاقة ما بين (عمرو بن شاس) الأسدي وزوجته (أم حسان) وكان له ابن يقال له (عرار) من أمة له سوداء وكانت تؤذي (عرارا) وتعيره بسواده فغضب (عمرو) وهددها بالطلاق إن لم تحسن معاملة ابنه لأنه يحبه ويعزه ويحميه[٣].

كما نستطيع أن نشاهد عاطفة الأبوة وانعكاسها على العلاقات الزوجية فيما رواه أبو فرج الأصفهاني عن رجل يدعى (أبو داود) طلبت منه زوجته أن يطرد ابنه من زوجته الأولى (داود) فخرج به وقد أردفه خلفه حتى انتهى به إلى أرض جرداء فألقى سوطه وقال: -

أي داود أنزل فناولني سوطي فعندما نزل الابن دفع الأب راحلته وناداه: -

أداود إن الأمر أصبح ما ترى فأنظر داود لأي أرض تعمد

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ط الثقافة، ١٣ / ٣٠٦؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٢ / ٢٤٣ وقد نسبها إلى (هوذة بن علي الحنفي)، الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ص ٤٦٠؛ الآلوسي، بلوغ الأرب، ١ / ٣٢٠.

(٢) أحمد عزت راجح، المصدر السابق، ص ٦٠٨؛ ألفت حقي، المصدر السابق، ص ١٢٤؛ راجحة أحمد صكر، المصدر السابق، ص ١٥.

(٣) عمرو بن شاس، شعره، ص ٧٠ - ٧١؛ المبرد، ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد، ص ٥؛ الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الثقافة، ١١ / ١٨٦، ١٨٨؛ القالي، الأمالي، ٢ / ١٨٨ - ١٨٩.

فقال له دواد: - على رسلك فوقف له فناداه: -

وبأي ظنك أن أقيم ببلدة جرداء ليس بغيرها متلدد

فرجع الأب إليه وقال له: - والله أنت ابني حقاً ثم رده إلى بيته وطلق زوجته[1] لأن الأب يرى في ابنه امتداداً له فهو (يحب له جميع ما يحب لنفسه ويسعى في تأديبه وتكميله بكل ما فاته في نفسه، طول عمره ولا يشق عليه أن يقال له ولدك أفضل منك) ثم تزداد محبته مع التربية والنشوء[2] .

٢ - دور الأسرة في تنشئة الطفل الموتور

إن كلمة الموتور مشتقة من الوتر ويعني المفرد[3] وقالت العرب: ووترت الرجل: قتلت حميمه فأفردته منه[4] فإذا ما قتل أهل المرء وترك بمفرده عندها يصبح موتوراً بفقده لأهله وأقربائه الأمر الذي له آثار نفسية في تنشئته لأن شعور الطفل بالحنان والعطف من والده له أثر كبير عليه لكي يعيش حياة طيبة في حين فقدان العاطفة من أبويه تؤدي بالطفل إلى اتصاف سلوكه بالقسوة والشر[5] وهذا ما أثبتته البحوث التربوية والنفسية التي أكدت أن من الأسباب التي تؤدي إلى ذلك هو الحرمان من الحنان والعاطفة الأبوية وهذا يبين لنا دور الأسرة في نشوء أسباب القسوة عند الأطفال[6] فقد قال رسول الله ﷺ: - (من لا يرحم لا يرحم)[7] .

---

(١) الأصفهاني، م. ن.، ط ١، طبعة دار الكتب المصرية ١٦ / ٣٧٤.

(٢) مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص ١٤٥.

(٣) الفيروز آبادي، المصدر السابق ٢ / ١٥٧ (وتر).

(٤) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٤٩١ (وتر).

(٥) أحمد عبيدات، الطفولة، ص ٥٣.

(٦) خليل البياتي، كآبة الأطفال، مجلة دراسات الأجيال عدد (١ - ٢)، بغداد، ١٩٨٤، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٧) البخاري، صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب، ٥/ ٢٢٢٩؛ محمد بن حبان، المصدر السابق، ٢ / ٢٠٢.

إن فقدان الأب عن الأسرة يترتب على أطفالها آثار نفسية، ويتميزون بخصائص وصفات قد لا تشابه الأطفال الذين لا يفقدون آباءهم بل أن غياب الأب يؤثر في تنشئة الأطفال ويدفعهم لاكتساب قيم ومفاهيم معينة[1] ولعل هذا يفسر لنا السلوك الذي اتصف به بعض أطفال العرب قبل الإسلام الذين نشأوا وهم فاقدون لآبائهم وأثر ذلك في حياتهم المستقبلية ويمكن توضيح ذلك من خلال المثالين الآتيين: -

أ - تنشئة الحارث بن ظالم المري:

ذكرت المصادر أنه (أغار خالد بن جعفر بن كلاب العامري على ذبيان - رهط الحارث بن ظالم المري الذبياني - وهم في واد يقال له حراض [*] فقتل الرجل حتى أسرف، وبقيت النساء، والحارث بن ظالم يومئذ صغير، وزعموا أن ظالماً أباه هلك في تلك الواقعة من جراح إصابته يومئذ، وكانت نساء بني ذبيان لا يحلبن اللبن فلما تأيمن وصرن بغير رجال طفقن يدعون الحارث، فيشد عصاب الناقة ثم يحلبنها ويبكين رجالهن ويبكي الحارث معهن فنشأ على بغض خالد)[2] وذكر أن النساء في البادية كن (لا يحلبن لأنه عار عندهن إنما يحلب الرجال)[3] . لقد كانت مرحلة الطفولة التي نشأ فيها (الحارث بن ظالم) مرحلة مليئة بالآلام والأحزان وساهمت بشكل كبير في تحديد الاتجاه الذي يسير عليه في حياته المستقبلية، فمنذ السنوات الأولى تفتحت عيناه ينظر إلى الحياة بمنظار، مظلم وشبّ فوجد اليتم في

---

(١) ينظر: موفق الحمداني، المصدر السابق، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٢) أبو عبيدة، الأيام ق ١ / ٤٨٥ - ٤٨٦؛ الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة ١١ / ٨٩؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٥ / ١٣٧ - ١٣٨.

(٣) الميداني، المصدر السابق، ٢ / ٤١٤؛ إبراهيم بن السيد علي الأحدب الطرابلسي، فرائد اللآل في مجمع الأمثال، ٢/ ٣٦٣، وقد أشار إلى تلك العادة الفرزدق في شعره راجع ديوانه ق١/ ٣٦١، حيث يهجو جرير قائلاً: -

كم خالة لك يا جرير وعمة ... فدعاء قد حلبت علي عشاري.

انتظاره وصار يتجرع أنواع المرارات بين أهله وذويه إلى أن كبر على كره خصومه وقاتلي والده (ظالم بن غيض) فنشأ حاقداً موتوراً فأضحت هذه الحادثة المروعة من مبررات اتجاهه لتعلم طرق وأساليب الفتك (*)، أي إن هذه الحادثة أثرت في طبيعة حياته وسلوكه حتى غدا الفتك أسلوباً أو نمطاً قد اختطه لنفسه.

وهنا يطالعنا سؤال بعد الذي بيناه، كيف تعلم الحارث أسلوب الفتك؟ ومن هو الذي تولى تدريبه وتعليمه وأشرف عليه؟ للإجابة نقول يتفق (ابن حبيب)[١] و(محمد بن العباس اليزيدي)[٢] و (ابن حزم الأندلسي)[٣] على أن الذي تولى تعليمه الفتك هو (أبو الخريف عبيد بن نشبة بن مرة بن غيض بن مرة) من بني سعد بن ذبيان، وقد تحدث ابن حبيب عن (الحارث) و (أبي الخريف) حيث تعد نصوصه في هذا الميدان من أكثر النصوص غناء وأشملها وضوحاً فقد أوردها ضمن المبحث الذي أسماه (فتاك الجاهلية) وأوضح لنا كيف تم اللقاء بينهما، والحديث الذي جرى بين الطرفين قال قدم (الحارث) على (أبي الخريف): - (فقال له: - علمني الفتاكة فقال: - إذا هممت فأفعل فأعاد عليه فقال له قوله الأول فأعاد عليه الحارث القول ثالثة فشد عليه أبو الخريف بالسيف ليضربه فقال له الحارث ما هذا فقال هذا الفتك هممت بضربك)[٤] . وقد أورد الرواية ابن الكلبي[٥] .

إن هذا النص يشير إلى أن أبا الخريف هذا من بني (مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان) كان يعلم الفتك فيها، وقيل إن أبا الخريف كان قد تعلم

---

(١) المحبر، ص ١٩٢.

(٢) أمالي، ص ٧٧.

(٣) جمهرة أنساب العرب، ص ٢٥٣.

(٤) ابن حبيب، المصدر السابق، ص ١٩٢؛ اليزيدي، المصدر السابق، ص ٧٧ باختلاف الألفاظ.

(٥) جمهرة النسب، تحقيق محمود فردوس العظم، ٢ / ١١٣.

الفتك من أبيه (وكان أبو الخريف أتى أباه فقال: أبه علمني الفتاكة، فقال إذا هممت فأفعل، ثم عاد عليه فأعاد عليه القول، ثم عاد عليه فضربه أبوه بالسيف فجرحه وقال: - هذه الفتاكة)[1] ، وعندما أتقن (الحارث) طريقة الفتك وحذق فيه بدأ يعلمها للآخرين من أبناء قومه بعد أبي الخريف حيث جاء في شرح سقط الزند خبرٌ عن (الحارث) يعلم ابن أخيه الفتك ويدربه عليه[2] وكان سيف (الحارث بن ظالم) سمي (ذو الحيات)[3] إذ كان منقوشاً عليه تماثيل الحيات[4] ومن هنا جاءت التسمية، وقد ضربت العرب الأمثال بفتكه فقالوا (أفتك من الحارث نن ظالم)[5] .

وقد تمكن (الحارث بن ظالم) المري من قتل (خالد بن جعفر بن كلاب) العامري ثأراً لأبيه وأهله وذلك في (يوم بطن) عاقل وقد كان الرجلان آنذاك في حضرت (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة فحدثت مشادة بينهما أمام (النعمان) أغضبت (الحارث) فحملته على فعلته[6] .

ب - تنشئة حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري:

كان من أيام داحس والغبراء يوم الهباءه (*) حيث قام (قرواش بن هني) بضرب (حذيفة بن بدر) الفزاري بمعبله (**) فقصم به صلبه وابتدره (الحارث بن زهير)، (عمرو بن الاسلع) فضرباه بسيفيهما حتى أجهزا عليه أما ابنه الصغير (حصن بن حذيفة) وكذلك قتل (الحارث بن زهير) العبسي

(١) ابن الكلبي، المصدر نفسه، ٢ / ١١٣؛ تحقيق محمود فردوس العظم، ٢، ١١٣.

(٢) شرح سقط الزند، السفر الثاني، القسم الرابع، ص ١٦٨٦.

(٣) الأنباري، شرح ديوان المقضليات ص ٦١٦؛ ابن الأثير مجد الدين المبارك، المرصع، ص ١٥٠.

(٤) ابن الأثير مجد الدين المبارك، م. ن.، ص ١٥٠.

(٥) الميداني، المصدر السابق، ٢ / ٨٩.

(٦) أبو عبيدة، أيام العرب، ق ١ / ٤٨٥ - ٤٩٤؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٥ / ١٣٨؛ الميداني، المصدر السابق، ٢ / ٨٩؛ ابن الأثير، الكامل ١ / ٣٣٩؛ النويري، المصدر السابق، ص ١٥ / ٣٨٤ - ٣٤٩.

(حمل بن بدر)، واستبقوا (حصن بن حذيفة) لصباه[١] فنشأ (حصن) يتيماً موتوراً فقد رأى أمام عينيه مصرع أبيه وعمه ومن كان معهما من أبناء قومه وكيفية قتلهم، وعرف الرجال الذين شاركوا في قتلهما، فنشأ كارهاً حاقداً على بني عبس فلم تغب عن مخيلته تلك الصورة التي شاهدها على جفر الهباءة. فأخذ يعّد نفسه ويمنيها للأخذ بثأره حتى غزت ذبيان بني (عامر بن صعصعه) وفيهم بنو عبس فاقتتلوا فهزمت عامر، وأسروا (قراوش بن هني) ولم يعرفوه، فلما قدموا به الحي عرفته امرأة منهم فلما عرفوه دفعوه إلى (حصن بن بدر) فقتله ثأراً لأبيه[٢] .

فهذا نموذج آخر قدمناه لنشأة الطفل الموتور الذي يشب حاقداً، قاسياً على أعداءه يتمنى أن ينال منهم، لأنهم حرموه من حنان الأب ورعايته فوقوع مثل هذه الأحداث في الأسرة قد يؤدي إلى أن يسلك الطفل فيها سلوكاً غير طبيعي يخالف فيه أقرانه الآخرين غير الموتورين[٣] .

كان هذا حال الطفل الذي يفقد والده فكيف موقف الزوجة الموتورة في تربيتها لأبنها الموتور؟ روي أنه (إذا كانت المرأة موتورة نشأت ولدها تنشئة طالب الثأر ولقنته منذ حداثته الأولى كيف ينتقم من أعدائه وأعداء أمه وعشيرته) وها هي (كنزة) المنقرية تغذي ولدها (شمله) أفاويق الوتر والقصاص[٤] في قولها: -

---

(١) للتفصيل راجع المفضل الضبي، أمثال العرب، ص ٩٥ - ٩٦؛ ابن حبيب، المحبر ص ٢٤٩؛ القالي، الأمالي، ١ / ٢١٤؛ جمهرة أنساب العرب، ص ٢٥٦؛ الميداني، المصدر السابق، ١ / ٢٥٢؛ النويري، المصدر السابق، ١٥ / ٣٦٠ - ٣٦٢.

(٢) الضبي أمثال العرب، ص ١٠١ - ١٠٢؛ الميداني، المصدر السابق، ٢ / ١١٩؛ ابن الأثير، الكامل، ١ / ٣٥٤؛ عبد الغني غالي فارس، بنو فزارة، ص ٨٤.

(٣) إيمان نعيم العفراوي، المصدر السابق، ص ١٨ وما بعدها.

(٤) عمر الدسوقي، الفتوة، ص ٣٩؛ أفاويق ما اجتمع في السحاب من ماء يمطر ساعة بعد ساعة، الفيروز آبادي، المصدر السابق، ٣ / ٢٨٨، والأفاويق هنا بمعنى أنها كانت تحت ابنها بصورة مستمرة على طلب الثأر.

إن يك ظني صاقاً وهو صادقي بشملة يحبسهم بها محبساً أزلاً
فيا شمل شمّر وأطلب القوم بالذي أصبت ولا تقبل قصاصاً ولا عقلا[1]

٣ - دور الأسرة في الحفاظ على صحة الطفل

كان من واجب الأسرة العربية قبل الإسلام الاهتمام بالجانب الصحي في تنشئتها لأطفالها[2] وهي لم تعدم تأثير الحسد والسحر على أطفالها وقيل أنه اعتقاد قديم واسع الانتشار ليس عند العرب فقط بل عند الشعوب الأخرى[3] فقد اعتقد الإنسان أنه عن طريق التعاويذ والرقي والممارسات السحرية يستطيع شفاء الأمراض ودفع الضرر[4] وكان العرب يعتقدون أن سبب الأمراض أرواح شريرة لها تأثير على حياة الإنسان ولا يشفي منها إلا الكهان والسحرة[5] حيث يقومون بإخراج هذه الأرواح الشريرة عن طريق التعاويذ والرقي[6] وحفل التراث العربي القديم بالعديد منها الخاصة بحماية الأطفال من العين والحسد والشر، كما اتبعوا وسائل شتى لمعالجتهم من الأمراض والعلل.

واستخدمت الأم العربية أساليب عدة لدرء تأثير الحسد على أطفالها منها: وضع قليل من الملح في كيس يعلق في عنق الطفل[7] وذكر (حمزة

---

(١) عمر كحالة، أعلام النساء ٤ / ٢٦٥. وأزلاً: أي أنه سيحيط بالأعداء ويحصرهم ويثأر منهم، الفيروز آبادي، المصدر السابق، ٣ / ٤٠١. (زل)؛ والعقل: - الدية، الفيروز آبادي، المصدر السابق، ٤ / ١٩. (عقل).

(٢) محمود حسن، الأسرة ومشكلاتها، المقدمة، صفحة أ.

(٣) جرجي زيدان، تاريخ المدن، ٣ / ٢٢ - ٢٣؛ زهير حطب، المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٤) فراس السواح، مغامرة العقل، ص ٨.

(٥) جميل بهيم، المصدر السابق، ص ١٤٦ - ١٤٧؛ إحسان النص، الخطابة العربية؛ محمود الحاج قاسم، المصدر السابق، ص ١٩٩.

(٦) عز الدين إسماعيل، المصدر السابق، ص ١٩٩.

(٧) زهير حطب، المصدر السابق، ص ٢١٠.

الأصفهاني) سبع عشرة رقية منها رقية للعين ونصها: - (أرقيك من عين عائر...... ونظرة ناظر، ومن بر وفاجر وحفيف طائر، بنجم طالع، وبرق لامع)، ورقية للغلام: - أعيذك بالأعلى من شر كل أنثى مرضعة وحبلى أو عاقر تمرى أو لبوة لا ترجى)[١] .

وقالت امرأة من بني عامر: - أعيذك بالله من نفس حرّي، وعين شري[٢] أي خبيثة من الشر.

واعتقد العرب القدامى بالجن والجنيات حيث آمنوا أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة[٣] علق عليه سن الثعلب أو سن هرة، سلم، وإن الجن إذا رأته لم تقدر عليه[٤] ويقولون أن جنية أرادت صبي قوم فلم تقدر عليه فلامها قومها من بني الجن فقالت تعتذر إليهم حيث قالوا: - (وكزعمهم إذا أرادت جنية صبي قوم لم تقدر عليه من سن الثعلب أو سن هرة وأشباه ذلك - فإذا ما - رجعت - الجنية - إلى صواحباتها - قالت لهم - كانت عليه نفرة ثعالب وهررة)[٥] يعني كان عليه ما ينفرني منه أن أتعرض له وتسمى هذه الأشياء التي تطلق على الصبي نفرات[٦] وإنها تقي الطفل من شر العين والحسد[٧] .

---

(١) نقلاً عن، بندلي جوزي، دراسات في اللغة، ص ١٩٢؛ عين عائر: - عين عوراء، وحفيف طائر: - صوت طيرانه؛ وجاء في هذا المصدر إن ما أورده بشأن الرقي عند العرب ما هو إلا فصل من كتاب (لحمزة بن الحسن الأصفهاني) عثر عليه المستشرق (أوجين منوخ) وقام بنشره في المجلد (٢٦) من مجلة العلوم الآشورية وقام بقله إلى العربية (بندلي جوزي) وهي تضم سبعة عشر خرزة من خرزات العرب لكل خرزة منها رقية إلا أن المحفوظ منها رقي سبع خرزات.

(٢) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٣ / ٢٩٥.

(٣) خليل أحمد خليل، المصدر السابق، ص ٢٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ١ / ٤٠٦.

(٥) ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ٣٤؛ النويري، المصدر السابق ٣ / ١٢٠ باختلاف الألفاظ، القلقشندي / صبح الأعشى ١ / ٤٠٦.

(٦) ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ٤٠٤؛ الفيروز آبادي، المصدر السابق، ٢ / ١٥٢؛ محمود مصري، المصدر السابق، ٤٧.

(٧) الفيروز آبادي، المصدر السابق ٢ / ١٥٢؛ هاشم يونس عبد الرحمن، الحياة الفكرية، ص ٣٢٥.

ومن المعتقدات الشعبية التي سادت عند العرب القدماء أن النساء اللواتي يلدن حديثاً يأخذن صمغاً أحمر من شجرة تسمى (السمرة) وحين ينقع في الماء يتحول الماء إلى اللون الأحمر، فتأخذ منه وتخطط في وجه الصبي حماية من الجن ويسمى هذا الخط (الدودم)[١] وبذلك لا تقربه الجن ولا تتمكن أن تؤذيه[٢] ويعلقون على أجسامهم أيضاً كعب الأرنب ويعتقدون أنه وقاية من السحر وإن الجن تنفر من الأرنب لأنها تحيض[٣] وقد وردت تلك الأفكار في شعر العرب قبل الإسلام قال امرئ القيس: -

ليجعلَ في كفهِ كَعَبها حذار المنيّة أنْ يعطبا[٤]

وبهدف دفع أذى العين وشرور الجن عن الطفل كان العرب يلجأون إلى وضع التمائم وهي ما يعلق على الصبي من الحسد[٥] و (التميمة خرزة رقطاء أو طائفة من الخرز والعوذ تنظم في سير ثم تعلق في عنق المولود حين يولد)[٦] وكذلك الرقى[٧] فقد جاء في موسوعة الدين والأخلاق أن (سعد بن أبي وقاص) كان يعلم أولاده رقية تقيهم من شر العين[٨] فضلاً عن التعاويذ

---

(١) ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ٣٩؛ النويري، المصدر السابق، ٣ / ١٢٢، الزبيدي المصدر السابق ط صادر ٥ / ٢٥.

(٢) عبد الله عفيفي، المصدر السابق ١ / ١٢٥.

(٣) ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ٤٠٤؛ النويري، المصدر السابق ٣ / ١١٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى ١ / ٤٠٦ الأشبيني، المصدر السابق ٢ / ٣٢٦.

(٤) ديوانه، ص ١٢٨؛ ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ٤٠٤؛ الزبيدي، المصدر السابق ط صادر ٥ / ٣٥٤ ورد في المصدر الأخير لفظ (رجله) بدل (كفه).

(٥) فيروز آبادي، المصدر السابق، ٤ / ٨٦؛ ابن خطيب الدهشه، تحفة ذوي الأرب، ص ١٩؛ أحمد حمودي، من عادات الجاهلية في شعر المتنبي، مجلة كلية الآداب، عدد (٧)، بغداد ١٩٧٦، ص ١٠٧.

(٦) عبد الله عفيفي، المصدر السابق، ١ / ١٢٥.

(٧) المفضل الضبي، المفضليات، ص ٤٤.

(٨) Goldziher, op. cit. vol. V. p. 199.

وما شابه ذلك من الأمور[1] إذ كانوا يدعون أنها تنفع في الوقاية من عوارض الحياة وهذا نفهمه من قول أبي ذؤيب الهذلي حيث يقول: -

وإذا المنيّةُ أنْشَبَتْ أظفارَها   ألْفَيْتُ كلّ تميمةٍ لا تَنفَعُ[2]

وفي النقوش المسندية وجدت كلمة (ود) وهو إله القمر عن عرب الجنوب (محفورة على أشياء ذات ثقوب تعلق على عنق الأطفال لتكون تميمة وتعويذة)[3] وكذلك عرف البابليون التمائم[4]. ولعل هذا يوضح لنا قيام العرب بصنع تماثيل صغيرة من التمائم على هيئة ظباء تقي من الشرور[5].

أما عن اختيارهم للظباء[*] دون سواها لأنهم كانوا يعتقدون أنها أجمل الحيوانات أجساداً وأطيبها أفواهاً[6] وهي إلى هذا لا تعرف المرض حتى قالت العرب للمعافى (به داء ظبي)[7].

ومن وسائل العرب لدفع الحسد عن الصبي الجميل أنهم كانوا يسودون نونته وهي النقرة في ذقنه ومنه حديث (عثمان بن عفان) (رض) عندما رأى صبياً مليحاً فقال دسّموا نونته أي سّودّها[8].

وكذلك استخدموا الودعات لدفع الحسد والعين عن أطفالهم وهي (خرز بيض تخرج من البحر تتفاوت في الصغر والكبر) وتتخذ منها القلائد[9]

---

(١) الزبيدي، المصدر السابق ط صادر ٢ / ٤٧٠؛ حسن عون، المصدر السابق، ص ٢٩٣.

(٢) ديوان الهذليين، ق ١ / ٣؛ القالي، الامالي ٢ / ٢٥٥.

(٣) جواد علي، أصنام الكتابات، مجلة سومر، ج (١ - ٢)، بغداد، ١٩٦٥، ص ١٣.

(٤) كونتينو، الحياة اليومية في بابل، ص ٤٨٧.

(٥) عفيف بهنسي، الشام لمحات فنية، ص ١١.

(٦) ابن قتيبة، عيون الأخبار ٤ / ٧٨ الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ٣٦١؛ الميداني، المصدر السابق ١ / ٩٣.

(٧) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ٣٦١؛ الميداني، المصدر السابق ١ / ٩٣.

(٨) الزبيدي، المصدر السابق ط صادر ٩ / ٣٥٧ (دسم).

(٩) الزبيدي، المصدر السابق ط صادر ٥ / ٥٣٣، ٥٣٤.

وكذلك استخدموا الخرز الزرقاء[1] ومن الطريف ما قيل عنها أن (زيد بن شروان) المعروف بـ (ذو الودعات)، أحد بني قيس بن ثعلبة، كان قد جعل في عنقه قلادة من ودعات وعظام وخزف فسئل عن ذلك فقال: - لأعرف بها نفسي ولا أضل فبات ذات ليلة فأخذ أخوه قلادته فتقلدها فلما أصبح قال: - (يا أخي أنت أنا فمن أنا) فضرب به المثل في الحمق فقيل (أحمق من ذي الودعات)[2] . ومن خرز الأطفال: - (الكَحّلَة) وهي خرزة تجعل على الصبيان فتقيهم أذى العين[3] ، ولها لونان بياض في سواد[4] . فالعرب اعتقدوا أن باستخدامهم للأحجار والخرزات والرقي والعزائم والعوذ يدفعون الشر عن أبنائهم وأن هذه الأشياء تحمل قوة ولكل منها خاصية معينة، وقيل أن إعرابية كانت تقول: - من يشتري مني الحزاة، فقيل لها: - وما الحزاة، قالت: - تشتريها النساء للطشة، والخافية، والاقلات[5] كما كان لديهم من العقائد الاجتماعية قبل الإسلام والمتعلقة بالمرأة التي يموت أطفالها ولا يبقى لها ولد وتعرف لديهم باسم (المقلات) فيزعمون أنها إذا تخطت قتيلاً شريفاً سبع مرات عاش، حسب زعمهم أبناؤها بعد الولادة وذكر ذلك (بشر بن أبي خازم) بقوله: -

تظل مقاليت النساء يطأنه يقلن ألا يلقى على المرء منزر[6]

وإنما تفعل النساء ذلك بالشريف إذا كان مقتولاً غدراً أو قوة[7] أي

---

(١) زهير حطب، المصدر السابق، ص ٢١١.

(٢) ابن الأثير، المرصع، ص ٣٤٢.

(٣) ابن أبي الحديد، المصدر السابق ١٩ / ٤٢٧.

(٤) الفيروز آبادي، المصدر السابق، ٤ / ٤٤؛ عبد الله عفيفي، المصدر السابق ١ / ١٢٤.

(٥) الطشة: وجع يصيب الصبيان في رؤوسهم، والخافية: - ما خفي من العلل المنسوبة إلى أذى الجن، والاقلات: - قلة الأولاد، راجع حسن محسن، المصدر السابق، ص ٢٣.

(٦) ديوانه، ص ٨٨؛ ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ٣٤؛ ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ٣٩٧؛ النويري، المصدر السابق ٣ / ١٢٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى ١ / ٤٠٦.

(٧) ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ٣٤ - ٣٥.

شجاعة في ساحات الوغى، وهذه الممارسة القديمة لا زالت بعض النسوة متمسكات بها إلى اليوم[1] .

ومن عادات العرب قبل الإسلام أيضاً إنهم كانوا يعلقون على صدور أطفالهم الأجنحة اليمنى لبعض الطيور ورأس الهدد وسن الذئب لدفع الحسد والنحس والشؤم عنهم وفي الشفاء من الأمراض مثل الحمى ولدغ العقارب[2] بل أن بعضهم كان يعلق عليه الأقذار من خرق المحيض خوفاً من عيون الجن وحتى لا تقربه[3] .

أما إذا لدغ الطفل - وكذلك الكبار - فأنهم كانوا يعلقون عليه جلاجل وحلياً ويحركونها لئلا ينام فيدب السم فيه فيهلك[4] وأشار إلى هذه العادة النابغة الذبياني: -

يُسهدُ من ليل التمام سليمها   لحلي النساء في يديهِ قعاقع[5]

والعرب تسمي الملدوغ بالسليم تفاؤلاً[6] .

ومن عادة الأطفال والصبيان عند العرب قبل الإسلام أنه حين يبدأ الطفل بتغيير أسنانه واستبدالها ينتزعها سناً سناً ويرميها في وجه الشمس ويطلب أن تعوضه منها أسناناً أجمل وأقوى من التي فقدها[7]، ونستدل على

---

(١) جبار الجويبراوي، من السحر التعاطفي في ميسان، مجلة التراث الشعبي، عدد (٥ - ٦)، بغداد، ١٩٧٦، ص ٤٨.

(٢) شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفلكلور والأساطير العربية، ص ١٢٣.

(٣) ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ٣٩٩؛ الزبيدي، المصدر السابق، ط الكويت ١٦/ ٥٣٦(نجس.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ١ / ٤٠٦؛ يوسف رزق الله غنيمة، الحيرة، ١٠٩؛ محمود الحاج قاسم، المصدر السابق، ص ٣٨ والقعاقع: - الصوت.

(٥) ديوانه، ص ٣٣؛ ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ٣٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى ١ / ٤٠٦.

(٦) يوسف رزق الله غنيمة، المصدر السابق، ص ١٠٩؛ شيخو، المصدر السابق، ص ٦٩٠.

(٧) ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ٣٩٧.

هذا بقولهم: - (وكحذف الصبي منهم سنه إذا سقطت في عين الشمس وقوله أبدليني بها أحسن منها)[1] زعماً منهم أنه إذا لم يفعل ذلك ربما نبتت سنه الثانية مشوشة أو غير صحيحة[2] وإلى هذا أشار (طرفة بن عبد العبد) بقوله: -

بدلته الشمس من منبته   برداً أبيض مصقول الأشر[3]

ونحن ما زلنا نسمع الأطفال يرددون أقوالهم وهم يرمون بأسنانهم المقلوعة إلى الشمس[4] ويدل هذا على الرابط القوي في استمرار هذه العقائد الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام إلى اليوم.

ومن تقاليدهم العلاجية بالنسبة لمعالجة أمراض أولادهم أنه إذا ظهرت بشفة الغلام بثور، حمل منخلاً على رأسه ونادى بين بيوت الحي: - (الحلاء الحلاء، الطعام، الطعام) فتلقي له النساء كسر الخبز وتمراً ولحماً في المنخل ثم يلقي ذلك للكلاب فتأكله فيبرأ من المرض[5] حسب زعمهم، وذلك البثر يسمى الحلاء[6] . ولغرض شفاء أطفالهم من بعض الأمراض فقد استخدموا الفصيدة وهو عبارة عن تمر بعجين ويخلط بدم وهو دواء يداوي به الصبيان[7] في حين كانوا يعالجون حول البصر بإدامة النظر إلى حجر الرحى في دورانه ويزعمون أن العين تستقيم به[8] وعلق أحد الباحثين

---

(١) ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ٣٥، النويري، المصدر السابق ٣ / ١٨١؛ القلقشندي، صبح الأعشى ١ / ٤٠٧ باختلاف الألفاظ.

(٢) ابن طباطبا، المصدر السابق، ص ٣٥؛ محمود مصري، المصدر السابق، ص ٤٧.

(٣) شرح ديوانه، ص ٩٨ (ضمن كتاب شرح ديوان علقمة وعنترة).

(٤) جابر الجويبري، المصدر السابق، ص ٥٧.

(٥) ابن أبي الحديد، المصدر السابق ١٩ / ١٠٧؛ النويري، المصدر السابق ٣ / ١٢١؛ القلقشندي، صبح الأعشى ١ / ٤٠٧.

(٦) النويري، المصدر السابق، ٣ / ١٢١.

(٧) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٢ / ٦ (بج)؛ جواد علي، المفصل ٥ / ٥٩.

(٨) جرجي زيدان، تاريخ التمدن ٣ / ٢٣.

على ذلك فقال: - وهذا أشبه شيء بما نسميه في أيامنا بالعلاج الطبيعي[1] كما استعملوا الكحل لمعالجة العيون[2] وهنالك رواية طريفة نذكرها: - (كان عبد العزى بن عبد المطلب يشتكي عينه وهو مطرق أبداً وكان يقول: - ما بعيني بأس ولكن كان أخي الحارث إذا اشتكت عينه يقول اكحلوا عين عبد العزى فكان يأمر من كان يكحلني معه ليرضيه بذلك، فأمرض عيني)[3].

ومن العادات الاجتماعية الطيبة التي كانت عند العرب قبل الإسلام أنهم كانوا يزورون المرضى للإعراب عن تمنياتهم لهم بالشفاء[4] كما يعَوُدونهم بعد الشفاء لتهنئتهم بالشفاء والسلامة لما ابتلوا به من المرض وكان يقع العود - الزيارة - من الرجال والنساء[5] وقد أقر الإسلام هذه العادة الاجتماعية الحسنة التي كانت سائدة عند العرب وحث المسلمين على إتباعها لزيارة المرضى قال الرسول محمد (ص) (عودوا المريض)[6].

من خلال ما تقدم يتضح لنا أن العرب قبل الإسلام كانت لديهم معرفة طيبة لأن من شأن الإنسان في كل زمان ومكان أن يمرض ومن شأنه أن يبحث عن وسيلة يتداوى بها ويعالج نفسه مما ألم به من علل وأمراض، وهذه النصائح والوسائل التي اتبعوها لوقاية أطفالهم من الحسد والشر والأمراض سواء صمدت للاختبار العلمي أم لم تصمد فأنها تشير بوضوح إلى أنها نتيجة خبرات مكتسبة من البيئة، وهم في الغالب يعتمدون في معارفهم الطبية على تجاربهم الخاصة وعلى ما ورثوه من حكمائهم القدماء.

---

(١) عز الدين إسماعيل، المصدر السابق، ص ٢٠٢.

(٢) جواد علي، المفصل ٥ / ٢٩.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار ٣ / ٢٧٤؛ وعبد العزى هو أبو لهب.

(٤) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٢٣؛ العسكري، جمهرة الأمثال، ٢ / ٢٥٥.

(٥) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٢ / ٤٣٦ (عود).

(٦) الشوكاني، نيل الاوطار ٤ / ٤٧، وأنظر كذلك القسطلاني، إرشاد الساري ٩ / ١٥١.

٤ - دور الأسرة في تعليم الأولاد الآداب الاجتماعية

هنالك عادات اجتماعية في التنشئة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام حري بنا أن نقف عند بعض منها: - إنهم كانوا يستحبون الاستيقاظ من النوم مبكراً فيحرصون على إيقاظ أطفالهم عند الصباح[١] ذلك أنشط للجسم وأدعى للصحة، ثم أن الغارات أغلبها كانت تقع في الصباح[٢] وإذا أغاروا صاحوا يا صباحاه[٣] ولكن كان قسم منهم لا ينهضون إلا متأخرين أو بعد حيل وإزعاج لهم لإكراههم على النوم[٤] ويسمون ذلك النوم (الصبحة) نوم الضحى[٥].

قيل: - أيقظت إعرابية أولاداً لها صغاراً قبل الفجر في غدوات الربيع وقالت لهم تنسموا هذه الأرواح واستنشقوا هذا النسيم وتفهموا هذا النعيم فأنه يشد من مُنتِكم [*][٦] فهذه الأم توقظ أولادها منذ الصباح الباكر لما في ذلك من نشاط وحيوية وصحة لهم فضلاً عن قيامهم ببعض الأعمال التي تتطلب النهوض مبكراً كالرعي مثلاً.

كذلك نرى الأب يرشد أولاده بالنهوض مبكراً والعودة عند اشتداد الحر ليرتاحوا وليريحوا إبلهم أيضاً ولهذا قال (عبقر بن انمار البجلي) لأولاده (يا بني إذا غدوتم فبكروا، وإذا رُحتم فهجروا [٧].

إن من مسؤوليات التي تقع على عاتق الأسرة في تنشئة أبنائها تعليمهم

---

(١) السجستاني، المصدر السابق، ص ١٢٦؛ أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والموانسة ٢ / ٦٧.

(٢) الفيروز آبادي، المصدر السابق / ٢٤١ /(صبح).

(٣) حمزة ابن الحسن الأصفهاني، الدرة الفاخرة ١ / ٢٤١.

(٤) الزبيدي، المصدر السابق ٢ / ١٧٥ (صبح)، ٥ / ١٧٦ (خرط)؛ جواد علي، المفصل ٥ / ٣١.

(٥) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٦٦؛ الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٢٤٧؛ الفيروز آبادي، المصدر السابق، ١ / ٢٤١ (صبح).

(٦) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤلنسة ٢ / ٦٧.

(٧) السجستاني، المصدر السابق، ص ١٢٦.

آداب الطعام فكانوا يعلمونهم الأكل بأطراف الأسنان وهو ما يعرف لديهم باسم القضم[١] وينبهونهم عن الأكل بجميع الفم[٢] وهو ما يسمونه الخضم[٣] وفي المثل (من لا يأكل خضمناً لايأكل القضم ومن لا يأكل قظمناً يأكل خضماً)[٤] وفي حديث أبي ذر (رض): - (تخضمون ونقضم والموعد الله)[٥] إذن فقد كانت الأسرة تعلم أبنائها الأسلوب الأمثل في تناول الطعام بأن يأكلون بأطراف الأسنان وليس بجميع الفم لأن ذلك يثير انتباه المقابل أولاً كما أنه دليل على شراهة ونهم الآكل ثانياً، وهو ما يعاب عليه إذ كان العرب يعيبون الرجل الأكول الجشع[٦] فضلاً عن عدم مضغ الطعام بصورة سليمة مما يؤدي إلى صعوبة هضمه من المعدة.

وقال رجلاً مخاطباً ابنه يا بني: - (إذا أكلت فضم شفتيك ولا تتلفتن يميناً وشمالاً)[٧] ومن عادات العرب في الطعام أيضاً أنهم كانوا يقللون من الأكل ويمتدحون الجوع ويذمون الشبع[٨] ويقولون (البطنة تذهب الفطنة)[٩] و (البطنة مما تسفه الأحلاما)[١٠] والبطنة تغلب الفطنة[١١] يريدون أن الشبع

(١) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٣٧٠؛ الفيروز آبادي، المصدر السابق ٤ / ١١٦.

(٢) الميداني، المصدر السابق ٢ / ٣٠٧.

(٣) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ١٤٤؛ الفيروز آبادي، المصدر السابق، ٤ / ١٠٨.

(٤) الميداني، المصدر السابق ٢ / ٣٠٧.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين، ٣ / ١٥٤.

(٦) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ٣ / ٢١٧.

(٧) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ٣ / ٢٢١.

(٨) ابن قيم الجوزية، أخبار النساء، ص ٤٨ - ٤٩.

(٩) ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ١٨٦، والبطنه: - الشره وحب المأكل؛ الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٢٥.

(١٠) ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ١٨٥؛ قال الأعشى: - يا بني المنذر عبدان والبطنة يوماً قد تأفن الأحلاما، ديوانه، ص ٢٤٧، أفن الرجل: - ضعف عقله، الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٨.

(١١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ٣ / ٢١٩.

والامتلاء يضعف الفطنة أي أن الشبعان لا يكون فطناً[١] وقيل أن صفاء أذهان العرب وذكائهم كان من أسبابه قلة الأكل وخفة الزاد[٢] ويقولون أن الشبع يؤدي إلى السقم أي المرض[٣] فالمعدة إذن بيت الداء ومما يدعم هذه الفكرة قول الرسول محمدﷺ: - (ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه)[٤] لذلك لم تكن العرب تسرف في الطعام ويرون أم الأزم أي الحمية - قلة الأكل - أفضل دواء لصحة الأبدان[٥] وهذا ما عبر عنه طبيب العرب (الحارث بن كلدة): - (الدواء هو الازم) وهذه من المبادئ الطبية التي أقرها الطب الحديث[٦] .

وكان من آداب الطعام عندهم ألا يسرع المرء في الأكل أو أن ينال من قبل أن تصل إليه كف من يأكل معه لأن ذلك صفة مذمومة أو أن يشبع هو ويضل صاحبه جوعاناً، ومصداق ذلك قول الشنفرى: -

وإن مُدَتِ الايدي إلى الزاد لم أكن   بأعجلهم إذ أجْشَعُ القومِ يَعْجل [٧]

ويقول حاتم الطائي: -

أُقصّر كفي أن تنال أكُفّهُمْ   إذا نحنُ أهْوَينا وحاجتُنا مَعَا

أبيت خَميص البطنِ مُضطمِرَ الحشى   حياءً أخافُ الذم أن أتضلعا[٨]

وقد أقر الإسلام مثل هذه العادات في آداب الطعام[٩] ، وفي الحديث

---

(١) ابن منظور، المصدر السابق ١٣ / ١٩ (أفن) عن المفصل ٥ / ٥٨.

(٢) ابن قتيبة، المصدر السابق، ٣ / ٢١٨، ابن قيم الجوزية، أخبار النساء، ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ٣ / ٢١٧.

(٤) عز الدين إسماعيل، المصدر السابق، ص ٢٠٦.

(٥) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٥؛ الفيروز آبادي، المصدر السابق، ٤ / ٧٥.

(٦) عز الدين إسماعيل، المصدر السابق، ص ٢٠٥.

(٧) الشنفرى، شعره، ص ٦٨؛ ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ١٨٥.

(٨) ديوانه، ص ٦٨؛ ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ١٨٩.

(٩) الغزالي، أحياء علوم الدين ٣ / ٧٢.

(من قلّ طعمه صحّ بدنه، وصفا قلبه ومن كثر طعمه سقم بطنه وقسا قلبه)[١] فهذه الأقوال التي يذكرها الآباء ويسمعها أبناؤهم وما تدل عليه من معايير ومفاهيم وقيم اجتماعية محبذة في المجتمع، نجد لها صدى واسعاً من الترحيب والقبول ويرددها رجال القبيلة، فهذا بلا شك سيؤثر في الأبناء والسير في خطى آبائهم وإتباع تقاليدهم وهكذا نلاحظ تنشئة العرب لأطفالهم عملت على نقل العادات التي تورثوها من أسلافهم إليهم.

وكان للعرب عادات وتقاليد في مجالس يُنشّئون أبناءهم عليها فكانوا يبدأون باليمين وتقديمها على الشمال وقد أشار إلى ذلك (عمرو بن كلثوم) التغلبي في معلقته إذ أنشد قائلاً: -

صبت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا[٢]

وقد أقر الإسلام هذه العادة[٣] فقد قال عمرو بن أبي سلمى (كنت غلاماً في حجر رسول الله وكانت يدي تطيش في الصفحة فقال رسول الله سمّ الله، وكل بيمينك وكل ما يليك)[٤] وكان من عادة الملوك إجلاس السادة والأشراف على يمينهم تعظيماً لشأنهم[٥]. والعرب تقدم اليد والرجل اليمنى على الشمال وهو أدب محمود وفال حسن[٦] وكانوا يتصافحون باليد اليمنى[٧] وقد يتصافحون باليدين[٨] ولا زالت هذه العادة مستمرة لدينا إلى

---

(١) ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ١٨٧.

(٢) الزوزني، المصدر السابق، ص ١٦٤؛ الآلوسي، بلوغ الأرب، ١ / ٣٩٤.

(٣) الآلوسي، المصدر نفسه، ١ / ٣٩٤.

(٤) أحمد عبيدات، المصدر السابق، ص ٦٣.

(٥) مهدي عربي حسين الدخيلي، بسطام بن قيس، ص ١١٠.

(٦) جواد مطر الحمد، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم، ص ١٩٨.

(٧) جواد علي، المفصل ٥ / ٢٧.

(٨) ابن دريد، جمهرة اللغة ٢/ ٥٤١؛ القسطلاني، إرشاد الساري ٩/ ١٥٨؛ ابن منظور، المصدر السابق٢/ ٥١٤.

الوقت الحاضر وهذه خير دليل على استمرارية العادات والتقاليد وانتقالها عبر الأجيال في التنشئة الاجتماعية.

ومن عاداتهم أنهم يبكرون في الغداء ويرون أن ذلك أقرب إلى راحة البدن وصحته ويؤخرون العشاء[1] وكان من عاداتهم إرسال أبنائهم إلى الناس لدعوتهم عند إقامة وجبة الطعام[2] .

ومن الآداب الاجتماعية التي كان يربون أبنائهم عليها ويحرصون على إتباعها مراعاة حرمة البيوت وعدم جواز دخولها إلا بإذن من صاحبها[3] ، ومن الآداب الاجتماعية التي يجب مراعاتها في إعداد النشء هي تعويدهم على آداب التحية، والعادة عند العرب قبل الإسلام أن يحي الصديق صديقه إذا رآه بقوله[4] (السلام) أو (حيّاك الله)[5] أو (حياك) ثم يذكر أسم الصنم[6] . وإذا كان اللقاء صباحاً قالوا: - أنعم صباحاً[7] وعُمّ صباحاً[8] فيجيبه صاحبه (نعمت)[9] . وإذا كان مساءاً قالوا حييتم مساءاً[10] .

والمرء عند نهوضه من نومه يحي أهله ومن حوله بتحية الصباح: عم صباحاً، هذا وقد ذكرت تحيتهم في الشعر العربي كقول الشاعر: -

---

(١) بلوغ الأرب، ١ / ٣٧١.

(٢) ابن حبيب، المحبر، ص ٢٠٢.

(٣) جواد علي، المفصل ٥ / ٢٥ - ٢٦.

(٤) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر، ١٠ / ١٠٦. (حي)

(٥) الفيروز آبادي، المصدر السابق ٤ / ٣٢٣؛ الزبيدي، المصدر السابق والطبعة ١٠ / ١٠٦ - ١٠٧. (حي)

(٦) الزبيدي، المصدر السابق والطبعة، ١٠ / ١٠٦ وما بعدها. (حي)

(٧) جواد علي، المفصل ٥ / ٢٧؛ الزبيدي، المصدر السابق والطبعة، ٩ / ٨٣. (نعم)

(٨) الفيروز الآبادي، المصدر السابق، / ٢٤١ (صبح).

(٩) جواد علي، المفصل، ٥ / ٢٨.

(١٠) القسطلاني، إرشاد الساري ٩ / ١٥٨.

أنعم صباحاً بالسيوف وبالقنا إن السيوف تحيةُ الفرسان[١]

وقول زهير بن أبي سلمى: -

فلما عرفت الدار قُلت لربْعها ألا أنعم صباحاً أيها الربع وأسلم[٢]

ومن آدابهم في مجالسهم قيام القاعد للقادم عند قدومه والرد على تحيته[٣] ، وكانت الأسرة العربية تحرص أشد الحرص في تنشئتها لأبنائها إظهارهم أمام الناس بالمظهر اللائق وأن يحافظوا على الآداب العامة فقد كانوا يرشدوهم ويعلموهم بأن يمسحوا لعابهم ومخاطهم وفي المثل: - (أحمق ما يجأى مرغه)[٤] وإذا فعلوا ذلك عليهم أن لا يستخدموا ثياب بدنهم[٥] .

كما كانوا ينصحون أبناءهم بعدم التثاؤب أمام الناس فإن ذلك شيئاً غير محبب لديهم ومذموم. في حين كان يحمد العطاس عند العرب ما لم يكن من زكام[٦] ومن الآداب الاجتماعية التي يؤدبون أبناءهم عليها الدعاء للشخص إذا سعل[٧] .

التعامل مع الآخرين.

قيل إن مظاهر التنشئة الاجتماعية للطفل تعليمه السلوك المناسب مع والديه وأخوته ومع الآخرين[٨] وتعد الأسرة البيئة الطبيعية التي تتعهد الطفل

(١) طراد الكبيسي، شعر الحرب عند العرب، ص ١٠٠.

(٢) أحمد زكي العدوي، شرح ديوان زهير، ص ٨.

(٣) رسائل الجاحظ ١ / ١٨ (مناقب الترك)؛ المفصل ٥ / ٣٠.

(٤) لأنه كان يدعه يسيل حتى يراه الناس، ابن دريد، جمهرة اللغة ٢ / ٧٨٢؛ الميداني، المصدر السابق ١ / ٢٠٩.

(٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار ٣ / ٢٢١.

(٦) جواد علي، المفصل ٥ / ٢٨.

(٧) الزبيدي، المصدر السابق، ١ / ٤٢١؛ جواد علي، المصدر نفسه، ٥ / ٢٨.

(٨) جمال حسين الآلوسي وآخرون، علم نفس الطفولة، ص ١٣٤؛ عائشة السيار، المصدر السابق، ص ٢١٤.

بذلك[1] وتقوم بتهذيب سلوكه وأخلاقه لتوجيهه نحو أهداف مفيدة حتى يصبح إنساناً نافعاً لنفسه ولأسرته وللمجتمع[2] .

وإن التنشئة التي ينبغي أن يسير عليها الطفل لابد أن تكون هادفة إلى حسن تعامله مع الآخرين[3] إن القيمة الأساسية التي تحرص الأسرة العربية قبل الإسلام على غرسها في نفس الطفل هي قيمة احترام الوالدين والكبار بصفة عامة، والعربي يعلن صراحة تقديره لوالده وأنه يبذل قصارى جهده كي يبرّ أباه، وإن الإنسان متى كان باراً بوالديه أو بأحدهما فهو حميد الصفات كريم الخصال فيقول عبيد بن الأبرص في ذلك: -

وأكـرم والـدي وأصـون عـرضـي وأكـره أن أعـد مـن الـلـئـام[4]

وبديهي إن استقرار هذه القيمة في نفوس الأطفال سوف تسهل ما يأتي بعدها، من وصول تأثير مثل التنشئة إلى أعماقهم لأن العربي الذي ينشأ على احترام الصغير للكبير إنما يعكس مقدار ما اختلاف السن من اختلاف في التجربة[5] . ولعل هذا يفسر لنا حرص العرب وتشديدهم في وصاياهم لأبنائهم بأن يسوّدوا كبارهم لأنه سوف يعكس خبرته وتجربته في الحياة أكثر من الصغير الذي تغلب عليه ملذاته ونزواته وإلى هذه المعاني أشار (قيس بن عاصم المنقري) في وصيته لبنيه: - يا بني أحفظوا عني فلا أحد\ أنصح لكم مني إذا مت فسوّدوا كباركم ولا تسوّدوا صغاركم فيسفه الناس كباركم وتهونوا عليهم[6] .

---

(١) راجحة أحمد بكر، المصدر السابق، ص ١٤؛ بتول سعيد غزال، المصدر السابق، ص ٦.

(٢) ضياء أبو الحب، المصدر السابق، ص ٣.

(٣) محمد عبد الستار النصار، المصدر السابق، ص ٢١.

(٤) عبد الرحيم محمود زلط، البطولة النفسية والشمائل الإنسانية في الشعر الجاهلي، مجلد الدارة، عدد (٣)، الرياض، ١٩٨٤، ص ١٤٦، وعند العودة إلى ديوان الشاعر لم أعثر فغيه على هذا البيت.

(٥) فاضل محمد زكي، المصدر السابق، ص ٧٤.

(٦) الجاحظ، البيان والتبيين ٢ / ٨٠؛ السجستاني، المعمرون والوصايا، ص ١٣٥ باختلاف الألفاظ؛ الزجّاجي، الامالي، ص ٢٩ حيث روي الوصية بلفظ (فيحقر الناس) كباركم فتهونوا جميعاً عليهم).

فنرى أن لعامل الخبرة والتجربة أثراً كبيراً في التنشئة التي تحتل عند العرب مكانة متميزة فقد روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: - (رأى الشيخ أحب إلي من جلد الغلام)[1] وقيل مشهد الغلام[2] فإجابته للتأكيد على الخبرة والتجربة.

وكان الأب يحسن تربية ولده ويحرص على تخلّقه بالأخلاق الفاضلة ولذا نراه يعلمه احترام الآخرين فهو يقول له: - (يا بني وقر من فوقك، ولن لمن دونك)[3] ، ولكن علينا أن نفهم أن ذلك لا يعني الخضوع لهم أو التماس خدمتهم وإنما هي سجية من سجايا العرب في إجلال وتقدير الناس صغيرهم وكبيرهم وهذه من مكارم الأخلاق، وقد أقر الإسلام مثل هذه القيم[4] .

وقيل أن من عادات العرب التي علموها للنشئ الجديد من أبنائهم أنه إذا نادى إنسان كبير آخر أصغر منه تكون إجابته بتلبية مؤدبة تدل على تقدير المنادى مثل لبيك وسعديك[5] أي لزوم طاعتك وأنا مقيم على طاعتك وقصدي إليك ومن هنا جاء قول الحجاج في الحج: لبيك اللهم لبيك[6] أما إذا طلب منه عمل فيجيب بـ (نعم) أو (نعم وكرامة)[7] . ومن آداب العرب التي أنشأوا أبناءهم عليها أن لا يخاطب الصبي من هو أكبر منه سناً أو

(١) الميداني، المصدر السابق، ١ / ٢٩٢ ورد فيه بلفظ (خير من مشهد الغلام)؛ حمزة بن الحسن الأصفهاني، الدرة الفاخرة، ص ٣٤٧؛ محمد عبده، نهج البلاغة ٤ / ١٩؛ إسماعيل بن علي الاكوع، الأمثال ١ / ٢٠٦.

(٢) محمد عبده، المصدر نفسه ٤ / ١٩.

(٣) ابن المقفع، الأدب الصغير، ص ٥٢.

(٤) القسطلاني، المصدر السابق، ٩ / ١٠٣ - ١٠٤.

(٥) القسطلاني، المصدر السابق، ٩ / ٢٨٧؛ الزبيدي، المصدر السابق طبعة صادر، ١ / ٤٦٥ (ليب).

(٦) الزبيدي، المصدر السابق والطبعة، ١ / ٤٦٥ (ليب)؛ شاكر مجيد كاظم، قبيلة خولان، ص ٣٢٩ - ٣٣٢.

(٧) الزبيدي، المصدر السابق والطبعة، ٩ / ٨٣ (نعم).

منزلة باسمه وإنما يخاطبه بكنيته (لأن العرب إذا عظمت إنساناً كنته)[١] كأن يقول له يا أبا فلان وتكون الكنية باسم الابن الأكبر أو بكنية تكون متعارف عليها بين الناس[٢] ومن آدابهم أن يسير الأبناء خلف الآباء ولا يتقدمون عليهم[٣] ونجد هذه القيمة الاجتماعية قد توارثها العرب جيلاً بعد جيل ولا زالت إلى اليوم يعمل بها، فقد ذكر أن (عمرو بن خويلد) أحد رجال بني (عامر بن صعصعه)، كان كهلاً فإذا أقبل على مجلس قومه أقبل معه فتيان هما ابناه (زرعة) و (يزيد) فهذا الشيخ كان يستند على ولديه ويعتمد عليها في قضاء حاجاته فهما يبرانه ويحضى منهما بالاحترام والتقدير وقيل إن الأعشى - ميمون بن قيس - كان يوافي سوق عكاظ في كل سنة على جمله وابنه يقوده[٤] .

وهذا ذو الأصبع العدواني أنشأ ابنه (اسيدا) ورباه وعلمه وأدبه فلما اقترب أجله أوصاه بوصية ويلزمه بالاستماع إليه رغبة منه بنقل تجربته بالحياة إليه وأرادها أن تكون له هدى ومأثرة حيث خاطبه بقوله (يا بني أن أباك قد فنى وهو حي وعاش حتى سئم العيش وإني موصيك بما حفظته بلغت في قومك ما بلغته فأحفظ عني: - ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك وأبسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليم بشيء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم)[٥] والمتأمل بهذه الوصية يجدها إنها لا تنحصر في إطار العلاقة بين الأب والابن فقط وإنما تتحرك في أفق احترامه للجماعة ولمن هم أكبر منه سناً

(١) الحلبي، المصدر السابق، ١ / ١٣٦.

(٢) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر، ١٠ / ٣١٩ (كنى).

(٣) السجستاني، الوصايا والمعمرون، ص ١٤٧.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ط ثقافة، ٩ / ١١٠.

(٥) ذي الأصبع العدواني، ديوانه، ص ٧١؛ الأصفهاني، الأغاني، ط دار الكتب المصرية ٣ / ٩٨ - ٩٩؛ شيخو، المصدر السابق، ص ٦٣٢.

وعطفه وحنانه على الأصغر منه كما أنها تدل على صفاء الفكر وصحة الفطرة ودقة الملاحظة مثل ذلك المبدأ الداعي إلى إكرام الصغار واحترام وتقدير الكبار ولا شك إن مثل هذا التعامل الطيب مع الأطفال سينغرس في نفوسهم وينشئون على حبه وتقديره، وقد وجدت هذه المعاني الأخلاقية العالية طريقها إلى الإسلام فأقرها وهذا يتجلى لنا من حديث النبي محمد (ص) حيث يقول: - (ليس منا مكن لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر)[١] .

وهكذا نرى أن الطفل العربي تم تربيته وتنشئته وأعداده على احترام الوالدين والآخرين ونحن نجد أن ذلك قد ترك آثاراً على شخصيته وسلوكه وطباعه. ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن عند بعض الأبناء عقوق تجاه آبائهم[٢] . فهنالك صورة يظهر الابن ناكراً للجميل عاقاً ولعل ما كان يجري في قبيلة (مهرة) مثالاً على ذلك قيل (جاء أبو جهم بن حذيفة العدوي وهو يومئذٍ ابن مائة سنة إلى مجلس قريش فأوسعوا له عن صدر المجلس، فقال أبو جهم يا بني أخي أنتم خير لكبيركم من مهرة لكبيرهم، قالوا: ما شأن مهرة وكبيرهم؟ قال: كان الرجل منهم إذا أسن وضعف أتاه ابنه أو وليه فعقله[٣] ثم قال قم: فأن أستتم قائماً وإلا حمله إلى مجلس لهم يجري على أحدهم فيه رزقه حتى يموت. فجاء شاب منهم فعمل ذلك فلم يستتم قائماً فحمله فقال يا بني: - أين تذهب بي؟ فقال إلى سُنّة آبائك فقال يا بني لا

(١) أحمد بن حمبل، المسند، ٢ / ١٨٥؛ عبد بن حميد أبو محمد المكي، مسند عبد بن حميد، ١ / ٢٠٢؛ الترمذي، السنن، ٤ / ٣٢٢؛ الطبراني المعجم الكبير، ٨ / ١٦٧؛ الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ١ / ٢٦١؛ السرخسي، المبسوط، ١٣ / ١٣٩.

(٢) ينظر أبو عبيدة، العققة والبررة تحقيق عبد السلام محمد هارون، نوادر المخطوطات ٢ / ٣٢٩ - ٣٧٠.

(٣) شد ساقه إلى ركبته، الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٢١٠. *)

تفعل فو الله لقد كنت تمشي خلفي فما أخالفك وأما شيك فما أبذك وأسقيك الدواية قائماً فقال لا جرم[1] لا أذهب بك فاتخذته مَهَرَةَ سُنة)[2] .

وسواء أصحت القصة وما ورد فيها من أقوال منسوبة إلى شخصيتها أم لم تصح فأن فيها صورة تعكس شيئاً عن طبيعة تلك القبيلة هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن هذا التصرف لا يمكن تعميمه على بقية القبائل الأخرى. فالحكماء القدماء كانوا يوصون أولادهم باحترام الشيخ الكبير قال (احيقار): - يا بني إذا رأيت رجلاً أسن منك قف له إجلالاً[3] كما أن العراقي القديم كان يوصي دائماً أخاه الأصغر (احترم أخاك الأكبر)[4] وإن الوصايا العربية التي أوردنا نتفاً منها وغيرها[5] لم نعثر فيها على أية إشارة توصيهم بعدم احترام الكبار وامتهانهم والحط من شأنهم بل كانت توصي فيهم خيراً وكانت تأتي تلك التعليمات من الآباء للأبناء وغالباً بصيغة الأمر. كما ندعم ما توصلنا إليه في أعلاه بما جاء بالأخبار عن (دريد بن الصمه) أنه عندما أسن وشاخ وكلّ به قومه أمه تخدمه[6] وتقوم برعايته كما أن

(١) أبذك: أسبقك، والدواية: يعني اللبن، السجستاني، المعمرون، ص ١٤٧، لا جرم: لابد ولا محالة، أنظر ابن دريد الاشتقاق، ص ٢٩٠؛ الشريف المرتضى، المصدر السابق، ١ / ١١٠.)

(٢) السجستاني، المصدر السابق، ١٤٧؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار، ٢ / ٥٨ - ٥٩، وقد نسبها إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأبو جهم هذا هو عبد الله أبو حذيفة ابن غانم من بني عدي بن كعب بن لؤي بن غالب، راجع ابن هشام، المصدر السابق، ق ١ / ١٥٠؛ مصعب الزبيري، المصدر السابق، ص ٣٦٥؛ ابن النديم، المصدر السابق، ص ١٦٢؛ ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، ص ٢٢٠، وكان واحداً من علماء الأنساب استعمله الرسول (ص) على الغنائم يوم حنين وعلى بعض الصدقات، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٥، ١٥٦، وكان شاعراً يخاف للسانه كثير الذكر للأمهات بالمثالب، الجاحظ، البيان والتبيين، ١ / ٣٢٢.

(٣) غريغورس بهنام بولس، المصدر السابق، ص ١١٧، السطر (٦١).

(٤) فرانكفورت، المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(٥) السجستاني، المصدر السابق، ص ١٤ - ١٥، ١٢٢، ١٢٣ - ١٢٥، ١٣٠ - ١٣١؛ الأصفهاني، الأغاني ط دار الكتب المصرية ٣ / ٩٨ - ٩٩.

(٦) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة ٩ / ٢٤ - ٢٥؛ شيخو، المصدر السابق، ص ٧٦٨.

التعاليم السماوية توصي بإكرام الوالدين فعندما جاء الإسلام فرض على الولد احترام ورعاية والديه قال تعالى: - (وقضى ربك ألا تعبد إلا إياه وبالوالدين إحسانا أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً (٢٣) وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً (٢٤))[١] .

٥ - دور الأسرة في تعليم الأبناء الفروسية

عمدت الأسرة العربية على تعليم أبنائها الفروسية واستخدام أنواع السلاح لكي ينشأوا على الشجاعة لأنهم (كانوا يربون أبناءهم على البطولة والمحامد)[٢] فالشجاعة ولدت مع العربي منذ طفولته وأنه شب وكبر وهي تسري في دمه فطالما (فزع طفلُ على قعقعة السلاح وصياح المقاتلين وسمع الأقاصيص عن شجعان من القبيلة حموها وردوا المغيرين عليها أو هجموا على أخرى وأجلوها، ثم شب فرأى الرماح تشتبك والسيوف تشتجر والقسي تتقارع والأبطال في الميدان تتصارع، ثم كبر فشارك في المواقع وأفنى العمر في المعارك)[٣] . فلا عجب إن كانت الشجاعة خلقاً عاماً في العرب ولا عجب إن ورث منهم أبنائهم الشجاعة والفروسية لأنه من المقرر أن مهارة الأفراد في الفروسية وركوب الخيل... ترجع في الغالب إلى استعداد فطري ورثه الأبناء عن آبائهم وأجدادهم الذين تمرسوا زمناً طويلاً بالحروب[٤] . وإذا تقصينا أيام العرب وجدناها كثيرة حتى أفرد لها بعض المؤرخين كتباً أو فصولاً طوالاً[٥] ، ألفناها تزخر ببطولة الرجال وفخارهم

(١) سورة الإسراء / ٢٣ - ٢٤.

(٢) أحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٢٢٤.

(٣) أحمد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ٤٣١ - ٤٣٢.

(٤) علي عبد الواحد وافي، الهنود الحمر، ص ٧٣.

(٥) ينظر: أبو عبيدة، أيام العرب ق ١ / ٧٧ وما بعدها؛ الميداني، المصدر السابق ٢ / ٤٣٠ - ٤٤٨، ابن عبد ربه / المصدر السابق ٥ / ١٣٣ - ٢٦٩؛ ابن الأثير، الكامل ١ / ٢٩٨ وما =

وحسن بلائهم والعرب تقول للغلام إذا بلغ عشر سنين (رمي) أي قويت يده فإذا بلغ عشرين قالوا (لوى) أي لوى يد غيره، وكانوا يعلمون أولادهم على الرماية والفروسية في مقتبل العمر وكان السلاح الأول للصبي: المقلاع مع الحصى ثم يقتني لنفسه رمحاً أو سكيناً[1] .

وكان الصبيان يتعلمون الرماية على يد رماة ماهرين، فأهل الحيرة كانوا يعلمون أولادهم الرمي بالنشاب ليكونوا من الرماة المهرة حتى يستطيعوا أن يقهروا أعدائهم في الحروب[2] .

ومن أجل إعداد النشء كمقاتلين جيدين كانوا يدربونهم على الرمي وعلى الطعن حتى يكونوا ذوي خبرة في القتال فلا يتمكن منهم عدو بسهولة وفي جملة الوسائل التي كان يتدرب عليها في رمي السهام: - الكتابُ سهمُ صغير مدور الرأس يتعلم به الصبي الرمي[3] .

كما أنهم كانوا يستخدمون الجباع (سهم قصير يرمي به الصبيان يجعلون على رأسه تمرة لئلا يعقر عن كراع)[4] أي حتى لا يصيب الدواب فيعقرها.

ومن الوسائل التي كان يتدرب عليها الغلمان ما يعرف بـ (الدريئة) وهي حلقة يتعلم عليها الطعن[5] والرمي[6] حيث كانت تثبت على عود أو قضيب فيرمون عليها[7] ولها ذكر في الشعر العربي القديم[8] وعناها عمرو بن معد يكرب الزبيدي بقوله: -

---

= بعدها، محمد أحمد جاد المولى وآخرون، المصدر السابق، ص ٢ وما بعدها.

(١) مهدي عربي الدخيلي، بسطام بن قيس، ص ١٢٦ ينظر في هذه الصفحة هامش رقم (١).

(٢) جواد علي، المفصل ٥ / ٤٢٧.

(٣) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ١ / ٤٤٥.

(٤) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٥ / ٢٩٥.

(٥) الزمخشري، أساس البلاغة، ص ١٢٨؛ ابن منظور، المصدر السابق، ٤ / ٢٠٠.

(٦) شيخو، المصدر السابق، ص ٧٦٨.

(٧) المرزوقي، ديوان الحماسة ق ١ / ١٣٦.

(٨) ابن منظور، المصدر السابق، ٤ / ٢٠٠.

وقفت كأني للرماح دريئة

أقاتل عن أحساب جرم وفرت[1]

أما كيفية الطعن بالرمح عليها فبعد تثبيت العود أو القضيب الذي تكون الدريئة أعلاه على الأرض بارتفاع معين يتباعد الفارس عنه، ثم يجري فرسه باتجاهه، فإذا قرب منها تأبط رمحه وطعن في الحلقة ثم يخلصه منها ويكرر ذلك لغرض التدريب[2] وأورد الميداني خبراً عن قيام رجل من بني نزار بتعليم الرماية لأحد الأشخاص من بني أسد[3] وهكذا كان العرب يدربون أبناءهم على استعمال القوس والرمح حينما يستطيعون حمله[4].

أما من أساليب الطعن فحسب فهمنا لما ذكره امرؤ القيس عندما قال:

نَطْعَنُهُمْ سُلكى ومخلُوجة لَفْتَكَ لأمَينِ على نابِلِ[5]

فيظهر منه أن هنالك طريقتين: -

الأولى: - الطعنة المستقيمة تلقاء الوجه وهي التي تعرف باسم (السلكى)[6].

الثانية: - الطعنة إذا كانت غير مستقيمة تذهب يميناً أو شمالاً وهي التي

---

(١) ديوانه، ص ٤٥؛ محمد بن داود الجراح، من أسمه عمرو من الشعراء في الجاهلية والإسلام، ص ١٠١؛ الزبيدي، المصدر السابق ط الكويت ١ / ٢٢٣ ورد فيه لفظ (ظلت) بدل (وقفت)، و (أبناء) بدل (احساب).

(٢) ابن هذيل، حلية الفرسان، ص ٢٠٦.

(٣) الميداني، المصدر السابق، ١ / ٣٦٣.

(٤) واصف بطرس غالي، المصدر السابق، ص ١٩٧.

(٥) ديوانه، ص ١٢٠؛ الاصمعيات، ص ١٢٩.

(٦) الفيروز آبادي، المصدر السابق ٣ / ٣١٧ (سلك).

يطلق عليها لفظ (مخلوجة)[1] وذكر ابن صاعد الأندلسي أن الهمداني ألف كتاباً تحت عنوان (اليعسوب) في الرمي والقسي والسهام والنضال[2] .

وكانت العرب ترى أن من تقوية الأطفال تعليمهم الرمي والنضال (**) منذ نعومة أظفارهم وعنفوان أعمارهم)[3] وروي أن (عبد المطلب بن هاشم) جد النبي محمدﷺ كان في صغره يتناضل بالسهام مع أقرانه عند أخواله بني النجار[4] .

هذا وقد اشتهر عند العرب بعض الرماة بدقة إصابتهم للهدف وهم اللذين يعرفون بـ (رماة الحدق (***) ففي كتب الأخبار قصص عن دقة إصابة هؤلاء الرماة[5] ووقالت العرب (أرمى من ابن تقن) وهو رجل من عاد وكان أرمى من تعاطى الرمي[6] وكذلك اشتهرت بعض الأسر العربية بدقة الرمي كبني القارة وهما (الأيسر) و (الديش) ابنا محلم بن غالب بن عائذة) من بني الهون بن خزيمة[7] فقيل أنهم أرمى حي في العرب، ولهم يقال (قد أنصف القارة من راماها)[8] وكذلك اشتهر بنو وابش[9] من عدوان[10] بجودة الرمي حتى ضرب العرب بهم المثل[11] وقد تحدث

---

(١) امرئ القيس، ديوانه، ص ١٢٠.

(٢) طبقات الأمم، ص ٦٨.

(٣) مصطفى جواد، الطفل عند العرب، ص ٢٩٩.

(٤) ابن سعد، المصدر السابق ١ / ١٣٧؛ الحسني، المصدر السابق، ص ٢١.

(٥) البلاري، أنساب الأشراف ١ / ٧٧؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ١ / ٢١٨.

(٦) حمزة بن الحسن الأصفهاني، الدرة الفاخرة، ١ / ٢١١.

(٧) ابن حزم، المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٨) البلاذري، أنساب الأشراف ١ / ٧٧؛ اليعقوبي، تاريخ ١ / ٢٠٢، ابن عبد ربه، المصدر السابق ٣ / ٣٤١؛ الشريف المرتضى، المصدر السابق، ٢ / ٩.

(٩) ابن الأثير مجد الدين المبارك، المرصع، ص ٣٩٩.

(١٠) هم بنو وابش بن زيد بن عدون بن عمرو بن قيس عيلان راجع ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٦٧؛ ياقوت، المقتضب ٢ / ١٨١.

(١١) ابن الأثير مجد الدين المبارك، المرصع، ص ٣٣٩.

(عمرو بن معدي يكرب) الزبيدي عنهم وأشاد بدقتهم في الرمي[1] وبنو (ثعل) من طي وهم الذين عنتهم العرب بقولها: - (رب رامٍ من بني ثعل)[2] . وفي معركة أحد عرض على رسول الله ﷺ عدد من الغلمان للمشاركة في المعركة فردهم عن القتال إلا (رافع بن خديج) لأنه كان رامياً[3] علماً إن العرب قبل الإسلام كانوا يجرون مسابقات في الرمي[4] وذكر (جواد علي) أنه نظراً لاشتهار العرب بالرمي ودقتهم بإصابة الأهداف فقد استعان الفرس والروم بالرماة الماهرين منهم وكونوا فرقاً خاصة في جيوشهم، وقد أشار الكتاب الكلاسيكيين إلى كتائب الرماة التي كوّنها الروم عندهم[5] .

لقد درّب العرب أبناءهم على أنواع السلاح المعروفة لديهم كافة من السيوف ورماح ونصال وأقواس وسهام فقد روي إن (كليب بن ربيعة) (نشأ في حجر أبيه ودرب على الحرب)[6] وسبق أن وضحنا قيام (أبي الخريف عبيد بن نشبه) بتدريب (الحارث بن ظالم) المرء على استخدام السلاح، ومن ثم قيام (الحارث) نفسه بمهمة تدريب الصبيان والفتيان على استخدام السلاح[7] .

وذكر أن (مالك بن فهم) كان يعلم ابنه (سليمة) الرمي حتى أتقنه، واتفق أن رمى (سليمة) بالليل فوقع السهم في أبيه وهو لا يدري فلما علم (مالك) أن ابنه رماه قال: -

جــزانــي لا جــزاهُ الله خــيــراً ... ســلــيــمــة أنــه شــراً جــزانــي

---

(١) ديوانه، ص ١٢٢.

(٢) المغيري، المنتخب في ذكر قبائل العرب، ص ٧٩ وجاء في هذا المصدر أنهم ينسبون إلى بني عمرو بن الغوث الطائي.

(٣) المقريزي، إمتاع الأسماع، ١ / ١١٩.

(٤) الحسن بن عبد الله، آثار الأول، ص ١٥٨.

(٥) المفصل ٥ / ٤٢٧.

(٦) شيخو، المصدر السابق، ص ١٥١.

(٧) راجع هذا المبحث، ص ٩٤.

أعلمه الرماية كل يوم   فلما اشتد ساعده رماني

ومات على إثر ذلك وهرب (سليمة) إلى عمان[1] .

وبعد أن يشب الصبي يبدأ العرب بتدريبه على الفروسية حيث ورد أنه (كان الناشئ من أبنائهم لا يكاد يصل إلى الثامنة من سنه حتى يحتم عليه أن يتعلم ركوب الخيل ويتدرب على فن الفروسية)[2] وقيل أن تعلم الفروسية عند العرب تكون ما بين سن ست أو سبع سنين[3] وتمتد إلى سن البلوغ[4] وقالت العرب: (لا يتفرس إنسان بعد أربعين سنة)[5] وعرف العرب منذ القدم بأنهم (كانوا يربون أبناءهم على البطولة والمحامد) وينشئونهم على القوة والشدة[6] وكانت الأسرة العربية تعنى بتعليم أبنائها على الفروسية وركوب الخيل وكانت عندهم قواعد يجب الالتزام بها ومراعاتها منها الخفة في الوثوب والنزول وأن يتدرب على ركوب الفرس من غير سرج ولا غطاء، وأن يثب عليه وثباً وأن يميل ظهره ويجعل اعتماده على شد الفخذين فهو أصل الثبات ثم يقود السير ثم الجري، ثم الطرد وغيرها من القواعد[7] . وقد نقل (شريف يوسف) تلك الشروط والقواعد عند حديثه عن رياضة ووسائل اللهو عند العرب ولكن دون التصريح بمصدر معلوماته[8] وقالت

(١) مالك بن فهم كان أحد ملوك الحيرة، حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض، ص ٨٤؛ الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص ٦١؛ يوسف رزق الله غنيمة، الحيرة، ص ١١٧.

(٢) محمد كامل علوي، الرياضة البدنية عند العرب، ص ٥٥.

(٣) البلدي، تدبير الحبالى، ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٤) الاشبيني، المصدر السابق، ١ / ٢٠٥.

(٥) الهمداني، الإكليل ١٠ / ٧٤.

(٦) أحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ص ٢٢٤.

(٧) للتفصيل، راجع، الحسن بن عبد الله، المصدر السابق، ص ١٥٤ - ١٥٥، وقد تحدث في هذا المصدر باسهاب عن تلك القواعد.

(٨) شريف يوسف، الرياضة واللهو عند العرب، مجلة التراث الشعبي، عدد (٩)، بغداد، ١٩٧٧، ص ١٠٢.

العرب أنه لابد للفارس من التمرن والتعلم على ركوب الخيل على العري وعلى السرج وإمساك العنان لأنها أساس الفروسية[1] وقيل أن أصل الفروسية الثبات[2] وإن من لم يتفرس على العري لا يصح ركوبه وثباته ولا يزال قلقاً في سرجه حين يسوق (وكثير من العرب إذا أجهده الطلب وتفاخر طلبه رمى بسرجه ونشطت الفرس فنجا، فلزم كل فارس أن يتعلم الركوب عرياً)[3] .

وقالوا أنه على من أراد التفرس على العري لبسه ثياباً خفيفة وإلجام فرسه، وإن يشد عليه جل صوف أو شعر، ويوثق الحزام، وإن استوى على ظهره جمع العنان في يديه، ولا يطول في الطلق لأنه يفسدها وعدم إدماء فمها باللجام فإذا أتقن ذلك فقد تعلم أصل الركوب[4] .

وكان من إرشادات العرب لأبنائهم في تعليمهم ركوب الخيل أن يثبوا عليها وثباً وقالوا إذا وثبت فأضرب باليد اليمنى في وثبتك صفحة عنق الفرس من الجاني الأيمن واستعن بها وأركب[5] وروي عن (عمر بن الخطاب) (رض) أنه قال (لا تزالون أصحاء ما نزعتم ونزوتم)[6] وقال أيضاً (وانزوا على الخيل نزواً)[7] أي اركبوا وثبوا[8] . ولو لم تكن تلك الطريقة

---

(١) ابن قيم الجوزية، الفروسية، ص ١٨ - ١٩.

(٢) ابن هذيل، حلية الفرسان، ص ١٣١.

(٣) أحمد بن محمد الحموي، النفحات المسكية، ص ٤١.

(٤) ابن هذيل، المصدر السابق، ص ١٣١.

(٥) كامل علوي، المصدر السابق، ص ٤١.

(٦) المبرد، الكامل ٢ / ٢٠، ابن عبد ربه، المصدر السابق ١ / ١٩٠ وقد ورد في المصدر الأخير بلفظ (لن تخور قوامكم ما نزوتم ونزعتم) نزعتم: في القسي، ونزوتم: أي وثبتوا على ظهور الخيل، الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٤٥١، ٤٥٥.

(٧) ابن دريد الاشتقاق، ص ٣١؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق ١ / ١٩٠.

(٨) ابن دريد، المصدر نفسه، ص ٣١.

قد أثبتت نجاحها وفعاليتها عند العرب قبل الإسلام لما كان (عمر) يرشد إليها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فأن فيها فوائد منها تدريب المقاتلين على سرعة امتطاء صهوة الجياد والانطلاق مباشرة مما يفوت على العدو فرصة رصدهم في أثناء ركوبهم الخيل والنيل منهم، كما أنها تساعد على إنقاذ صاحبها إذا ما سقط عن جواده فبإمكانه أن يثب عليها إضافة إلى سرعة وانجاد من يحتاج العون في ساعات الوغى. كما أنه يشير إلى أسلوب العرب كان سليماً وصحيحاً في تنشئة أبنائهم قبل الإسلام، وعكس قيم وتقاليد مجتمعهم واحتياجاته لذا كتب عمر بن الخطاب (رض) إلى ولاة الأمصار أن يكون تعلم الأطفال مشتملاً على السباحة واستعمال السهم والفروسية والأمثال وأحسن الأشعار[١] .

وبعد أن يتم تدريب الفتى على الفروسية ومرانه على احتمال المشاق وخوض المكاره وبناء قوته الجسمية فأنه يحتاج إلى الشكة أي السلاح[٢] والعرب عامة يعنون بالسلاح ويحبون اقتناء ويُفتَنونَ في اختياره ولا عجب فأنهم في بيئة تقدر السلاح ومنفعته فهو عُدتهم بالحروب والصيد ومما يدل على عظمة السلاح عندهم أنهم يقدمونه على المال ولذلك قالوا (السلاح على اللقاح)[٣] وقد دفعهم الاهتمام بالسلاح إلى أنهم كانوا يوصون عند احتضارهم بدفعه إلى من يثقون بمقدرتهم على حمله وصيانته كالذي فعله (حجر) والد (امرئ القيس) حين أوصى بدفع سلاحه وخيله إلى أكثر أبنائه قوة وجلداً[٤] أو إلى من هو أهل لحفظه والدفاع عنه كما فعل ذلك (النعمان

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ٢ / ١٨٠، وأنظر كذلك ابن قيم الجوزية، الفروسية، ص ٩.

(٢) ابن قتيبة، المعاني الكبير ١ / ١٠٧.

(٣) المفضل، الفاخر، ص ٢٣٨؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، ١/ ١٥٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣ / ١٤٣.

(٤) الأصفهاني، الأغاني ط دار الكتب ٩ / ٨٧.

بن المنذر) ملك الحيرة عندما استودع سلاحه وأهله عند (هاني بن قبيصة) الشيباني بعد استدعاء (كسرى) إليه ثم الغدر به[1] .

وكان عدة السلاح عندهم سيف عضب[2] ورمح، ودرع، فقد عدّ (قيس بن خفاف) البرجمي عدته حين قال: -

فأصبحت أعددتُ للنائبا ... ت عرضاً بريئاً وعضباً صقيلاً

ووقع لسانٍ كحدِ السنان ... ورمحاً طويلَ القناة عَسُولا

وسابغةُ مِنْ جياد الرو ... ع تسمعُ للسيفِ فيها صليلا[3]

ويزيد في عدته القوس والسهام لتقذف السم في الأعداء[4] .

ومثلما اهتم العرب بتنشئة أبنائهم وتعليمهم امتطاء الخيول فأن ذلك الاهتمام امتد إلى الخيول نفسها ومما يدل على شرفها وفضلها عند العرب وعند الله تعالى أن ذكرها الباريء عز وجل في كتابه العزيز حيث قسم بها بقوله ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾[5] لأنها جزء من عدة الظفر والقتال وكان العربي يعرف كيف يُصبر الجواد في المعركة والسيوف من حوله والسهام تصب عليه، وكيف يكر بصاحبه ولا يجفل أو يكبوا أو يرتد عن المعركة، وعن كيفية تدريب العرب للفرس على خوض غمار المعارك فقد روي أنه حينما (تضع الفرس وليدها تجتمع الأسرة حولها وتستقبله بالصياح والتهليل وإمارات الفرح لأنه هبة من الله وبركة منه، ثم يأخذه أحد أفراد الأسرة بين ذراعيه

---

(١) للمزيد من المعلومات راجع محمود عبد الله إبراهيم العبيدي، بنو شيبان، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) سيف عضب: سيف قاطع، الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٣٠٤. *

(٣) الصقيل: - المصقول، الرمح العسول: - المضطرب للينه، الدروع السابغة: - الطويلة الواسعة، الصليل: - الصوت، الأنباري، شرح ديوان المفضليات، ص ٧٥٥.

(٤) عمر الدسوقي، الفتوة، ص ٤٧.

(٥) القرآن الكريم، سورة العاديات / ١ - ٣. والضبح: - صوت أنفاس الخيل، راجع الراغب الأصفهاني، مفردات، ص ٥٠١.

ويسير به مدة في موكب صاخب، وبهذه الطريقة يتعود المهر منذ نشأته الأولى إلا يخاف شيئاً، وأن يكون هادئاً وسط الميدان وقعقعة السلاح وجلبته[١] ثم يعود به إلى أمه)[٢] وكان العرب يقدمون التهاني لبعضهم البعض إذا ولدت الفرس[٣] كما كانوا يعلقون على خيلهم خرزة أو عظماً أو تميمةُ خوفاً من العين الحسد، وقد نهى الرسول محمد (ص) عن ذلك[٤] .

وبغية إعداد الفرس وتدريبها على حمل الفارس فأنهم كانوا يحملون عليها غلماناً خفافاً يجربونها، ولا يعنفون بها حتى تتعود على ذلك وهو ما يعرف لديهم بـ (تضمير الخيل)[٥] . ومن مظاهر عنايتهم بالخيل أن العربي كان يؤثر الفرس على ولده ونفسه[٦] وكانوا يقولون (إنا لنؤثر جيادنا على أولادنا)[٧] وقال (يزيد بن عبد المدان) لدريد بن الصمة (وأما بكاء صبياننا فأننا نبدأ بالخيل قبل العيال)[٨] والخير عندهم معلق بنواصي الخيل[٩] وكان العربي يوصي أبناءه وأقرباءه بها (وعليكم بالخيل فأكرموها فإنها حصون العرب)[١٠] . وهكذا نرى أنهم فضلوها على أولادهم لأنها تحمي الأسرة

---

(١) ورد بالأصل بلفظ (وجلبة السلاح) فحذفناها خشية التكرار. *

(٢) عمر الدسوقي، المصدر السابق، ص ٤١.

(٣) ابن الأعرابي، أسماء خيل العرب، المقدمة، ص ٧؛ عبد الكريم النهشلي القيرواني، المصدر السابق، ص ٢٥؛ الغندجاني، أسماء خيل العرب، ص ١٥؛ ابن رشيق، المصدر السابق، ١ / ٦٥.

(٤) ابن قيم الجوزية، الفروسية، ص ١٣.

(٥) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٣ / ٣٥٣.

(٦) شرح ديوان عنترة (ضمن شرح ديوان طرفة وعلقمة)، ص ١٩٦ البيت الأول، الصعيدي، مختار الشعر الجاهلي، ص ٣٥٥، نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص ١٣٩ - ١٤٩.

(٧) المفضل بن سلمة، الفاخر، ص ٢٣٨؛ ابن سيد الناس، المصدر السابق، ١ / ١٥٣. باختلاف الألفاظ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣ / ١٤٣.

(٨) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة، ١٠ / ٣٧.

(٩) ابن قيم الجوزية، الفروسية، ص ٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢٥٨/٥؛ الآلوسي، بلوغ الأرب، ٢/ ٧٥.

(١٠) المفضل بن سلمة، الفاخر، ص ٢٦٢.

وتجلب الرزق وبها يدافع عن القبيلة، وقال الأحنف بن قيس: - لا تزال العرب بخير ما لبست العمائم، وتقلدت السيوف وركبت الخيل[1] ولأهمية الخيل عند العرب ألف كثير من العلماء كتباً فيها نجد ذكرهم في (الفهرست)[2] .

لقد كان العرب قبل الإسلام نتيجة ظروف المناخ القاسية وطبيعة حياتهم القبلية في الجزيرة العربية يعيشون حياة تتطلب الخشونة لذا كانوا ينشئون أبناءهم تنشئة تتسم بالقوة والشدة بهدف التكيف مع تلك المستلزمات فاهتموا بالفروسية وبناء الجسم القوي فقد ورد (أن اهتمام العرب بتنشئة أبنائهم على الخيل وتعويدهم على ركوبها كانت ضرورة تحتمها الظروف القاسية وكانت هذه التنشئة وقفاً على أبناء العرب من ذوي النسب فقط، أما العبيد فعملهم يقتصر على الرعي والخدمة، وكانت رياضة ركوب الخيل من الخصال التي ينشأ عليها الشباب في البادية، ويظلون محتفظين بها معتزين بأصولها لأنها دليل على الحيوية والنشاط)[3] وكانوا يقدرون الفارس حق قدره ويحسبون للقبيلة حسابات أخرى إذا ظهر فيها الفرسان صناديد ممن كان صيتهم يملأ الآفاق[4] .

أن الفارس العربي وفرسه كانا يتشاطران الحياة ويتلازمان مما دعا تعريف كل منهما باسم الآخر فلقد كان يقال: فارس الضحياء وهو (عامر بن عامر بن ربيعة)[5] وفارس الأدهم وهو (عنترة بن عمرو بن معاوية)

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ٢ / ٨٨.

(٢) ابن النديم، ص ١٠٣، ١١٩، ٤٣٧.

(٣) نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٤) واصف بطرس غالي، المصدر السابق، ص ٣٧؛ أحمد عبيدات، المصدر السابق، ص ٢١.

(٥) ابن الأعرابي، الخيل، ص ٥٨، ابن سيده، المصدر السابق، ٢/١٩٦؛ القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٣٩١.

الغطفاني[١] وفارس قرزل وهو (عامر بن طفيل)[٢] .

وكان مما يفخر به المرء أن يحوز لقب صاحب الخيل مثل: - زيد الخيل[٣] و (زيد الفوارس)[٤] ونظراً لمكانة الخيل عند العرب وما لها في حياتهم من مكانة سامية فقد كانوا يجرون مسابقات لها[٥] .

إن تنشئة العرب لأبنائهم وتربيتهم على فنون الفروسية وقيامهم بممارسة هواياتهم من خلال الصيد والطرد وسياق الخيل لا شك أن تلك المواقف تكون فرصة طيبة في سبيل صقل مواهب الصبيان والفتيان وإبرازها، وهي بمثابة تعريف على الفروسية والشجاعة وتطبيق ما تدربوا وتعلموا عليه من الرماية وفنون الفروسية ومما هو جدير بالذكر أن الفنان العربي القديم قد ترك لنا العديد من التماثيل التي تجسد الخيل. أنظر شكل رقم (١)[٦] .

---

(١) ابن الكلبي، أنساب الخيل، ص ٦٩، ابن الأعرابي، المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٢) ابن الكلبي، المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٣) ابن الأعرابي، المصدر السابق، ص ٥٤؛ الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٥ / ٥١٦ (منع).

(٤) ابن الأعرابي، المصدر السابق، ص ٤٠؛ ابن سيده، المصدر السابق، ٢ / ١٩٥.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٠٦؛ المسعودي، مروج الذهب ٣ / ٣٧٢ - ٣٧٣؛ ابن الأثير مجد الدين المبارك، المرصع، ص ٨٤؛ ابن خلدون، تاريخ ٢ / ٦٣٢.

(٦) أنظر ملحق رقم (١) ص ٢١٦.



المبحث الثاني
عامــل القبيلــة

١ - تنشئة الأبناء على الولاء للقبيلة

القبيلة في اللغة تعني: - التحالف والتعاقد[١] وتتألف من مجموعة من الأسر، يشكلون حياً أو قوماً ويعتقدون أنهم ينحدرون من أصل واحد وتربطهم رابطة الدم والقرابة ومن مجموع هذه الأحياء والأقوام تتكون القبيلة[٢] وهي إلى جانب وظيفتها الاجتماعية وحدة سياسية[٣] .

وكانت القبيلة بمثابة الأسرة الكبيرة قال (عمرو بن دراك) العبدي: -

تـمـيـم أسـرتـي وُهـم جـنـاحـي   وقـيـس مـن أديـمـهـم أديـمـي[٤]

كما إن الأسرة لم تكن منفصلة أو متميزة عنها بل (كانت هي والقبيلة كياناً واحداً عماده العصبية وقرابة الدم والعداء لكل ما هو خارج عن إطارها)[٥] ، ولذا كان من المقومات الأساسية في المجتمع العربي آنذاك

---

(١) ابن منظور، المصدر السابق ١١ / ٥٤٠ - ٥٤١؛ الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٨ / ٧٢ - ٧٣.

(٢) جواد علي، المفصل ٥ / ١٨٤ محمد محمود جمعة، المصدر السابق، ص ١٠ - ١١؛ لطفي عبد الوهاب يحيى، العرب في العصور القديمة، ص ٢٩؛ يحيى الجبوري، مقدمة في الجاهلية، ص ٤٣.

(٣) عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية ١ / ٧؛ صالح أحمد العلي، المحاضرات، ص ١٥٢.

(٤) عبد الكريم النهشلي القيرواني، الممتع في الشعر العربي وعمله، ص ٢٦.

(٥) زهير حطب، المصدر السابق، ص ١٠٧.

هي ظاهرة الولاء للقبيلة وتتمثل هذه الظاهرة بشعور المرء أن رابطة الدم والنسب التي عبر عنها (ابن خلدون) بالعصبية القبلية[1] ، تفرض عليه واجباً اجتماعياً وخلقياً بالتضحية في سبيل قبيلته[2] . وفي مناصرته لأبنائها ظالمين أو مظلومين[3] وبهذا يكون قد تحمل مسؤولية قد تعرضه لفقد حياته وهكذا يكون أبناء القبيلة يؤلفون أسرة واحدة كبيرة يعملون من أجل خير المجموع[4] ، فشعور الفرد بهذا الإحساس يجعله يعيش في قبيلته وأنه قطعة من هذا الجسد وعضو من أعضاءه[5] فهو قد ألف قومه يهرعون إلى أول نداء له كما تكشف عن ذلك أبيات للشاعر (قريظ بن أنيف) العنبري حيث يقول : -

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا[6]

وكذلك يشعر بأنها الحامي والمدافع عنه وهذا الأمر يستدعي منه أن يكون دائماً مقاتلاً مضحياً في سبيلها لأنها الملجأ الذي يلجأ إليه في الشدائد والمحن[7] .

إن ما يحمله الفرد في ذاته وفي روحه تجاه أبناء عمومته في نجدتهم إذا

---

(١) المقدمة، ص ١٢٨.

(٢) جواد علي، المفصل ١ / ٣٦٥ - ٣٣٦.

(٣) ابن عبد ربه، المصدر السابق ٣ / ١٠٢؛ الميداني، المصدر السابق ٢ / ٣٣٤؛ رودلف زلهايم، الأمثال العربية القديمة، ص ٣٣؛ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ١ / ١٨؛ حسن إبراهيم حسن، المصدر السابق ١ / ٥٧.

(٤) فيليب حتي، المصدر السابق، ١ / ٣٣ - ٣٧؛ واصف بطرس غالي، المصدر السابق، ٥١ -٥٢.

(٥) عبد الكريم الخطيب، الخلافة والإمامة، ص٢٧؛ عبد المعين الملوحي، المنصفات، المقدمة صفحة ث.

(٦) البحتري، حماسة، ص ٢٩.

(٧) البحتري، المصدر نفسه، ص ٢٩.

ما أصيبوا بمكروه وفي تلبية نداء رئيس قبيلته للدفاع عنها فهذه المسؤولية تجاه الجماعة كانت ذا صبغة أخلاقية[1] . فقد نشأ العربي، وتربى عليها منذ صغره، حتى أصبحت جزءاً من سلوكه وشخصيته. لأن الأب كان يرشد أولاده إليها، ويحرص على تربيتهم على تلك المثل والقيم العربية وكان يسعى جاهداً على نقل تلك التقاليد إليهم وهذا ما علّمه (هبيرة بن عمرو بن جرثومة) النهدي إلى أبناءه في وصية إليهم وقد أثبتها (البكري) شعراً[2] .

إن الأسر العربية عَدّت الفرد للافتخار بقبيلته قبل أن يفتخر بأسرته (وكانت أمجاد كل أسرة على حدة تؤلف تراثاً يعود على المجموع ويزيد ويقوى من جيل إلى جيل)[3] ، وهكذا كانت القبيلة هي المركز الرئيس الذي ينتمي إليه كل أبنائها ومنه يستمدون المجد، ونستدل على ذلك بما جاء في خطبة (حاجب بن زرارة) أمام كسرى حيث عبر فيها عن فخره بقبيلته معللاً هذا الفخر فقال (لقد علمت العرب إنا فرع دعامتها، وقادة زحفها، قالوا: - ولم ذلك يا أخا بني تميم؟ قال لانّا أكثر الناس عديداً، وأنجبهم طراً وليداً، وأعطاهم للجزيل، وأحملهم للثقيل)[4] وحتى في فخره يستخدم (حاجب) ضمير الجمع في إضفاء مظاهر الفخر على مجموع القبيلة، فتميم من دون قبائل الجزيرة حلت سواد العراق لتكسب المال وتصيب الغنائم بعد نزوحها منها[5] والعرب تنشئ أبنائها منذ الصغر على العمل لمصلحة القبيلة والتعلق برأي جماعته وصوابه في تقدير المواقف الذي يقع فيه أحد أبنائها، ويفخر بالتزامه برأي المجموع كما ينصح الآخرين بوجوب اتباعه، من ذلك ما يتضح في قول (عبد الله بن الزبعري):

(١) صالح أحمد العلي، المحاضرات، ص ١٣٤؛ حسن إبراهيم حسن، المصدر السابق ١ / ٦٥.

(٢) معجم ما استعجم ١ / ٣٣.

(٣) واصف بطرس غالي، المصدر السابق، ص ٥٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى ١ / ٣٧٩؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ١ / ٢٨٢.

(٥) ابن عبد ربه، المصدر السابق ٢ / ٢٠.

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي وإن صالحت إخوانها لا ألومها[١]

كما أن العربي يتربى على مساندة ودعم رأي القبيلة والسير في ركابها حتى لو كان مخالفاً لرأيه الذي يجد الصواب فيه، وهذا ما نستشفه من دالية (دريد بن الصمة) الذي جسد لنا هذا التفاني في حب القبيلة ونظامها ومصلحتها حيث يقول: -

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

فلما عصوني كنت منهم وقد رأى غوايتهم وأنني غير معتدي

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد[٢]

ولما كان العربي قد نشأ على الوقوف مع القبيلة والدفاع عنها إذا تعرضت لما يهدد وجودها ويستهدف حياتها ويتعاطف معها لذا فإنه لا يألوا جهداً ولا يعدم وسيلة إلا استخدمها إذا ما داهمها خطر فكان من عادتهم أن الرجل إذا رأى الغارة قد فاجأتهم وأراد إنذار قومه تجرد من ثيابه وأشار ليعلم أنه قد فاجأهم أمر ويقال لذلك الرجل (النذير العريان)[٣] عندها وجب على كل فرد من القبيلة قادر على القتال الدفاع عنها، أما إذا عزمت على غزو غيرها فأنه يجتمع عندئذ كل بالغ سليم الغزو، معها علماً أن المحاربين كانوا هم الذين يجهزون أنفسهم بالسلاح[٤].

مما هو جدير بالذكر إن روح العصبية القبلية لا تكون وقفاً على الرجال فقط بل إن المرأة كانت تشعر بنفس شعورهم فإذا ما نشبت حرب بين حي أهلها فإنها تميل مع قبيلتها وهذا ما نفهمه من موقف (سلمى بنت عمرو)

---

(١) ابن رشيق العمدة، ١ / ٦٥؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ٣ / ٨٤ - ٨٥.

(٢) الأصمعي، الأصمعيات، ص ١٠٧؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٥ / ١٦٩؛ الأصفهاني، الأغاني، ١٠ / ٨؛ العسكري، جمهرة الأمثال ١ / ١٩٥.

(٣) الميداني، المصدر السابق ١ / ٤٨ - ٤٩؛ الفيروز آبادي، المصدر السابق ٢ / ١٤٦.

(٤) جواد علي، المفصل ٥ / ٤١٩، ٤٣٤.

النجارية التي كانت متزوجة من (أحيحة بن الجلاح) الأوسي الذي عزم على غزو قومها فعندها استخدمت كل السبل للحيلولة دون ذلك حتى إنها أخذت حبلاً وأوثقته برأس الحصن الذي تعيش به مع زوجها، ثم نزلت منه، وانطلقت إلى قومها فأنذرتهم بالذي أجمع هو وقومه عليه، فأخذ القوم حذرهم ولذلك أطلق عليها أسم سلمى المتدلية، فلما أتى إليهم وجد القوم على حذر ولذا لم يكن بينهم قتال شديد، وعندما رجع (أحيحة) لم يجد زوجته في بيتها لأنها بقيت عند قومها ففطن إلى سبب حذر القوم وعلم أن زوجته (سلمى) قد فعلت ذلك[١] . وكما فعلت أخت (زهير بن جناب) وكانت متزوجة في بني (القين بن جسر) حيث أرسلت إليهم إشارة بعد أن عزم قوم زوجها على غزو قبيلتها فاحتالوا لذلك واحتملوا له[٢] .

كما نستطيع أن نستدل على مدى ارتباط المرأة بعصبيتها بقبيلتها من خلال محافظتها على نسبها إلى قومها الذي كان محط فخرٍ وعزٍ لها، وتتباهى به وتذكره في محافلها، وهذا يبين لنا من خلال موقف (رومي) سيدة نجران الثرية[٣] . التي أكدت على صلتها بعشيرتها (جو) التي تنتسب إليها لا إلى عشيرة زوجها[٤] .

والقبيلة تتضامن مع أبنائها سواء في الدفاع عنهم أو في طلب الثأر[٥] وكذلك في السعي بإطلاق سراحهم من الأسر[٦] ، أو في المساهمة بدفع

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ط ١، طبعة دار الكتب المصرية ١٥ / ٤٩ - ٥٠؛ ابن الأثير، الكامل ١ / ٤٠٤.

(٢) ابن الأثير، المصدر نفسه، ١ / ٣٠١؛ جاسم محمد عيسى الجبوري، قبيلة كلب ودورها في التاريخ العربي، ص ٥٥.

(٣) بيغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة، ص ٣٠٣؛ كوبيشانوف، الشمال الشرقي الأفريقي، ص ٣١ ورد في هذا المصدر أن أسم الملك هو (معد يكرب) من عشيرة ذي يزن.

(٤) أنظر بيغوليفسكايا، بيزنطة في طريق الهند، ص ١٥٥، ١٦٤.

(٥) حسن إبراهيم حسن، المصدر السابق ١ / ٦٦؛ J. Lecerf, op. cit, vol. 3, p. 30.

(٦) هادي الحمداني، المصدر السابق، ص ٣٩.

الديات عنهم قالت العرب (في الجريرة تشترك العشيرة)[1] أو في اشتراك الجميع بمواردهم وأموالهم وقرائحهم لنصرة واحد منهم كما حدث عندما تشاجر (حاتم الطائي) وبنو لام[2] ، والقبيلة بأجمعها تفي بعهد أحد رجالها كما فعلت بنو تميم بالتزامها بما تعهد به (حاجب بن زرارة) عندما نزلوا سواد العراق وذلك بعدم الإغارة على أهله أو المناطق المجاورة له[3] . وهكذا يتضح لنا أن المرء العربي ينشأ على حب الجماعة والتمسك برأيها وعدم الخروج عن إرادتها وهذا موروث عندهم ينتقل من الآباء إلى الأبناء لغرض الحفاظ على وحدة القبيلة وتماسكها.

ونظراً لأهمية الشعر في حياة العرب[4] فقد كانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وتضع الأطعمة، ويجتمع النسوة يلعبن بالمزاهر كما يفعلن في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان خيراً[5] لقد كان الشاعر لسان القبيلة وداعيتها وهو في ذلك صحيفة أدبية خالدة[6] . وسلاح القول عند العرب كان أشد وقعاً من سلاح اليد وأعظم أثراً في نفوس الناس[7] فالشاعر يحامي عن أبناء قومه ويهاجم الأعداء لأنه جزء لا يتجزأ منهم

---

(١) الميداني، المصدر السابق ٢ / ٧٣؛ مسكويه، الحكمة الخالدة، ص ١٧٤؛ عمر الدسوقي، الفتوة عند العرب، ص ٦١.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة ١٧ / ٢٨٣ وما بعدها؛ شيخو، المصدر السابق، ص١٠١ - ١٠٣.

(٣) ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٠٨، ابن عبد ربه، المصدر السابق ٢ / ٢٠.

(٤) ابن عبد ربه، المصدر السابق ٥ / ٢٩٥.

(٥) عبد الكريم النهشلي القيرواني، المصدر السابق، ص ٢٥؛ ابن رشيق، العمدة ١ / ٦٥؛ نوري حمودي القيسي، الفروسية، ص ٢٦٩.

(٦) إحسان النص، الخطابة العربية، ص ٢٠؛ ظافر القاسمي، الحياة الاجتماعية عند العرب، ص ٣٨؛ عبد اللطيف حمزة، المصدر السابق، ص ٢٥ - ٢٦.

(٧) منير بكر التكريتي، الشعر إعلام العرب وصحافتهم، مجلة كلية الآداب، ع (١٩)، بغداد، ١٩٧٦، ص ١٣٩.

وشخصيته تذوب في إطار القبيلة[1] . وهو يحمي العرض ويدافع عن الأحساب ويخلد المآثر، ويشيد الذكر فهو لسان القوم دفاعاً وتخليداً والتزاماً يُرِدْ عنهم سهام الخصوم ويؤكد حقهم في الحياة[2] ، وهو يسخر شعره لخدمة القبيلة وبث هيبتها في نفوس أعدائها[3] فيلهب جذوة الحماس في النفوس ويدفع الفارس إلى الإقدام وبذلك يساعد على كسب النصر لقبيلته[4] وشعر الشعراء مليء بوصف مسهب لأيام القبيلة وبطولاتها وانتصاراتها، وزاخر بفخر واسع في أنفتهم، ومنعتهم، وعزتهم، وعددهم[5].

والشاعر يعيش في كنف مفاهيم القبيلة وأهدافها لا يخرج عليها ولا يلتزم سواها، وكان العرب يحفظون الأشعار ويروونها ويتناقلون الأخبار بالتلقين رجلاً عن رجل وكانت هذه الأخبار والأشعار تغذيهم وتدفعهم إلى الأخلاق الكريمة والاقتداء بأبطالها[6] ولم يقتصر حفظ الشعر وروايته على الشعراء وتلاميذهم (وإنما امتد ليشمل أبناء قبائلهم)[7] ، فقد ذكر أن قبيلة تغلب كانت تحفظ معلقة (عمرو بن كلثوم (ألا هبي بصحنك فأصبحينا)[8] ، التي يفخر بها في قومه فكانت (بنو تغلب تعظمها جداً ويرويها صغارهم وكبارهم)[9] . فتغلب جعلت هذه القصيدة ما يشبه نشيداً لها حتى اهجوا

---

(١) خباب سمير كريم اللامي، الشعر السياسي قبل الإسلام، رسالة ماجستير، مطبوعة بالآلة الطابعة، البصرة، ١٩٩٩، ص ٤٧.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ١ / ٢٤١، ٤ / ٨٣؛ إحسان النص، العصبية القبلية، ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٣) محمود عبد الجادر، شعر أوس بن حجر، ص ٤٣٥.

(٤) جواد علي، المفصل ٥ / ٣٨٧.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين ١ / ٢٤١.

(٦) محمود مصري، المصدر السابق، ص ٤٨.

(٧) هاشم يحيى الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٣٩٧.

(٨) الزوزني، المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٩) الأصفهاني، الأغاني، ط ١ طبعة دار الكتب المصرية ١١ / ٥٤؛ شيخو، المصدر السابق، ص ٢٠٣.

بذلك أحد شعراء (بكر بن وائل) موجهاً كلامه إلى بني (جشم) رهط (عمرو بن كلثوم): -

ألهى بني جشم عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبداً مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسئوم[1]

ماذا يمكن أن نستنتج من النص أعلاه؟ إن ذلك النص يبين لنا أن قبيلة تغلب كانت تحرص أشد الحرص على تعليم صغارها الشعر، وتنشئهم على حفظه تهيئة لحفظ أشعار شعرائها، وكذلك لغرض إعدادهم ليكونوا شعراء في المستقبل، وتنمية ملكة الشعر فيهم، ونعتقد إن هذا الأمر كان متبعاً عند بقية القبائل العربية الأخرى أيضاً. كما نستفيد منها أن الرواية الشفهية من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل كانت الأسلوب الذي يتبع في نقل أبناء القبائل لشعر شعرائهم وفي أخبار العرب قبل الإسلام[2] .

٢ - مشاركة الصبيان في فعاليات القبيلة

أ - مشاركتهم في اجتماعات القبيلة

لعبت القبيلة دوراً في تنشئة أطفالها وتربيتهم وإعدادهم وكان هذا الدور يمتد إلى ما قبل ولادتهم لأن الموافقة على الزواج كانت تتم عن طريق مجلس القبيلة حيث كان للمجلس رأي في اختيار القرين، فالزواج لم يكن شأناً خاصاً عند العرب قبل الإسلام بل كان شأناً تابعاً للقبيلة[3] (يبت فيه مجلس القبيلة وأعيانها ورؤساء عشائرها يرشح أو يوافق أو يرفض صيغة أو مشروع زواج مقترحاً عليه على ضوء ومصلحة القبيلة)[4] ونستطيع أن نستدل

(١) المبرد، الكامل ١ / ١٦٣ ورد في هذا المصدر لفظ (يفاخرون) بدل (يرونها)؛ ابن دريد، الاشتقاق، ص ٣٣٩؛ الأصفهاني، الأغاني، ط ١، طبعة دار الكتب المصرية ١١ / ٥٤.

(٢) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، ص ١٩٠؛ بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ص ٩٩ - ١١٧.

(٣) محمد محمود جمعة، المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٤) زهير حطب، المصدر السابق، ص ٤٥.

على ذلك مما ذكره ابن هشام في أثناء حديثه عن بناء (قصي بن كلاب) لدار الندوة حيث قال (فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش... إلا في داره)[1] وقد تيمنت قريش بعده بأمره هذا[2] وذكر المؤرخون أنه كان يتم في هذا الدار الإعلان عن بلوغ أبناء القبيلة وبناتها سن الرشد[3] وعندما اتفق (ربيعة بن مكدم) على الزواج من امرأة من نساء حيهم فقالت له: - (قد زوجتك نفسي فاحضر غداً مجلس الحي ليعلموا ذلك)[4] وهكذا يتضح لنا أنه لم يتحرر الزواج وهو الخطوة الأولى لبناء الأسرة وإنجاب الأطفال ومن ثم تنشئتهم من سلطة مجلس القبيلة.

ومن مظاهر تأثير القبيلة على تنشئة الأبناء وإعدادهم من خلال حضورهم مجلس القبيلة، ذكر إن (مالك بن جعفر) من بني (عامر بن صعصعة) كان يصطحب معه ولداه (عامر) و (طفيل) إلى مجلس قبيلتهم[5] .

وما يدلنا على أن الأبناء كانوا يحضرون مجلس القبيلة أيضاً ما روي أن (عمرو بن خويلد بن عمرو بن كلاب) ــ وكان سيداً يطعم بعكاظ ــ[6] أنه كان يحضر إلى مجلس قبيلة بني عامر بن صعصعة وفي معيته ولداه (زرعة) و (يزيد)[7] . وذكر أن (بسطام بن قيس) الشيباني قد شارك في مجلس (قومه

(١) المصدر السابق ق ١ / ١٢٥.

(٢) ابن هشام، المصدر السابق ق ١ / ١٢٥؛ الازرقي، المصدر السابق ١ / ١٠٧؛ الطبري، تاريخ ٢ / ٢٥٨؛ ابن الأثير، المصدر السابق ٢ / ٢١.

(٣) ابن سعد، المصدر السابق ١ / ٣١؛ الازرقي، المصدر السابق ١ / ١١٠؛ البلاذري، أنساب الأشراف ١ / ٥٢؛ الطبري، المصدر نفسه ٢ / ٢٥٩.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ط ١، طبعة دار الكتب المصرية ١٦ / ٧٣؛ عبد الله عفيفي، المصدر السابق ١ / ٥٤.

(٥) أبو عبيد=ة، أيام العرب، ق ١ / ٤٩٩؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٣ / ٣٦٠؛ الأصفهاني، الأغاني، ط ١ طبعة دار الكتب، ١١ / ١٢٦؛ ابن الأثير، الكامل، ١ / ٣٤٠.

(٦) ابن حزم، المصدر السابق، ص ٢٨٩ وقد ورد فيه باسم (خويلد بن تقبل) والصواب ما أثبتاه.

(٧) أبو عبيدة، النقائض ٢ / ١٠٦، وكتابه الآخر، أيام العرب ق ١ / ٥٠٠؛ الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة ١١ / ٩٤.

منذ الصغر)[١] ، فهذه الإشارات تدل على أن الآباء كانوا يصطحبون أولادهم معهم إلى مجلس القبيلة الذي يتم فيه مناقشة شؤونها كافة فهو الذي يبت في منازعاتها وحروبها وأمنها ورخائها وفض المنازعات وتنظيم حياتها وتسوية العلاقات مع القبائل الأخرى، ، وإعلان الحرب وعقد الصلح[٢] وفيه ينشد الشعراء أشعارهم ويروون الحكم والأمثال[٣] فهو (إذاً مدرسة أدبية تربي الأفراد على قوة البيان واللغة وتكشف المواهب الأدبية والسياسية)[٤] وغالباً ما كان ينعقد ذلك المجلس في المساء ويتبادلون فيه أطراف الحديث، والعرب تطلق على ذلك لفظ (السمر)[٥] .

ويعد مجلس القبيلة بمثابة مجلس قضاء أيضاً حيث يفد عليه من له خصومة يعرضها على ذوي الأمر والنهي والسادة للبت في خصومهم ولأنصافهم[٦] ، وهكذا يتعلم الأبناء منذ صغرهم ومن خلال حضورهم لمجلس القبيلة كيفية الاشتراك فيه[٧] . كما أنهم يتعلمون القيم والعادات والأعراف والتقاليد والأحكام الخاصة بالمجتمع[٨] وبذلك ينشئون على المفاهيم والأخلاق المرغوب فيها والابتعاد عن كل ما هو مرفوض لديهم، فحضور الصبيان هذه المجالس تهيأهم للقيادة والرئاسة وقد قيل أن بعض الشخصيات قد ترأسوا قبائلهم وهم في بداية شبابهم فقد ترأس

---

(١) مهدي عربي حسين الدخيلي، بسطام بن قيس، ص ١٠٩.

(٢) للتفصيل راجع: - عبد العزيز السالم، المصدر السابق، ص ٤١٥؛ محمد محمود جمعة، المصدر السابق، ص ١٧٥؛ صالح العلي، المحاضرات، ص ١٥٥؛ انجلز، المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٣) عبد اللطيف حمزة، الأعلام في صدر الإسلام، ص ٢٥.

(٤) صالح أحمد العلي، المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٥) الزبيدي، تاج العروس، ط الكويت ١٢ / ٧٣، ٧٤ (سمر).

(٦) جواد علي، المفصل ٥ / ٥٠٦.

(٧) عاطف وصفي، المصدر السابق، ص ١١٣.

(٨) حقي الحلي وآخرون، مبادئ التربية، ص ٤٢.

(بسطام بن قيس) قبيلة بني شيبان وهو ابن عشرين سنة[١] ، وأن (عمرو بن كلثوم) التغلبي ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة كما يزعمون[٢] وكذلك (سوّدت قريش أبا جهل [*] ولم يطرُّ شاربه) فأدخلته مع الكهول دار الندوة[٣] التي من تقاليدها أن لا يدخلها إلا من كان عمره أربعين سنة وأكثر[٤] وكذلك دخلها (حكيم بن حزام)، وعمره خمس عشرة سنة[٥] فهؤلاء كانوا من ذوي القدرات الخاصة الذين عرفوا بأنهم من أصحاب الرأي والمشورة ولهذا فسحوا لهم المجال بدخول دار الندوة. وكذلك (صخر بن عمرو) السلمي عندما ساد قومه وهو شاب، قالت أخته الخنساء (ساد عشيرته أمرداً)[٦] .

إن سيادة القبيلة من أشخاص حديثي السن ليس فيها مثلبة لأنهم اختاروه عن تجربة ورضا واقتناع وإن علاقته بمن هم أقدم منه سيادة وأكبر منه سناً علاقة احترام. وقد جسد (الأعشى) تلك المعاني في مدحه (لهوذة بن علي) الحنفي الذي ترأس قومه وهو شاب[٧] فتحمل المسؤولية ونهض بها، وإذا كانت الرئاسة للمسن فإنها مع ذلك تكون متاحة للشبان لأن (الإعداد

---

(١) مهدي عربي حسين الدخيلي، بسطام بن قيس، ص ١٠٩.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة ١١ / ٤٧ ح القالي، الأمالي ٢ / ٧، ٨؛ الزوزني، المصدر السابق، ص ١٩٨؛ البكري، سمط اللالي ٢ / ٦٣٦.

(٣) ابن قتيبة، عيون الأخبار ١ / ٢٣٠، وأنظر البغدادي، خزانة الأدب ١ / ٤٧٨ وفي رواية أخرى أنه دخلها وعمره ثلاثين سنة راجع ابن دريد، الاشتقاق، ص ١١٥.

(٤) الازرقي، المصدر السابق١ / ١٠٩؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ٢ / ١٨٨؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ١ / ٤٨؛ نزار الحديثي، الأمة والدولة، ص ٤٧.

(٥) الزبير بن بكار، نسب قريش، ص ٣٥٤، ٣٧٦؛ صالح العلي، المحاضرات، ص ١١١.

(٦) ديوانها، ص ٣٢؛ المبرد، الكامل ٤ / ٤٩، النويري، نهاية الأرب ٣ / ١٩٠.

(٧) الأعشى، ديوانه، ص ١٠٩؛ نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص ٣٧ - ٣٨؛ مصطفى عبد اللطيف جياووك؛ سيد القبيلة في الشعر العربي القديم، مجلة الخليج العربي، ع (٣ - ٤)، البصرة، ١٩٨٥، ص ٣٨.

والاستعداد للسيادة يبدأ مع النشأة ويكون ميسوراً في الشباب ولكنه يصبح صعباً حين يتقدم به العمر)[١] .

وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله: -

إذا المرء أعيته السيادة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه عسير[٢]

وهنالك رواية تعود إلى العصر الإسلامي إلا أنه يستدل من خلالها أنه كان من عادة الآباء في تنشئة أبنائهم وتربيتهم أنهم كانوا عندما يعودون من مجالس القوم أو مشاهدتهم يُحدثون أبنائهم بما كان يجري فيها لكي يطلعوا عليها ويكونوا على بينة بتاريخ القبيلة حتى يصبح لهم ذخيرة في حياتهم وهذا نفهمه من قول (لبيد بن ربيعة) إلى رجل من غنى عندما أعرب الأخير عن دهشته واستغرابه وعدم سماعه عما جرى بين (لبيد) عندما كان غلاماً، وبين (الربيع بن زياد) العبسي في مجلس (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة [*] فرد عليه (لبيد) قائلاً: - (يا ابن أخي لم تدرك سنكُ مثل ذلك، ولا كان أبوك ممن يشهد تلك المشاهد فيحدثك)[٣] علماً أن من بين تلك المشاهد أيامهم وحروبهم، ومن الطريف في ذلك ما ذكره الميداني رواية عن ابن الأعرابي قال ذكروا أن رجلاً قدم من غزاة فأتاه جيرانه يسألونه عن الخبر فجعلت امرأته تقول قتل من القوم كذا، وهزم كذا وجرح فلان فقال ابنها متعجباً (أبي يغزو وأمي تـُحدث) فذهبت مثلاً[٤] فأطفال العرب كانت تلقى على مسامعهم قصص المجالس والمشاهد والغزوات والحروب لما لها من أهمية كبيرة في حياتهم المقبلة لأنها تمثل تاريخ قبائلهم. كما أن مشاركة الصبيان في وفود قبائلهم إلى الملوك والرؤساء دليل على أثر القبيلة في

---

(١) مهدي عربي حسين الدخيلي، بسطام بن قيس، ص ٧٠.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين١/ ٢٧٤؛ مصطفى عبد اللطيف جياووك، سيد القبيلة في الشعر العربي القديم، ص ٣٧.

(٣) الأصفهاني، المصدر نفسه ١٥ / ٣٦٧.

(٤) مجمع الأمثال ١ / ٤٩.

التنشئة الاجتماعية، فقد رُوِيَ إن (عمر بن الخطاب) (رض) عندما كان غلاماً، شارك في وفد قريش من أهل مكة الذي قدم إلى الحيرة، وقد استقبلهم الملك (النعمان بن المنذر) في قصره وسألهم عن حرمهم ومعاشهم وأجزل لهم الجوائز[١] .

وكان العرب يتخذون من مجلس قومهم منبراً لتعريف الناس بأبنائهم الذين كانوا يعيشون في مناطق بعيدة عن سكن قبيلتهم وذلك عندما يأتون بهم، قيل أن (المطلب بن عبد مناف) عندما قدم بابن أخيه (عبد المطلب بن هاشم) من يثرب بعد أن نشأ وتربى في أحضان أمه (سلمى) النجارية (أتى به مجلس بني عبد مناف فقال: - هذا ابن أخيكم هاشم وأخبرهم خبره) المشهور[٢] .

كما كانوا يشهدون مجالسهم على الأحداث المهمة كدخول أفراد في جماعتهم أو إلحاقهم بنسبهم أو جعل بعض الناس في كنفهم روي أنه لما اختار (زيد بن حارثة) رسول الله ﷺ دون أبويه جاء به رسول الله ﷺ إلى مجلس قومه فقال: - اشهدوا يا أهل مكة أن زيداً مني وأنا منه[٣] ، فلم يزل عند الرسول ﷺ حتى بعثه الله فصدقه وأسلم وكان يسمى (زيد بن محمد) فلما أنزل الله عز وجل: - (أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله)[٤] قال أنا (زيد بن حارثة)[٥] . إن حضور الصبي لمجلس القبيلة الاجتماعات العامة لها معانٍ تربوية فهي بمثابة إعلان من عالم الكبار أنهم واعون بعالم أبنائهم من الصبيان الناشئين.

---

(١) الهمداني، الإكليل، تحقيق الأب إنستانس ماري الكرملي ٨ / ٣٥.

(٢) أنظر، الحسني، عمدة الطالب، ص ٢٢.

(٣) السهيلي، المصدر السابق، ١ / ١٦٤؛ أحمد عبيدات، المصدر السابق، ص ٦٧.

(٤) القرآن الكريم، سورة الأحزاب / ٥.

(٥) للتفصيل عن تلك الأحداث راجع، ابن هشام، المصدر السابق، ق ١ / ٢٤٧ - ٢٤٩؛ السهيلي، المصدر السابق، ١ / ١٦٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢ / ٢٢٤.

كذلك حضر النبي محمدﷺ وهو غلام وكان عمره خمس عشرة سنة[1] عقد حلف الفضول في دار (عبد الله بن جدعان) لمساعدة المظلوم من ظالمه[2] وقد عقدته قريش بعد حرب الفجار، وكان الفجار في شوال والحلف في ذي القعدة[3] .

إن مشاركة الصبيان في مثل هذه الأعمال والمساهمة في فعاليات القبيلة كان لها دور مهم في التنشئة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام لأنها تساهم في صقل شخصية الصبي، وتدربه وتعلمه كيفية إدارة النقاش في مجلس القبيلة أو في الاجتماعات العامة، وإن استماعه لآراء الشيوخ وكبار السن وأصحاب الرأي وما يقدمونه من حلول بشأن المشكلات التي يتم مناقشتها في تلك الاجتماعات واللقاءات إنما هي تعبير عن طول خبرتهم وتجربتهم في الحياة، فاستماعه لكل ذلك سوف ينعكس في شخصيته ويتعلم منها، وإن ما ينشأ عليه من قيم وعادات وفضائل فإنها تترعرع في نفسه وتنمو كلما تقدم به العمر وبذلك تترسخ تلك القيم والعادات عنده فتصبح جزءاً لا يتجزأ من تربيته وأخلاقه، وأنها تبقى عالقة في ذهنه ويتذكرها عندما يكبر وخير دليل على ذلك أن الرسول (ص) كانت مساهمته في حضوره الاجتماع الذي عقد فيه حلف الفضول موضع اعتزازه وفخره فقد

---

(١) ابن هشام المصدر السابق ق ١ / ١٨٤؛ الخضري بك، المصدر السابق ١ / ٩٥.

(٢) ابن هشام، المصدر السابق، ق ١ / ١٣٣ - ١٣٤؛ اليعقوبي، تاريخ ٢ / ١٥ - ١٦؛ المسعودي، مروج الذهب ٢ / ٢٧٩ - ٢٨٠؛ أبو هلال العسكري، الأوائل، ص ٤٧؛ ابن الأثير، الكامل ٢ / ٢٥ - ٢٦، محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٤١٩ - ٤٢٠.

(٣) ابن سعد، المصدر السابق ١ / ٦١؛ المسعودي، المصدر نفسه ٢ / ٢٧٩ جاء في هذا المصدر (وانتهى الفجار في شوال وكان حلف الفضول بعد منصرفهم من الفجار)، وهي الحرب التي وقعت بين قبيلة كنانة وقبيلة قيس بن عيلان من هوازن وقد دخلت قريش هذه الحرب لمناصرة حليفتها كنانة وقد سميت بحرب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم التي لا يجوز فيها القتال، للتفصيل راجع ابن هشام، المصدر السابق، ق ١ / ١٨٤ - ١٨٧؛ الازرقي، المصدر السابق ١ / ١١٥؛ الأصفهاني، الأغاني، ط الثقافة، ٢٢ / ٦٠ - ٨١؛ ابن الأثير، الكامل ١ / ٣٥٨ - ٣٦٣.

روي عنه (ص) قوله: - (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمر النعم ولو أدعى به الإسلام لأجبت)[١] كما أن العديد من تلك القيم والمعاني السامية التي نشأ عليها العرب منذ صغرهم وتربوا عليها وتَلَقَنُوُها في أحياء قبيلتهم بقيت راسخة في نفوسهم واستمر أثرها حتى بعد ظهور الإسلام[٢] .

ب - مشاركتهم في أيامها.

تعد أيام العرب [*] جزءاً من حياتهم التي عرفوها آنذاك وتحتل مكانة في نفوسهم، (فقد توارثوا أخبارها جيلاً عن جيل وأحاطوها بهالةٍ من التمجيد والتعظيم ورأوا فيها مصدر فخرهم الكبير)[٣] . ومن الطبيعي أن تطبع تلك الأيام مجتمع قبل الإسلام بطابعها بحيث تكون عاملاً مؤثراً في أساليب الحياة فيهم وفي القيم التي تسودهم وفي تنشئة أبنائهم وقد عرف عن العرب أنها أمة كانت تمجد الشجاعة والإقدام وتربي أجيالها على أساليب الحرب والطعان[٤] .

وفي أيام العرب تبرز الأعمال المجيدة التي يقوم بها الأفراد الذين يتميزوا بخصال فاضلة وانطلاقاً من ذلك يقدم (ابن عبد ربه) الفصل الخاص بأيام العرب في العقد الفريد قائلاً أن أيام العرب ووقائعهم (مآثر الجاهلية

---

(١) ابن هشام، المصدر السابق، ق ١ / ١٣٤؛ حسن السندوبي، المصدر السابق، ص ٧١؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١٨٠؛ أبو هلال العسكري، المصدر السابق، ص ٤٧؛ ابن سيد الناس، المصدر السابق ١ / ٤٦ - ٤٧؛ دلال جويد تعبان، الأحلاف في الشعر العربي، ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) للتفصيل راجع الفصل الرابع، ص ١٧٧ وما بعدها.

(٣) منذر الجبوري، أيام العرب في الجاهلية، مجلة المورد، مجلد (٢)، عدد (١)، بغداد، ١٩٧٣، ص ٤٤.

(٤) عمرو بن معدي كرب الزبيدي، ديوانه، ص ٤٥ (بيت رقم ١٠)؛ ابن حبيب، المحبر ص ٩٢١؛ حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض، ص ٨٤؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص ٢٥٣؛ الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص ٦١.

ومكارم الأخلاق السنية)[١] . لأن فيها يظهر ما يتمتع به الأفراد من صفات حميدة تعد مآثر كصبرهم في القتال أو تحملهم شتى أنواع الأذى، أو صفات رديئة تـُعد مثالب كالفرار من القتال أو عدم مناصرة بعض الأفراد لقبيلتهم في الحرب مثل ما حدث في يوم (النفراوات) وهو يوم انتصرت فيه (عامر) على (عبس) فإن خذلان (عبس) عـُزي إلى عجرفة (زهير بن جذيمة) العبسي وعدم تضامنه مع قبيلته[٢] فتلك الصفات التي كانت مصدر شرف للقبيلة أو عار عليها، فأن لها الأثر في نفوس الأطفال وفي تنشئتهم، فهي تبقى في مخيلتهم وذاكرتهم إضافة إلى حديث رجال ونساء القبيلة عنها سواء في خيمهم أو في مجالسهم إذ أنهم يذكرونها دائماً فيسمعها الأطفال فتظل عالقة في أذهانهم وكان الأبناء يفتخرون بانتصار قومهم كما فعل (قيس بن الخطيم) بانتصار قومه الأوس على الخزرج يوم بعاث[٣] . كما أنهم يعدون مآثر قومهم ويفتخرون بالمجد المؤثل في القدم للدلالة على قدم الشرف وحسن الفعال وكثرة المآثر[٤] ، لقد ساهم الصبيان في أيام العرب إذ أنهم لم يكونوا (بعيدين عن المعركة إذا وقعت فكل له دوره، يقاتل حسب طاقته ذلك أن أدوات القتال تبدأ بالعصي والخناجر والحجارة إلى السيوف والرماح والفؤوس والنبال)[٥] . فقد اشترك (حصن بن حذيفة بن بدر)

---

(١) العقد الفريد ٥ / ١٣٢.

(٢) ابن عبد ربه.

(٣) قيس بن الخطيم ديوانه ص ٤٣، ٤٧، إذ أنشد قائلاً

ويوم بُعاث أسلمتنا سيوفنا ... إلى نسب في جذم غسان ثاقب

وغيبت عني يوم كُنتي عشيرتي ... ويوم بعاث كان يوم التغالب

ابن الأثير، الكامل ١ / ٤١٨ - ٤١٩.

(٤) القلقشندي، القلائد الجمان، ص ١٣٢.

(٥) صالح موسى درادكة، الحرب عند القبائل العربية في الجاهلية، مجلة المؤرخ العربي، عدد (٢٩)، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٢٢.

الفزاري يوم (الهباءة) رغم صغر سنه[1] .

ذكر المؤرخون أنه في يوم عكاظ وهو اليوم الرابع من أيام حرب الفجار خرج (مسعود بن متعب) الثقفي وزوجته (سبيعة بنت شمس بن عبد مناف) وبنيه: - عروة، ولوحة، ونويرة والأسود، وهو يومئذ غلمان لملاقاة قريش ومن معهم من كنانة، وقد انهزمت قريش في أول المعركة عندما دارت رحاها، فضرب (مسعود) على زوجته خيمة وقال لها: - من دخلها من قريش فهو آمن. ولكن قريش عكفت على بني قيس ومن معها من هوازن فهزموهم ودارت عليهم الدوائر فأخذ الفارين منهم يدخلون خباء (سبيعة) القرشية مستجيرين، فأجار لها (حرب بن أمية) وقال لها: - من تمسك بأطناب خبائك ودار حوله فهو آمن، فنادت بذلك فاستدارت قيس بخبائها حتى كثروا فلم يبق أحد لا نجاة عنده إلا دار بخبائها فقيل لذلك الموضع مدار قيس وكان يضرب به المثل فتغضب قيس[2] وقد برز دور الصبيان في هذا اليوم من أيام العرب وما قاموا فيه من أعمال ومآثر خلدت أسمائهم فقالت سبيعة وهي توصي أبنائها الأربعة إذا أردتم أن تنالوا الفخر والعز في هذا اليوم والسيادة والرفعة والسؤدد في قومكم فعليكم بانجادهم بالوصول إلى خبائي حتى تسوّدوا فانطلق الصبيان الأربعة وهم قطعة من الشجعان والإقدام وكلمات الأم ترن في آذانهم وقد انطبعت على جدران ذاكرتهم، فالأم التي جاءت معهم إلى الحرب لم يسعها ذلك إلا بناء خيمة ساحة الوغى لتكون ملاذاً لرهط زوجها فكان أبنائها يدورون في (قيس) وبني

---

(١) الميداني، المصدر السابق، ٢ / ١١٦؛ ابن الأثير، الكامل، ١ / ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) للمزيد من المعلومات راجع الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة، ٢٢ / ٧٢ - ٧٥؛ النويري، المصدر السابق ١٥ / ٤٢٨؛ جواد علي، المفصل ٥ / ٣٨٣؛ غالي، تقاليد الفروسية، ص ١٠٩ - ١١٠؛ محمد أحمد جاد المولى، أيام العرب ص ٣٣٤ - ٣٣٦.

(هوازن)، يأخذون بأيديهم إلى خباء أمهم ليجيرونهم وهو ما أمرتهم أمهم أن يفعلوا[1] .

ورب سائل يسأل: - ماذا كانت الأم تهدف من وراء هذه الإرشادات والتعليمات لأبنائها؟ إنها كانت ترمي إلى إعلاء شأن أولادها وذيوع صيتهم بين العرب لأنه عندما يعود كلا الطرفين إلى قبائلهم فأنهم سوف يحدثون الناس بما جرى في ذلك اليوم ويخبرونهم أن الذين بقوا أحياء من قيس فأنهم تخلصوا من الموت بفضل أولاد مسعود بن متعب، الثقفي، أبناء (سبيعة بنت عبد شمس) القرشية، وهذا أمر له بعده لأنه سوف يشيع بين الناس الدور الذي قام به هؤلاء الصبيان وشجاعتهم فيمضون باحترام وتقدير أبناء المجتمع علماً أن هذه الصفات من العوامل التي تساعد المرء على تولي الرئاسة والزعامة في القبيلة وهذا ما سعت الأم إليه في تنشئتها لأبنائها عندما قالت لهم حتى تـُسودّوا، هذا من جانب ومن جانب آخر يتبين لنا أن التنشئة الاجتماعية عند العرب كانت لا تنحصر على أيام السلم فقط، بل وفي الحرب أيضاً.

وعند حديث الأصفهاني عن يوم (شعب جبلة) قال (وشهدها لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر وهو ابن تسع سنين، ويقال ابن بضع عشرة سنة)[2] . وفي حرب الفجار شارك رسول اللهﷺ في بعضها إلى جانب قريش[3] حيث أخرجه أعمامه معهم[4] ، فشهد بعض أيامها: - مثل يوم (شمطة)

(١) الأصفهاني، المصدر نفسه والطبعة، ٢٢ / ٧٤.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ط١، طبعة دار الكتب المصرية ١١ / ١٤٩.

(٣) ابن سعد، المصدر السابق، ١ / ٦١؛ ابن خلدون، تاريخ ٢ / ١٢٥؛ أمير علي، روح الإسلام، ص ٢٠؛ سعد زغلول، المصدر السابق، ص ٣١٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل ١ / ٣٦١، وهم: - الزبير، وأبو طالب، وحمزة والعباس؛ عبد العزيز السالم، المصدر السابق، ص ٥٠٢؛ نبيه عاقل، المصدر السابق، ص ٣٦٣.

ويوم (نخلة)[١] وذكروا أنه كان يرمي في (شمطة) بأسهم[٢] وشارك في يوم (عكاظ)[٣] حيث (شهده عليه الصلاة والسلام وله أربع عشر سنة)[٤] أو خمس عشرة سنة عندما هاجت حرب الفجار[٥] . وروي عنه ﷺ أنه قال: - (كنت أنبل أعمامي أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموا بها)[٦] وأنه قد ساهم بصورة فعلية في القتال إلى جانب أعمامه حيث ذكر (أبو عبيدة) إنه في يوم الفجار (طعن النبي - ﷺ - أبا براء ملاعب الأسنة)[٧] وقد روي عنه ﷺ إنه قال عن ذلك اليوم (قد حضرته مع عمومي ورميته فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت)[٨] .

ومن خلال دراستنا لهذا الجانب اتضح لنا أيضاً أن الصبيان لا يشتركون في القتال فقط بل هنالك حالات معينة كانوا قد تولوا فيها قيادة الجيش فقد

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف ١ / ١٠٠، ١٠٣، ابن الأثير، الكامل ١ / ٣٦١ وعن هذه الأيام راجع: - ابن رشيق، العمدة ٢ / ٢١٩؛ عبد العزيز السالم، المصدر السابق، ص ٥٠٢.

(٢) ابن سعد، المصدر السابق ١ / ٦١ وكان لهوازن على كنانة وقريش.

(٣) ابن الأثير، الكامل ١ / ٣٦١ وكان لكنانة وقريش على هوازن.

(٤) ابن عبد ربه، المصدر السابق ٥ / ٢٥٣؛ الأصفهاني، الأغاني، دار الثقافة، ص ٢٢ / ٦٣؛ الميداني، المصدر السابق ٢ / ٤٣٠؛ النويري، المصدر السابق ١٥ / ٤٢٥.

(٥) ابن هشام، المصدر السابق ق ١ / ١٨٤، الديار بكري، تاريخ الخميس ١ / ٢٥٩، في حين تذكر روايات أخرى أن عمره الشريف كان فيها عشرين سنة، ابن هشام، المصدر السابق ق ١ / ١٨١، المقدسي، البدء والتاريخ، ٤ / ١٣٥؛ ابن سعد، المصدر السابق ١ / ٦١؛ الأصفهاني، الأغاني ط الثقافة، ٢٢ / ٧٩؛ ابن الأثير الكامل ١ / ٣٦١؛ ابن سيد الناس، المصدر السابق ١ / ٤٦ في حين تذهب روايات أخرى أن عمره كان فيها إحدى وعشرين سنة راجع المسعودي، مروج الذهب ٢ / ٢٩٣.

(٦) ابن هشام، المصدر السابق، ق ١ / ١٨٦؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق ١٥ / ٢٥٣، الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الثقافة، ٢٢ / ٧٩؛ النويري، المصدر السابق، ١٥ / ٤٢٥، البيروني، الآثار الباقية، ص ٣٥.

(٧) الأصفهاني، المصدر نفسه والطبعة ٢٢ / ٧٩.

(٨) ابن سعد المصدر السابق، ١ / ١٢٨؛ الأصفهاني، المصدر نفسه والطبعة، ٢ / ٧٩.

ذكر (ابن عبد ربه)[١] ويؤيده (محمد بن ظفر) الصقلي[٢] ، أنه كان لقريش عادات في الحرب منها، أنهم إذا دخلوا حرباً أقرعوا بين أهل السيادة والرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيراً كان أو كبيراً، فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم فخرج سهم (العباس بن عبد المطلب) وهو يومئذ صغير فأجلسوه على فرش وأحاطوا به وأعتقد أن تدبير شؤون الحرب وإدارتها كان يتولاها من هو أكبر منه سناً وخبرة وأن لم تفصح المصادر عن هذا الموضوع.

ومن أعرف العرب وقيمهم في الحرب أنهم كانوا يحرمون قتل المرأة أو الهرم والطفل[٣] . وكان يوم الهباءة دليلاً على عدم قتلهم الأطفال[٤] . وأشار أحد الباحثين أنه لم أية حادثة تشير إلى قتل الأطفال حتى عند الأسر[٥] . وهذه من القيم الإنسانية الرفيعة والخلق الكريم، التي عرفها العرب، كما تدل على المكانة الكبيرة التي كالن يحظى بها الأطفال عندهم. وهناك خبر آخر على اشتراك الصبيان والغلمان في أيام العرب ففي يوم (النفراوات) شارك (معاوية بن عبادة بن عقيل) فارس (الهرار)[٦] من بني (ربيعة بن عامر بن صعصعه) (وهو يومئذٍ غلام له ذؤابتان وكان أصغر من ركب) من رجال قومه عندما ساروا لتقصي أثر سير (زهير بن جذيمة) العبسي ورهطه[٧] وقد أدركوهم في موضع يعرف باسم

---

(١) العقد الفريد ٣ / ٣١٥.

(٢) أنباء نجباء الأبناء، ص ٥٤.

(٣) ابن عبد ربه، المصدر السابق ١ / ١٢٩، ٣ / ١٠١.

(٤) الميداني، المصدر السابق ٢ / ١١٦؛ ابن الأثير، الكامل ١ / ٣٥٢ - ٣٥٣؛ عادل جاسم البياتي، الشعر في حرب داحس والغبراء، ص ١٣٣؛ عبد الغني غالي فارس، بنو فزارة، ص ٢٨.

(٥) هادي الحمداني، الأسر عند العرب، ص ٣٨.

(٦) ابن الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق محمود فردوس العظم، ٢ / ٣٤.

(٧) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة ١١ / ٨٠، ياقوت، المقتضب، ١ / ١٣٧ ورد في المصدر الأخير أسم الفرس بلفظ (الهزار).

(النفراوات)[١] . فلما شعر بهم زهير امتطى صهوة فرسه (القسعاء) وانطلق فتبعه (خالد بن جعفر) الكلابي فلم يتمكن من ادراكه، عندها قال خالد لمعاوية: - أدرك زهيراً[٢] . فأدركه وتمكن من (طعن فرس زهير بن جذيمة العبسي) فانخزلت به[٣] ولحقه (خالد بن جعفر) فقتله[٤] . وقد نعته ابن حزم بقوله (وكان معاوية يومئذٍ غلاماً)[٥] فكان لهذا الغلام الفضل لمشاركته في هذه المعركة حيث تمكن من اللحاق بالخصم والنيل منه بسبب سرعته وخفته، إذن ما يتصف به الصبيان من سرعة ونشاط وخفة في الحركة كان له أثر واضح في ميدان المعارك والمساهمة بصورة إيجابية بتحقيق النصر على الأعداء، ونستدل على ذلك أيضاً من يوم (رحرحان)[٦] وذلك بما أظهره (أنس بن خالد بن جعفر) الكلابي[٧] . حيث زعموا أنه كان يحمل ويقاتل قتالاً شديداً (حتى يميل على شق فرسه، فجعل يتعلق في جنبها فيجيء، رجل من غني فيرفعه ويقول استمسك بأبي أنت وأمي، وما هو يومئذٍ إلا غلام فسمي البطان)[٨] . أنظر شكل رقم (٢)[٩] .

---

(١) موضع في بلاد غطفان، راجع الحربي، المناسك وأماكن طرق الحج، ص ٦٠٢؛ البكري، معجم ما استعجم، ٢ / ٦٧٠.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ط دار الثقافة ١١ / ٨٠، محمد أحمد جاد المولى، أيام العرب، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٣) ابن الكلبي، جمهرة النسب ٢ / ٣٤.

(٤) ابن عبد ربه، المصدر السابق ٥ / ١٣٦؛ جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٣١٧؛ إسماعيل حسن العجلان، المصدر السابق، ص ٥٣.

(٥) ابن حزم، المصدر السابق، ص ٢٩١.

(٦) لعامر على تميم أنظر عنه أبو عبيدة، النقائض ١ / ٢٢٦ - ٢٢٧؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق ٥ / ١٣٩ - ١٤٠؛ ابن الأثير، الكامل ١ / ٣٣٦ وما بعدها.

(٧) ابن حزم، المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٨) أبو عبيدة، النقائض ٢ / ١٠٦٠.

(٩) راجع ملحق رقم (١) ص ٢١٧.

وفي حديث (ابن عبد ربه) عن يوم (الزورين)، ما يفيد عن اشتراك الأبناء إلى جانب الآباء في أيام العرب حيث يذكر قصة أسر بنو تميم إلى (حراث بن مالك) وكيف اتبعه ابنه (قتادة بن حارث) حتى لحق بالفارس الذي أسر أباه فطعنه فأرداه عن فرسه واستنقذ أباه[١] ، ويمكن أن نستدل على مشاركة الغلمان في القتال أن (دريد بن الصمة) قتل يوم حنين على يد (ربيعة بن رفيع) السلمي فقتله وهو غلام[٢] وكان قسم من الصبيان يشتركون في القتال حتى قبل أن يختتنوا[٣] ، وتنبئنا هذه النادرة التي ننقلها عن كتاب الأغاني على قوة وشجاعة فتيان العرب وعلى ما كانوا يتمتعون به من الفروسية وما تربوا عليه منذ صغرهم في سبيل التضحية من أجل حماية العرض. لقد وقف الغلام (ربيعة بن مكدم) في مدخل شعب (كديد) [*] بالرغم من جراحه لحماية الضعينة [**] التي كادت أن تقع في أسر العدو حتى تحققت لها النجاة وقضى هو نحبه على صهوة جواده والرمح في يده[٤] وقال أبو عبيدة وأنه يومئذٍ غلام له ذوابة[٥] . ولكنهم أطلقوا عليه ألقاب الفرسان مثل (فارس العرب)[٦] . و (حامي الضعينة) أو (فارس الضعينة)

---

(١) ابن عبد ربه، المصدر السابق ٥ / ٢٠٥، وكان هذا اليوم لبني بكر على تميم، راجع ابن الأثير الكامل، ١ / ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٢) ابن هشام، المصدر السابق ٤ / ٩٥؛ ابن حبيب، أسماء المغتالين (منشور ضمن كتاب نوادر المخطوطات)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ٢ / ٢٢٥ - ٢٢٦؛ الأصفهاني، الأغاني ط دار الثقافة ١٠ / ٣٢؛ السهيلي، المصدر السابق، ٢ / ٢٨٧؛ المقريزي، إمتاع الأسماع ١ / ٤١٣.

(٣) ابن هشام المصدر السابق ٤ / ٩٢؛ ابن الأثير، الكامل ٢ / ١٨٠؛ منذر عبد الكريم البكر، مصطلح الحس القومي، مجلة المؤرخ العربي عدد (٢٩)، ١٩٨٦، ص ١٣٣.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ط ١ طبعة دار الكتب المصرية ١٦ / ٥٦ - ٥٨، ٧٧؛ وأنظر محمد أحمد جاد المولى، أيام العرب، ص ٣١٥ - ٣١٦، وعن شجاعة (ربيعة بن مكدم) وأخباره، أنظر، القالي الأمالي ٢ / ٢٧١.

(٥) محمد أحمد جاد المولى، المصدر نفسه، ص ٣١٦.

(٦) القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٣٩٢.

وهو من الألقاب التي يفتخرون بها[1] حتى ضرب به الأمثال فقيل (أحمى من مجير الضعن)[2] . وقد كان حب العربي للفروسية وتقديسه لمثلها أنه ذكر أخاه الذي خر صريعاً في المعركة ولم يبال بذلك فجعل قتله وقتل كل فتى شرفاً للفتوة والرجولة وأطلقها كلمة مأثورة: - (وكان القتل للفتيان زينا)[3] .

وهكذا يتضح لنا أن مشاركة الصبيان في أيام العرب وما كانوا يلاقون فيها من مواقف عدة كانت عاملاً مهماً في تنشئتهم وتربيتهم على القوة والشجاعة والصبر والإقدام والدفاع عن القبيلة كما أنها أضفت عليهم مهابة ومجداً وسؤدداً بالإضافة إلى أنها كانت تمثل رافداً في اكتسابهم خبرة وتجربة لكي يستفيدوا منها في حياتهم المستقبلية.

لقد كانت بعض أعمال القبيلة وفعالياتها تنعكس على الطفولة في مجتمعهم ولها دور كبيرٌ في حياتهم كما أنها أظهرت اعتزاز العرب بهم بشكل صريح لأنهم كانوا إذا ما تصالحوا بعد حرب استودعوا رهائن عند بعضهم وهو دليل يشير بوضوح إلى عمق ما يكنونه من الاعتزاز لهم بحيث أنهم لم يتصالحوا على مال أو غيره إلا الطفولة فأنها الوثائق الأمتن والرباط المقدس. فعندما تداعت (قريش) ومن معها من كنانة للصلح مع (قيس) ومن معها من (هوازن) عقب يوم (الحريرة) وضعت قريش أبنائها لديهم ضماناً وتوكيداً لذلك الصلح فوضع كل من (حرب بن أمية) ابنه (أبا سفيان)[4] (والحارث بن كلدة) العبدي ابنه (النضر) و (سفيان بن عوف) ابنه

(١) الأصفهاني، الأغاني ط دار الكتب المصرية ١٦ / ٦٩؛ نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص ٦٨.

(٢) العسكري، جمهرة الأمثال ١ / ٤٠٩؛ الميداني، المصدر السابق ١ / ٢٢١.

(٣) أبو تمام، ديوان الحماسة، ص ١٣٤ (بيت رقم ١٣).

(٤) ابن حبيب، المنمق، ص ٢١٠، ابن الأثير، الكامل ١ / ٣٦٣.

(الحارث)، ولما رأت (قيس) رهائن (قريش) بأيديهم رغبوا في العفو فأطلقوهم. وانصرف الناس بعضهم عن بعض ووضعت الحرب أوزارها[(١)] .

كما كان من عادة العرب إذا توسط الملك بين قبيلتين أو أكثر لعقد صلح أخذ من أبناء كل قبيلة رهائن لديه فمتى غدرت أحدهما بحق الأخرى وقتلت من أفرادها أقاد الملك من الرهائن الذي عنده[(٢)] . وخير مثال على هذا الموضوع من الرهائن التي تودع رموزاً عند الملك ما أخذه (عمرو بن هند) ملك الحيرة من الطرفين المتقاتلين في حرب البسوس [(*)] وكانوا مائة من أبنائها فكانوا مع الملك يصحبونه في حله وترحاله[(٣)] . وعلق (جواد علي) على هذا النوع من الرهائن لدى الملوك فقال أنه فرضته الظروف السياسية الاجتماعية والعسكرية على أهل جزيرة العرب آنذاك (ليكونوا ضماناً بإطاعة آبائهم وأقربائهم سادات القبائل لهم) فلا يعتدوا بعضهم على بعض[(٤)] .

وورد في الأخبار أن (الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف) كان رهينة قريش عند (أبي يكسوم الحبشي) وقد عرف لذلك بـ (الرهين)[(٥)] . كما استعمل الأطفال كرهائن في مقابل الضمان والكفالة سواء أكان لدفع الدية، فقد رهن (أبو أحيحة بن العاص) ابنه (اباناً) في بني (عامر بن لؤي) في دم (أبي ذؤيب)[(٦)]، أو بدفع الدين كما فعل (المثلم بن مشخره) الضبي عندما

---

(١) ابن حبيب، المصدر نفسه، ص ٢١٠؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق ٥ / ٢٥٨ - ٢٦٠؛ الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الثقافة، ٢٢/ ٧٨- ٧٩؛ السهيلي، المصدر السابق، ١ / ١٢١؛ ابن الأثير، الكامل ١ / ٣٦٣.

(٢) يوسف رزق الله غنيمة، الحيرة، ص ٩٧.

(٣) الأصفهاني، الأغاني ط دار الكتب ١١ / ٤٢؛ الزوزني، المصدر السابق، ص ١٦١؛ إبراهين محمد علي، المناذر، ص ٤٧ ورد في هذا المصدر مائة رجل من أشرافهم بدل أبنائهم.

(٤) المفصل ٥ / ٦٣٣.

(٥) ياقوت، المقتضب ١ / ٤٠؛ الزبيدي، تاج العروس، ط صادر ٩ / ٢٢٢ (رهن).

(٦) مصعب الزبيري، نسب قريش، ص ٩٩.

رهن ابنه (شرحاف) لدى (عمارة بن زياد) العبسي بعد أن خسر بمقامرته معه بالقداح[1] .

لكن الطفولة في بعض الأحيان لاقت مصيراً أسوداً وتحملت مسؤولية غيرها وجرى حسابها بجريرة لم ترتكبها، فقد ذكر عن حرب داحس والغبراء أن إحدى محاولات تقريب وجهات النظر بين (عبس) و (فزارة): - أن (حذيفة بن بدر) سيد (فزارة) وكان يسمى رب معد[2] . اشترط فيها أن تودع طائفة من الصبية يكونون رهائن حتى لا تغدر قبيلة (عبس)، وبالفعل تم أخذ مجموعة من أبناء السادة والرؤساء من الأطفال وتراضوا أن تكون الرهائن عند (سبيع بن عمرو) من بني (ثعلبة بن زيد بن ذبيان) ولكن هؤلاء الأطفال لاقوا حتفهم حيث لعب عامل الغدر وعدم الالتزام بالعهود دوره وذلك عندما مات (سبيع) الذي مكث عنده الأطفال زمناً فانتقلوا إلى عهدة ابنه ولكن (حذيفة) تحايل عليه وخدعه فأخذ الصبية وجعلهم غرضاً للنبال وكانوا يصرخون - وا أبتاه - فلما سمع العبسيون بغدرهم خرجوا إليهم فعثروا على (حذيفة) مستنقعاً على ماء يقال له (جفر الهباءة) هو وأخيه (حمل) ورجال آخرون معهم فلما أبصروا بهم أخذ العبسيون يصرخون لبيكم ! لبيكم ! يريدون بذلك تلبية نداء الأطفال فكانت هذه العبارة جواباً لذلك النداء. وقد ذمت العرب فعل (حذيفة) وعدوه سبّةً وعاراً عليه[3] . وروي أن (الاوس) غدرت ببعض الغلمان من (الخزرج) ممن كانوا رهائن لديهم

---

(١) أبو عبيدة، النقائض ١ / ١٩٣؛ ابن الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط الكويت، ١٩٨٢، ١ / ١٦٣؛ عادل جاسم البياتي، الشعر في حرب داحس والغبراء، ص ٤٨.

(٢) ابن الكلبي، جمهرة النسب تحقيق محمود فردوس العظم ٢ / ١٣٩؛ ابن حبيب المحبر، ص ٤٦١؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٠٢ رب معد: بمعنى سيدها وزعيمها.

(٣) للمزيد من المعلومات راجع: - ابن هشام، السيرة، طبعة دار إحياء التراث العربي ١ / ٣٠٦ - ٣٠٧؛ الجاحظ، الحيوان ٣ ١١٧؛ ابن عبد ربه، المصدر السابق، ٥ / ١٥٨؛ القالي، الأمالي ١ / ٢٦١؛ الشريف المرتضى، المصدر السابق ١ / ٢١٤؛ ابن الأثير، الكامل ١ / ٣٥١ - ٣٥٢؛ ابن نباته، المصدر السابق، ص ٨٩ - ٩١.

أيضاً فأدى ذلك إلى التقاء الطرفين بموضع يسمى الحديقة[١] وهي قرية في أعراض يثرب في طريق مكة (كانت بها وقعة بني الأوس والخزرج قبل الإسلام)[٢] وفيها أنشد (قيس بن الخطيم) الأوسي قوله: -

أجادلهم يوم الحديقة حاسراً   كان يدي بالسيف مخراق لاعب[٣]

كما أن قيام الخزرج بعد ذلك بقتل الرهائن من الأطفال لديها أدى إلى ظهور تحالفات سياسية بيثرب فقد سعى اليهود للاستفادة من الخلافات التي كانت سائدة بين الأوس والخزرج لصالحهم وتحقيقاً لمآربهم في إضعاف العرب، ومن أجل زيادة حدة الشقاق، والحيلولة دون وحدة الكلمة بينهما لذا عقدوا تحالفاً مع الأوس في حربهم ضد الخزرج، فأدى ذلك إلى قيام يوم بُعاث[٤] . ولدينا أدلة أخرى على تحمل الأطفال مسؤولية أعمال غيرهم ما لقي أولاد (سويد بن ربيعة) الذي قتل أخاً للملك (عمرو بن هند) وهرب فأرسل الملك وراء أبناءه ليقتص منهم بجريرة أبيهم فجاء بهم جدهم لأمهم (زرارة بن عدس) التميمي فجعل الأطفال يتعلقون متشبثين بأذيال جدهم (زرارة) فكان ينتزع أذيال ثوبه من قبضتهم الصغيرة ويقول مغالباً دموعه: - (يا بعضي دع بعضاً) أي أنه جعل الأطفال جزءاً منه، وأنه معرض لمثل حالهم فضربت مثلاً بين العرب[٥] .

---

(١) ابن الأثير، الكامل ١ / ٤١٧ - ٤١٩.

(٢) ياقوت، معجم البلدان ٢ / ٢٣٢.

(٣) ديوانه، ص ٤٢؛ الأصفهاني، الأغاني، ط ١، طبعة دار الكتب المصرية ٣ / ٧؛ ابن الأثير، الكامل ١ / ٤١٩ ورد فيه لفظ (لقيتكموا) بدل (أجادلهم)؛ ياقوت، معجم البلدان ٢ / ٢٣٢.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ط ١ طبعة دار الكتب المصرية ٣ / ٢٤؛ ابن الأثير، الكامل ١ / ٤١٦ - ٤٢٠؛ إسرائيل ولفنستون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٦٢ - ٦٨.

(٥) ابن عبد ربه، المصدر السابق ٣ / ١٠١؛ الميداني، المصدر السابق ٢ / ٤١٠.



١ - النـذر للآلـــة

احتلت المعتقدات الدينية حيزاً كبيراً ومهماً في حياة الناس منذ القدم[١]، ويعد الدين واحداًمن أهم النظم البشرية التي سيطرت على نفسية الفرد بأشكال وصور متعددة باختلاف المجتمعات الإنسانية[٢] .

والدين مجموعة من (العقائد والأنظمة يتعلمها الفرد منذ عهد الطفولة) وهذه الأنظمة والقوانين والعقائد الدينية لها أثر واضح على الفرد في سلوكه وحياته في المجتمع فضلاً عن ما تقدمه (الطقوس الدينية للأفراد من الوصايا والإرشادات التي يجب عليهم الالتزام بها في علاقتهم مع الآخرين) [٣][*] وكذلك تتمثل قواعد السلوك الديني فيما تفرضه العقائد من طقوس وشعائر ومراسيم دينية[٤] .

ذكر علماء الاجتماع أن من الوظائف التي تقوم بها الأسرة هي تعليم الأبناء وتلقينهم كل ما يتعلق بمعتقدات المجتمع والطقوس التي يمارسها،

---

(١) سليم محمد العبيد، اليهود والنصارى في اليمن قبل الإسلام، ص ٢٧.

(٢) جواد مطر رحمة الحمد، الديانة اليمنية ومعابدها، ص ١٥.

(٣) خاشع المعاضيدي وآخرون، المصدر السابق، ص ١١.

(٤) مصطفى الخشاب، دراسة المجتمع، ص ١٧٠.

فالأسرة هي الجهة المسؤولة عن تنشئة الأطفال وتربيتهم من الناحية العقائدية[١] .

لقد كان موطن العرب مهداً للرسالات السماوية وكانوا يؤمنون بوجود قوى لها عليهم حكم وسلطان فحاولوا استرضاءها - هذه القوى - بمختلف الوسائل والطرق[٢] حتى أطلق أحد ملوك عرب الجنوب على نفسه لقب ابن الآلهة مثل ملك دولة اوسان[٣] .

إن تأثير العامل الديني في تنشئة الطفل وتربيته يكون واضحاً في المجتمع[٤] ، فرغبة الإنسان بالحصول على الولد رغبة فطرية، وكان العرب ينذرون للآلهة بغية الحصول على الأولاد الذكور وتعد هذه النذور من الموضوعات التي تطرقت إلى ذكرها نقوش المسند ومنها نقشارياني / ١٩[٥] ، في حين تحدث نقش آخر عن قيام قيل منطقة (ماذن) بتقديم القرابين إلى الآلهة (المقة) وهي عبارة عن تمثال من البرونز تضرعاً له لأنه منحه غلاماً ذكراً من زوجته (خال حلك)[٦] وسماه (مرس عم)[٧] . أما نقش (Ja 664) فقد أوضح أن (أيل أمر يلهب) من قبيلة (سحر) أهدى للإله (المقة) تمثالاً من البرونز إيفاءً بنذره الذي كان قد نذره إليه بعد أن رزق ولداً ذكراً وقد سماه (برلم)[٨] ولدينا مجموعة من النقوش تحدثت عن تقديم قرابيناً للآلهة شكراً وعرفاناً لأنها رزقت أصحابها أطفالاً ذكوراً مثل نقشي

---

(١) علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص ١٤، ١٦.

(٢) جواد علي، المفصل ٦ / ٥.

(٣) محمد عبد القادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، ص ٣١.

(٤) عاطف وصفي، المصدر السابق، ص ٨٨.

(٥) مطهر علي الارياني، نقوش مسندية، ص ١٥١.

(٦) مطهر علي الارياني، المصدر نفسه ص ١٢٢.

(٧) Jamme, Op. cit, (655. نقش رقم)

(٨) Jamme, Op. cit, P. 163.

جام (654)[١] و (669)[٢] . في حين تحدثت نقش (Ja 647) عن تقديم القرابين للمقة بمناسبة ولادة مولود ذكر[٣] ، كما أن تقديم القرابين للآلهة بهدف الحصول على الأولاد الذكور من الموضوعات التي شغلت فكر الأجيال الغابرة ونجد ذلك متمثلاً في أفكار سكان العراق القدماء[٤] .

والعرب اعتقدوا بأثر العامل الديني بالتنشئة وذلك منذ اللحظة الأولى للاتصال الجنسي بين الأبوين وقد ذكر أنهم كانوا يعتقدون بأن الإله (هبل كان له علاقة بالرزق والإخصاب)[٥] كما أن العرب إذا اختصموا في مولود استفتوا أصنامهم عن حقيقته، ذكر ابن الكلبي[٦] ويشاطره الرأي في ذلك الازرقي[٧] أنه كان في جوف الكعبة: - هبل، وقدامة سبعة أقداح مكتوب في أولها صريح وفي الآخر ملصق فإذا شكّوا في مولود أهدوا إليه هدية ثم ضربوا بالقداح فأن خرج صريح ألحقوه وأن خرج ملصق دفعوه، وهو ما يذهب إليه بعض المؤلفين أيضاً[٨] .

ومن المظاهر الدينية التي كانت سائدة عند العرب قبل الإسلام والمتعلقة بموضوع التنشئة الاجتماعية أنهم كانوا يلطخون رأس المولود بدم عقيقته ويلطخون آلهتهم به تعظيماً لها وإكراماً[٩] . وبذلك يتضح لنا أن العقائد

---

(١) Jamme, Op. cit, P. 159 - 160

(٢) Jamme, Op. cit, P 175.

(٣) Jamme, Op. cit,P. 358.

(٤) مراد كامل وآخرون، تاريخ الأدب السرياني، ص ٤٩، ٥٣.

(٥) هاشم الملاح، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٤١٢.

(٦) الأصنام، ص ٢٨.

(٧) أخبار مكة ١ / ١١٨، ١٩٣.

(٨) ابن حزم المصدر السابق ص ٤٩٢؛ الآلوسي، بلوغ الأدب ٣ / ٦٧.

(٩) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود، ص ٥٦.

عامل مؤثر في الحياة الاجتماعية وفي العادات والتقاليد[1] وفي تربية الأبناء.

ويبدو لنا أنه كان من عادة العرب إذا ولد لهم مولوداً فأنهم يأخذونه إلى مراكزهم الدينية للتبرك بها ويدعون له بالسلامة وطول العمر، وقد أشارت المصادر إلى أن (عبد المطلب) أخذ النبي محمدﷺ بعد ولادته وحمله إلى الكعبة وأخذ يطوف به ويعوذه حيث قال: -

الحمد لله الذي أعطاني   هذا الغلام طيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان   أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى أراه بالغ البنيان   أعيذه من سر ذي شَنآن
من حاسداً مضطرب العنان[2]

وقيل أن (عبد المطلب) حمل النبيﷺ وانطلق به إلى الكعبة فطاف به أسبوعاً ثم قام عند الملتزم وأخذ يدعو له[3] وروي أنه حمل النبيﷺ على عاتقه وطاف به الكعبة وأخذ يعوذه برب البيت ويدعو له[4] يبدو أن هذا حدث عندما كبر النبيﷺ وليس عقب ولادته وإلا لما تمكن (عبد المطلب) من حمله على عاتقه. فهذا يعني أنهم كانوا يأخذون أبناءهم إلى الأماكن المقدسة منذ ولادتهم في الأيام الأولى، ويستمرون في ذلك حتى عندما يكبرون لغرض حصولهم على البركة كما أنهم في هذه الممارسة العملية يساهمون في تدريب أبنائهم وتعويدهم على زيارة الأماكن المقدسة وعلى كيفية أداء الطقوس الدينية وهذه من مظاهر الجانب العملي في التنشئة الاجتماعية عند العرب قبل الإسلام.

---

(١) عاطف وصفي، المصدر السابق، ص ٨٨.

(٢) ابن إسحاق، السير والمغازي ص ٤٥؛ ابن سعد المصدر السابق، ١ / ٤٨؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ١ / ٨١؛ الماوردي، أعلام النبوة، ص ١٣٨؛ السهيلي، المصدر السابق، ١ / ١٠٦ - ١٠٧.

(٣) محمد بن المظفر الصقلي، المصدر السابق، ص ٩.

(٤) البلاذري، أنساب الأشراف ١ / ٩٥؛ سعيد الديوةجي، أشعار الترقيص، ص ١٢.

٢ - الأطفال والخدمة في المعابد

وهي من المعتقدات المتعلقة بتنشئة الأطفال عند العرب قبل الإسلام لأنها ترتبط عندهم بهاجس الحياة والموت وقد كان ذلك معروفاً في العراق القديم حيث ورد ذكر إحدى الأمهات وهي تعرض طفليها للخدمة في المعبد[١] كما أشار العهد الجديد للخدمة في المعابد[٢] ونجد أن هذه العقيدة مذكورة في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٣] وفي تاريخ العرب قبل الإسلام نجد أنهم كانوا ينذرون أولادهم ويقفونهم على عبادة الأصنام[٤] فقد ذكر إن (أم المغيرة) (حيي بنت حليل) الخزاعية[٥] جدة النبي محمدﷺ[٦] حينما ولدت دفعت ابنها إلى مناف وكان أعظم أصنام مكة تديناً بذلك[٧] فغلب عليه أسم (عبد مناف)[٨] وكان أسمه (المغيرة)[٩] وقد نعت (عبد مناف) أنه كان (فيه البيت والشرف)[١٠] أي الرئاسة والزعامة والسؤدد.

---

(١) صالح الرويح، العبيد في العراق، ص ٦٢.

(٢) نبوءة حزقيال فصل ٨ / ١٢.

(٣) سورة آل عمران / ٣٥.

(٤) مصطفى عبد اللطيف جياووك، الحياة والموت، ص ٤٢.

(٥) ابن الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق عبد الستار أحمد فراح، ط الكويت ١ / ٩١؛ الطبري، تاريخ ٢ / ٢٥٤؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

(٦) الطبري،المصدر نفسه٢،/٢٥٤؛ السهيلي، المصدر السابق١،/٦؛ الزبيدي،المصدر السابق، ط صادر ٦/ ٢٦٣.

(٧) الطبري، المصدر نفسه ٢ / ٢٥٤؛ الماوردي، أعلام النبوة، ص ١٢٣؛ ابن الأثير، الكامل، ٢ / ١١.

(٨) ابن الأثير، المصدر نفسه ٢ / ١٨؛ الحسني، المصدر السابق، ص ٢٣.

(٩) ابن الأثير، المصدر نفسه، ص ٢ / ١٨؛ الحسني، المصدر السابق، ص ٢٣.

(١٠) ابن حزم، الجمهرة، ص ١٤.

وقيل أن أم الغوث بن مرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس (كانت لا تلد فنذرت إن هي ولدت أن يصّدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ويقوم عليها فولدت الغوث فكان يقوم على الكعبة[١] ويسمى أيضاً بـ (صوفة)[٢] لأن أمه نذرت أن تعلق صوفة برأس الابن الذي يعيش لها[٣] وأن تجعله (ربيطاً للكعبة يخدمها)[٤] وفي خبر أنها ربطته بالكعبة بالفعل[٥] فكان يقوم على خدمة الكعبة وتولي إجازة الحجاج قبل الإسلام أي يفيض بهم من عرفات[٦] وقد ذكرت إجازة صوفة في الشعر العربي القديم[٧] . ثم تولوا ولده من بعده حتى انقرضوا فورث ذلك بنو (سعد بن زيد مناة بن تميم) من قبيلة عدوان وتوارثوه كابراً عن كابر فكان أولهم (صفوان بن الحارث) وآخرهم (أبو سيارة) (*). أن توارث هذه الوظيفة الدينية من الآباء إلى الأبناء كان لها أثر في تنشئة الأطفال وتوجيههم منذ صغرهم بالاتجاه العقائدي وتقويته في نفوسهم وتعليمهم على ضرورة المحافظة على ما ورثوه من أسلافهم بشأن تلك الوظيفة وكانت بنو تَميم تفتخر وتتباهى بهذا العمل حتى بعد الإسلام[٨] .

---

(١) ابن هشام، السيرة ق ١ / ١١٩؛ وأنظر الازرقي أخبار مكة، ١ / ١٨٦ - ١٨٧، بشأن نذر امرأة من بني جرم تزوجها اخزم بن العاص بن عمرو بن مازن بن الأسد وكانت عاقر.

(٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٠٦؛ الفيروز آبادي، المصدر السابق، ٣ / ١٦٩ (صوف).

(٣) مصطفى عبد اللطيف جياووك، الحياة والموت، ص ٤٢.

(٤) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٦ / ١٦٩.

(٥) السهيلي، الروض الآنف ١ / ٨٥.

(٦) الطبري، تاريخ، ٢ / ٢٥٧، ٢٥٩؛ ابن كثير، البداية ٢ / ٢٠٦؛ الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٢٦٢.

(٧) كستر، الحيرة، ص ٨٥.

(٨) قال الفرزدق: -

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

ديوانه، ص ٣٣؛ ابن رشيق، العمدة ٢ / ١٤٤؛ العمدة، ذيل الأمالي، ص ١١٩.

من عادات العرب قبل الإسلام ذات الطابع العقائدي والمتعلقة بالطفولة أنه في حالة غياب الأطفال أو ضياعهم يقوم أحد الوالدين بالنذر للآلهة إذا ما عاد ابنه سالماً وهذا ما أشار إليه النقش الموسوم (Ja 670) حيث قدم (شرح عنت أشوع للآلهة المقة تمثالاً من البرونز لأنه أعاد إليه ابنه (كسدم) سالماً[١] .

وذكرت المصادر إن أم العباس بن عبد المطلب (نتيلة بنت جلاب بن كليب) من بني نمر بن قاسط[٢] لما ضاع ابنها العباس وهو صغير نذرت أن تكسو البيت الحرام بالحرير والديباج فلما وجدته قامت بإيفاء نذرها فكانت أول امرأة في العرب كست البيت تلك الكسوة[٣] .

كما انعكس الشعور العقائدي بتنشئة الأطفال على ألعابهم المصنوعة على هيئة تماثيل ودمى تمثل الآلهة وقد ذكر أحد الباحثين نماذج من تلك التماثيل وأشكالها وأبعادها[٤] هذا وقد عثر على دمية للأطفال تمثل الإله بعل[٥] أنظر شكل رقم (٣)[٦] ، ومن ألعاب أطفال العرب قبل الإسلام التي كان يلعبونها في البيوت والطرقات[٧] وفي أحياء القبيلة مثل لعبة (الجعري)[٨] و(المقلاء

---

(١) Jamme, op. cit. P. 176.

(٢) ابن الكلبي، جمهرة النسب، ط كويت، ١ / ١٠٢؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص ١٥.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ١ / ٨٩ - ٩٠؛ الزركلي، المصدر السابق، ٨ / ٩؛ أحمد عيسى بك، المصدر السابق، ص ٤٠.

(٤) أحمد مالك الفتيان، دراسة عن الدمى الفخارية، مجلة المؤرخ العربي، عدد (٤١، ٤٢)، بغداد، ١٩٩٠، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٥) سبستيان زنرفال، تمثال جوبيتير، مجلة المشرق، مجلد (١١) بيروت ١٩١١، ص ٣٠٧ - ٣٠٩.

(٦) ملحق رقم (١)، ص ٨ / ٢.

(٧) جواد علي المفصل، ٨ / ٢٩٤.

(٨) وهي أن يحمل الصبي بين اثنين على أيديهما، راجع الفيروز آبادي، المصدر السابق، ١ / ٤٠٦؛ فارس الشدياق، الساق على الساق، ص ٣٠٣؛ أحمد تيمور، لعب العرب، ص ١٧.

والقلة)[١] ولعبة (المخراق)[٢] و (عظم وضاح)[٣] وألعاب (الدمى) أو (البنات)[٤] وغيرها[٥] أنظر شكل رقم (٤)[٦] ولا يزال أطفالنا يلعبون بعض الألعاب التي كان أطفال العرب قبل الإسلام يلعبونها[٧] .

٣ - التوسل بالآلهة للشفاء من الأمراض

عند دراسة النصوص العربية الجنوبية نجد أن معظمها ذات صبغة دينية[٨] وفيها الكثير من التوسل والتضرع للآلهة من الآباء بأن تمن على أطفالهم المرضى بالصحة والشفاء والعافية ويعدونها بتقديم النذور إليها. ومن أمثلة ذلك نقش (Ja 661)[٩] و (Ja 670)[١٠] ومما هو جدير بالذكر أن من مناسبات الفرح والسرور عند العرب قبل الإسلام الشفاء من

(١) عودان يلعب بهما الفتيان فالمقلاء هي الخشبة الطويلة والقلة هي الخشبة الصغيرة، أنظر: - ابن دريد، جمهرة اللغة، ٣ / ١٤٣؛ ابن سيدة: المصدر السابق، مجلد (٤)، ج ١٣ / ١٧؛ يوسف بن محمد البلوي، ألف باء ١ / ٣٢٢؛ السيوطي، المزهر ٢ / ٢٤٤؛ أحمد تيمور باشا، المصدر نفسه، ص ٤٣ - ٤٤.

(٢) ثوب يلوى أو يلف فيضرب الصبيان بعضهم بعضاً، ابن سيدة، المصدر نفسه، مجلد (٤)، ج ١٣ / ١٨ - ١٩؛ أحمد تيمور، المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٣) الجاحظ، الحيوان، ٦ / ١٤٥؛ الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٢ / ٧٢٤؛ يوسف بن محمد البلوي، المصدر السابق، ١ / ٣٢٢.

(٤) وهي تماثيل تلعب بها الصبايا، الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر، ١٠ / ٤٨.

(٥) للمزيد من المعلومات عن تلك الألعاب راجع ابن دريد، الاشتقاق، ص ١١٧؛ الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر، ٧ / ٥٧؛ الراغب الأصفهاني، المصدر السابق، ٢ / ٧٢٢؛ فارس الشدياق، المصدر السابق، ص ٣٠٥؛ أحمد تيمور، المصدر السابق، ص ٧ وما بعدها.

(٦) ملحق رقم (١)، ص ٢١٨.

(٧) جواد علي، المفصل، ٨ / ٢٩٤.

(٨) ديتلف نيلسون، التاريخ العربي القديم، ص ٢٩ وما بعدها.

(٩) Jamme, op. Cit. P. 166 - 167.

(١٠) Jamme, op. Cit. P. 176.

المرض[1] ويقولون بَـلّ من مرضه: - إذا برئ وشفى منه[2] وقد يولمون وليمة يطلقون عليها أسم (البلّه) وتعني العافية من المرض[3] .

وكان بعض نساء العرب قبل الإسلام ينذرون بجعل أولادهن حمساً[*]أن شفى الرب ابنها من مرض ألم به[4] . روي أن (منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس ابن عيلان) تزوج (سلمى بنت ضبيعة بن علي) من بني قيس بن عيلان (فولدت له هوازن، فمرض مرضاً شديداً فنذرت سلمى لئن برأ لتُحمَسَنَّهُ، فلما برأ حَمَسَتهُ)[5] لأن بني قيس عيلان من قبائل الحلة[6] .

ولما كانت الأسماء مرتبطة بتنشئة الأطفال ولها معانيها فقد كان للعامل الديني دور في تسمية العرب لأبنائهم قبل الإسلام فهنالك العديد من أسماء الأعلام المستمدة من أسماء الآلهة[7] تيمناً بها فقد سميت بعض القبائل والأشخاص بأسماء معبوداتهم التي عرفوها مع الإشارة إلى العبودية[8] مثل عبد الشارق[9] ، وعبد مناة[10] وباسم هذا الصنم سمى (تميم بن مر بن أدد بن طابخة) ابنه (زيد مناة)[11] و (عبد اللات)[12] وروي أنه (باسم اللات

(١) جواد علي، المفصل ٥ / ١٣٢.

(٢) ابن دريد، الإشتقاق ص ٣١٤.

(٣) الزبيدي، تاج العروس ٧ / ٢٣٣.

(٤) محمد جلوب فرحان، دور الإسلام في تطور الفكر العربي، ص ٦٢.

(٥) الازرقي، المصدر السابق ١ / ١٨٠.

(٦) ابن حبيب، المحبر، ص ١٧٩.

(٧) ديتلف نيلسون، المصدر السابق، ص ٣٠، عبد الحكيم شوقي، المصدر السابق، ص ١٠.

(٨) ابن الكلبي، الأصنام، ص ٣٠؛ سعد زغلول، المصدر السابق، ص ٣٠٧.

(٩) ابن دريد، الإشتقاق، ص ٣٠٥.

(١٠) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٣؛ منذر البكر، معجم الآلهة، ص ٤٣.

(١١) ابن الكلبي، المصدر نفسه، ص ١٨.

(١٢) عمرو فروخ، أسماء البنين، مجلة مجمع اللغة العربية، مجلد (١٨)، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٥٠.

سمى ثعلبة بن عكابة ابنه تيم اللات)[1] و(عبد شمس)[2] ، و (عبد يغوث)[3] و (عبد العزى)[4] وقيل أن (نهم) كان صنماً (لمزينة) وبه سموا أطفالهم، فكان منهم (عبد نهم بن يشحب بن مرة)[5] . وذكر (ابن الكلبي) أن (عوف بن عذرة بن زيد اللات) القضاعي حمل الصنم (ود) إلى وادي القرى ووضعه في (دومة الجندل) و (سمى ابنه عبد ود فهو أول من سمى به.... ثم سمت العرب به بعده)[6] حسب زعمه. علماً أن (ود) كان أحد\ آلهة نوح الخمسة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم قال تعالى ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾[7] . ووردت إشـارة إلـى أن بعض العرب كانت تزعم أن الجن بنات الله[8] وإنها - الجن [*] - عبدت قبل الإسلام قال تعالى ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾[9] ولعل لهذا يفسر لنا لماذا سمت بعض العرب أبنائها به مثل (عبد الجن بن عائذ بن سالم) من بني (ريان بن حلوان) القضاعي[10] . وذكر أنه لما ولد (لشهاب بن عبد الله بن الحارث) من بني

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٨.

(٢) الأصمعي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٧٢؛ ابن دريد، الاشتقاق، ص ١٧، ٧٣، ٤١٦؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص ١٤.

(٣) عمر فروخ، المصدر السابق، ص ٥٠.

(٤) ابن الكلبي، الأصنام، ص ١٧؛ ابن حبيب، المحبر، ص ١٦٧، ٤٥٧.

(٥) الزبيدي، المصدر السابق، ط صادر ٩ / ٨٧.

(٦) الأصنام ص ٥٥، أنظر الزبيدي، المصدر السابق ط صادر ٢ / ٥٣٠.

(٧) سورة نوح / ٢٣.

(٨) الطبري، تفسيره ٢٣ / ٦ للآية ١٥٨من الصافات، القرطبي، تفسيره، ٧/ ٥٢ للآية ٤٠- ٤١ من سورة سبأ.

(٩) القرآن الكريم، سورة سبأ / ٤١.

(١٠) الذي أنجب (عمرو بن عبد الجن) الشاعر المشهور، راجع الطبري، تاريخ ١ / ٦٢٢؛ ابن حزم، المصدر السابق، ص ٤٥١ - ٤٥٢؛ يوسف رزق الله غنيمة، الحيرة، ص ١١٢.

(زهرة بن كلاب) ولد سماه (عبد الجان) فبدل أسمه رسول الله ﷺ وسماه عبد الله[1]

وهكذا يتضح لنا أن الجانب العقائدي قد انعكس على تنشئة العرب لأطفالهم وذلك من خلال تسميتهم بأسماء الآلهة التي كانوا يعبدونها أملاً منهم في حمايتها لهم وحفظهم مما يكرهون وكذلك فأنها تعكس الرغبة في تعزيز القيم الروحية في نفوس الناشئة حتى يشعرون بقوة الرابطة بينهم وبين آلهتهم كما أنها تهدف إلى تأهيل الطفل عقائدياً وتنشئته على حب الآلهة.

علماً أنه كان للعرب قبل الإسلام غايات أخرى يبغونها من وراء اطلاقهم للأسماء على أبنائهم لها دلالاتها في تنشئتهم الاجتماعية فقد سُئل (أبو الدقيش الكلابي: - لمَ تُسمون أبنائكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح فقال إنما نسمي أبنائنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا)[2] يريد أن الأبناء معدة للأعداء في القتال ونحوه[3] فاختاروا لأولادهم الشديد من الأسماء نحو سيف، وصخر، وحرب، وأسد، ونمر تفاؤلاً بأن يكون أبناءهم أشداء على الأعداء في المعارك[4] وبالنصر عليهم[5] كما كانوا يختارون أسماء غلمانهم لمسرتهم ومسرة

---

(١) ابن حزم، المصدر السابق، ص ١٣٠؛ ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢ / ٣٨٧ (بهامش الإصابة لابن حجر)، ابن الأثير، أسد الغابة ٣ / ٢٧٧؛ وللمزيد من المعلومات عن الأسماء التي غيرها الرسول محمد (ص) بأسماء أخرى أنظر: - جاسم ياسين محمد الدرويش، موقف النبي (ص) من بعض أسماء الصحابة، مجلة أبحاث البصرة، عدد (٢٣)، ٢٠٠٠، ص ٣٩ - ٦٣.

(٢) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٤ وقد نسبها إلى (العتبي)؛ الثعالبي، فقه اللغة، ص ٢٤٠، القلقشندي، قلائد الجمان، ص ٢٢؛ وكتابه الآخر صبح الأعشى ١ / ٣٢١؛ الآلوسي، بلوغ الأرب ٣ / ١٩٣.

(٣) القلقشندي، قلائد الجمان، ص ٢٢؛ محمد محمود جمعة، المصدر السابق، ص ١١٤.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى؛ عمر فروخ، أسماء البنين، ص ٥٢.

(٥) محمد محمود جمعة، المصدر السابق، ص ١١٤؛ جاسم محمد عيسى الجبوري، قبيلة كلب، ص ١٦.

ضيوفهم فاختروا لهم خير الأسماء[1] . مثل: صبح (صبيح)، و (سعد)[2] .

وكانوا يسمون أبنائهم بأسماء قبيحة مثل غراب أو نعامة[3] لأن تلك الأسماء أطلقت على أصحابها انطلاقاً من معتقدات اجتماعية متوارثة جيلاً بعد جيل فالمرأة التي تطلق على ابنها مثل تلك الأسماء لأنها لا يعيش لها ولد فتطلق عليه أسم قبيح لكي يعيش[4] ، والمرأة المئناث وهي التي تنجب البنات[5] فإذا أنجبت ذكراً فإنها تخشى على حياته فتطلق عليه أسماً قبيحاً للحفاظ عليه[6] حسب زعمهم لعتقادهم بأنها تمنع الحسد وتبعد عنه الجن والسحر روي أن رجلاً قال لآخر: - إذا ولِـد فنفـرّ عنه فقال له: - وما التنفير قال: - غرّب أسمه فسماه (قنفذاً) وكنـّاه أبا العدّاء[7] .

٤ - نقل الموروث العقائدي للنشئ

لما كان من ضمن الوظائف التي تقوم بها الأسرة تجاه أبنائها هي تعليمهم وتلقينهم المعتقدات والطقوس الدينية التي تسود المجتمع[8] فأن تلك المعتقدات التي سادت في ذهنية الفرد العربي قبل الإسلام قد انعكست آثارها على شخصيته ومزاجه وسلوكه[9] . وهذا الأمر لم يأت صدفة أو من

---

(١) محمود محمد روسان، القبائل الثمودية، ص ١٢٨؛ جاسم محمد عيسى الجبوري، م. ن. ص ١٦.

(٢) يوسف محمد عبد الله، النقوش الصفوية، رسالة ماجستير، الجامعة الأمريكية في بيروت، ١٩٧٠، نقش رقم (ج ر غ ٣) ١٩، ونقش رقم (ج ر ع ٣٥، ٣٦) ص ٨٤، ونقش رقم (ج ر غ ٤٢، ٤٣) ص ٩٤.

(٣) الوشاء، الفاضل ٢ / ٦١.

(٤) محمد الجوهري، المصدر السابق، ص ٣٥.

(٥) الفيروز آبادي، المصدر السابق ١ / ١٦٧ (انث).

(٦) محمد الجوهري، المصدر السابق، ص ٣٥.

(٧) ابن أبي الحديد، المصدر السابق، ١٩ / ٤٠٤.

(٨) علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص ١٣٤؛ عبد علي سلمان، المصدر السابق، ص ٦٤.

(٩) عن المعتقدات الدينية التي سادت عند العرب قبل الإسلام سواء أكانوا من عبدة الأوثان أو الأحناف أو من أهل الكتاب راجع المسعودي مروج الذهب، ٢ / ١٢٧ - ١٥٢؛ الآلوسي، بلوغ =